





حسيب الحلوي
ماجستير في الآداب

الأدب الفرنسي في عصره الذهبي

مجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر، ولنشأة الأدب الكلاسيكي فيه وتطوره، ولحياة أدبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم، مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم.

الجزء الثالث



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حسيب الحلوي

ماجستير في الآداب

الأدب الفرنسي

في

عصره الذهبي

مجموعة دراسات للبيئة الفرنسية في القرن السابع عشر ، ولنشأة الأدب الكلاسيكي فيه وتطوره ، ولحياة أدبائه ومناحي تفكيرهم وفنهم ، مع نماذج مختارة من تمثيلياتهم ونثرهم وشعرهم .

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٩٥٦

LA FONTAINE لافونتين

ولد جان دي لافونتين عام ١٦٢١ في مدينة « شاتو تياري » (١) ؛ وهو اكبر الاصدقاء الاربعة سناً : فهو يكبر موليير بسنة ، وبوالو بخمس عشرة سنه ، وراسين بثماني عشرة سنة . كما انه أبطأهم انتاجاً : فقد اخرج موليير اكثر روائعه ، وبوالو اكثر اهاجيه الاجتماعية ، واخرج راسين مأساة اندروماك ، قبل ان ينشر لافونتين امثاله الخرافية Fables.

امضى لافونتين ايام الطفولة لاهياً متجولاً في الغابات الملكية التي كان ابوه يتولى الاشراف عليها . ثم بدا له بعدما انهى مدرسته ان يكون قاضياً او محامياً ، غير ان ما يفرضه هذا العمل من نظام يحد من حريته عدل به عن هذه الخطة ، ففضل ان يتابع حياة الاهمال والتواني في مقاطعته الصغيرة ، حيث لا يصرفه شيء عن المطالعة والاسترسال الى احلامه الجميلة . ولما بلغ السادسة والعشرين زوجه ابوه ونزل له عن منصبه ، فقبل الرجل كل شيء في غير مبالاة . وبعد ست سنوات رزق ولداً . بيدان واجبات الوظيفة والحياة الزوجية كانت تبدو له جد عسيرة ؛فتخلى عنها من غيرضجة، ورحل الى باريس ليكون على مقربة من ادبائها الذين سبق ان اجتمع اليهم في زياراته المتتالية لهذه العاصمة ، وهناك أصبح لا يفكر في ماضيه ابدا .وفي باريس قدم الشاعر الى وزير المال «فوكيه » (٢) ، وكان هذا الوزير في اوج مجده ، وكان يحيط نفسه بالعلماء والادباء ورجال الفن ؛ وقد وافق هواه ما في طبع لافونتين من سهولة ومرح فضمه الى حاشيته ووظف له راتباً يكفيه ، وفي عام ١٦٦١ عزل فوكيه وسجن ، فأبدى الشاعر على ضروب الوفاء ما يستحق الثناء ؛ اذ تجرأ فناشد الملك في احدى قصائده ان يعفو ؛ ولم يتأخر عن زيارة صاحبه السجين . . . وقد ساءت حاله عندئذ كثيراً واضطر ان يقضم كل ما يملك (٣) .

كان انتاج لافونتين قليلا في السنوات الست الاولى من اقامته في باريس ؛ فقد

(١) Thateau-Thierry من مقاطعة شمبانيا . (٢) Fouquet. (٣) L. F. U. 311
L. T. 292 ; Portraits Lit. 54



LA FONTAINE

استسلم الى هذه الحياة المترفة البهيجة ، بين جماعة مختارة تستلذ عشرته وتستمتع بذكائه وظرفه . ثم يزول هذا الحلم الجميل ، اذ يقبض على الوزير ويلقى في ظلمات السجن . وفي اثناء ذلك تطلب منه دوقة «بويّون» ، بنت اخي الوزير مازاران ، السيدة التي دبرت المؤامرة فيما بعد على راسين وتمكنت من اسقاط مأساة الفيدر بضعة ايام ، تطلب منه ان ينظم بعض الحكايات ، فيلبي طلبها ، ويخرج عام ١٦٦٤ اولى حكاياته Contes . كان له من العمر حين ذاك ثلاثة واربعون عاماً . وقد استبعد الناقد سانت بوف ان يكون تأخر الشاعر في انتاجه ناشئاً عن توفره على القراءة الجدّية قبل ذلك الحين . وهو يفضّل ان يعزو ذلك الى ما في طبعه من كسل وانصراف الى النوم والتلهي (١) . ثم اخرج عام ١٦٦٨ الاجزاء الستة الاولى من الأمثال الخرافية Fables . وبعد عام اخرج رواية خرافية سمّاها : «أهواء بسيشيه» واتبعها باخرى اسمها «آدونيس» . ثم اخذ يوالي تأليف الحكايات المنظومة والخرافات المنظومة وينشرها (٢).

على ان سوء الحال لم يلازم الشاعر طويلاً بعد هَوِيّ نجم «فوكيه» . فما لبث ان وجد من يضمه اليه من الأصدقاء ، فهو ينتقل من احضان جماعة الى احضان جماعة ؛ اذ كان مفهوماً ان هذا الطفل الكبير لا يستطيع ان يقوم بأود نفسه ولا ان يتدارك حاجاته المادية . وفي عام ١٦٦٤ اصبح تحت رعاية دوقة اورليان . وقد وجد عندها من الفراغ ما لم يكن يجده عند الوزير الذي كان يتقاضاه شعراً على ما يقدم اليه من مال. فلما توفيت الدوقة انتقل الى كنف صديقتها مدام دي‌سابليه وبقي عندها عشرين عاماً يلازمها ملازمة الظل ، اذ كانت لا تخرج الى مكان إلا «صحبة كلبها وقطها ولافونتين.» بفضل هؤلاء المضيفين الكرماء كانت حياة الشاعر خفيفة هادئة ، لحمتها وسداها بعض النزهات ، وتأليف الحكايات والخرافات ، وبعض الزيارات للمجمع العلمي الذي اصبح آخر الامر عضواً فيه (٣) .

دخوله الاكادمية ـ لقد تجاوز الشاعر الستين من عمره ، واصبح رجلاً ذائع الصيت ، يتحدث الناس عن ظرفه ، ويعجبون بشعره ، واصبح له اصدقاء اقوياء يأخذون بيده لدخول المجمع العلمي ؛ فتقدم اليه عام ١٦٨٢ ، ولكن لافونتين كان له كما لغيره اعداء ، وان لم يكن هذا الرجل الطيب عدواً لأحد . هؤلاء الاعداء اخذوا عليه تلك الحرية التي يعيش فيها ويكتب بعض آثاره بوحيها ؛ وكان الملك يشد هذه المرة

(١) Portraits lit. 57 (٢) L. F. U. 311 (٣) L. T. 293 (٤) Pierre Clarc 409

أزر اعداء الشاعر لانه لم يكن يرضى عن شذوذ مسلكه (١)، فضلا عن ان الشاعر كان من محبي الوزير فوكيه؛ وكان الوزير «كولبير» الذي خلف فوكيه على خزينة البلاد كذلك من خصومه. كل ذلك حال بين لا فونتين ودخول الاكاديمية؛ ولكن بعد عام شغر منصب آخر فتقدم الشاعر اليه وحاز موافقة اعضاء المجمع، غير ان الملك يحول بين الشاعر والعضوية هذه المرة كذلك ويأمر بتقديم صديقه ومؤرخه الشاعر الناقد بوالو. وشاء الصدف ألا يطول أمد هذه المنافسة بين الصديقين العظيمين، اذ لا يلبث «كولبير» ان يموت وكان عضواً في المجمع، فيشغر مكان آخر. ويفوز الرجلان بالعضوية معاً (٢). وقد جاء في بلاغ الملك في الموافقة على تعيين لا فونتين هذه الاشارة التي لا تخلو من الغمز من جانبه: «لكم ان تضموا اليكم لا فونتين، فقد وعد ان يكون حكيماً (٣).» فردّ الشاعر في خطبته التقليدية عند دخوله المجمع بهذه الكلمة الظريفة على الملك الذي أخّر قبوله: «ان أميرنا لا يفعل شيئاً لا تزينه الكياسة، سواء أمنح أم منع.» وقال رئيس المجمع بعد ان أثنى على مناقب الشاعر: «لا تقم يا سيدي وزناً لما فعلته في الماضي!» ثم عرض الاعضاء حسب العادة آخر انتاجهم الشعري؛ وعلى اثر ذلك نهض لا فونتين ليؤدي واجب الوفاء للسيدة التي احسنت اليه وليُشركها في مجده، وألقى قصيدة بليغة (٤)، نقتطف منها ما يلي:

مِنْ مكين اللذات لم أسِرْ إلا وراء الظلال
لقد اسأتُ دائماً استغلال أثمن النعَم:
فمن الافكار الملهية، والحوار المستبهم،
ثمرات الفراغ الباطلة، ولذاذات الاوهام؛
الى الأقاصيص واللّعب، ووباء الاقوام،
التي بها تزيغ العقول مهما اوتيت من نهج رزين؛
الى الشهوات السخيفة التي تعبث بالقوانين؛
الى مئات الاهواء الأخرى يستنكرها ذوو الالباب،
كل اولئك عبث ما شاء مني بزهرة الشباب.
وانما يمحو هذه الآثام ان افعل أفضل المبرات؛

---

(١) L.T. 293 (٢) Pierre Clarc 409 (٣) قصة الادب: ج ٢ قسم ١ ص ٣٠٠ (٤) Pierre Clarc 410

أعلمُ ذلك ، ولكني لا ازال اسعى وراء الترّهات .

• • •

فانْ وجب آخر الأمر ان افارق مثل هذه الافكار ؛
فلن ارى من لحظات العمر ما يغري باطراح الاوطار :
فأرتدّ الى الوراء ؛ ولعلي انتظر حتى فوات الاوان .
اد من ذا الذي يستطيع ان يحدّد لرحيله الزمان .
وإنّ أجلنا لقريب مهما تمدّ منه الأسباب .

• • •

ماذا تجدي عليّ هذه الاشعار عنيت في تدبيجها ؟
أليس لي ان انتظر من ثمرتها غير الثناء عليها ! ؟
ليس يغني ما فيها من نصح اذا لم اسلك نهجها الأثير ،
واذا لم اعرف في الأقل أني بدأت شطر العمر الأخير ؛
ذلك بانني لم اعش ، فقد استعبدني طاغيتان :
الحب والشهرة الباطلة ايام حياتي يتقاسمان .
ما هو العيشُ يا إيريس ؟ في وسعك ان تخبرينا ؛
جوابك حاضر ، ولكأنه يطرق آذاننا :
هو الاستمتاع في هدوء بالحقيقي من الخيرات ،
واستغلال الفراغ جيداً مع جميع الاوقات ،
وأن نقضي ما علينا من فروض للكائن المتعال ،
وان نرغب عن ملّة الشيطان لنحظى بحسن المآل (١) .

وفي الاكاديمية اشترك لا فونتين فيمعركتين : فبعد انتخابه بقليل انحاز الى جانب المجمع في خصومته مع اللغوي المعروف «فيروتيار (٢) » حين اخرج قاموسه . وبعد ثلاث سنوات نراه كذلك يخوض غمار المعركة بين انصار القديم وانصار الحديث فينتصر للقدامى (٣) .

ثم تهتدي المضيفة الكبيرة وتزهد في الدنيا وتتخلّى عن مجلسها الحافل بالأدباء

(١) عن Portraits lit 62 (٢) Furetière ولد ١٦١٩ ومات ١٦٨٨
(٣) L.T. 293 و Pierre Clarc 410

والظرفاء ، ومن بينهم الاديبتان المعروفتان : مدام دي سيفنيه ومدام دي لا فاييت ، وتولي وجهها شطر الفقراء والمرضى وتمدّ يدها لمعونتهم ، فتقفر حياة الشاعر وتظلم ؛ ثم يأخذ في التردّد الى قصر الامير كونتي ؛ ويتعرّف الى امرأة ذات ثراء هي مدام هيرفارت (١) ، فتشمله برعايتها وحدبها ، وتنزله ضيفاً عليها بعد وفاة مدام سابليار (٢) . وفي عام ١٦٩٢ أصيب الشاعر بمرض خطير واهتـــدى بدوره وندم على ما فرط منه واعلن على رؤوس الأشهاد استنكاره لما في « حكاياته Contes » من زيغ وشطط ؛ ثم شفي واستمرّ على توبته (٣) . وفي شباط « فبراير » ١٦٩٥ عاوده المرض،فكتب الى صديقه « موكروا (٤)» يقـــول :

« مضى عليّ شهران لا ابرح منزلي ابداً الا لزيارة المجمع في بعض الأحيان ، اذ أن ذلك يسليني . عندما كنت عائداً منـــه في الأمس اعتراني في منتصف الطريـق ضعف ظننتني لا بدّ ميتاً منه . ايها الصديق العزيز ! ليس الموت بشيء ؛ ولكن هـل تفكر انني سأمثل عن قريب بين يدي الله ؟ اتعرف كيف عشتُ . قبل ان تتلقى هذه البطاقة ربمـا فتحت لي ابوابُ الابدية . . . »

وهاك جواب صديقه :

١٤ شباط (فبراير) ١٦٩٥

صديقي العزيز : لقد سبب لي كتابك الأخير كثيراً من الألم . بيد أني سأقول لك في الوقت نفسه ان ميولك المسيحية تحمل الى قلبي كبـير العزاء . يا احب الأصدقاء ، ان اكثرنا استقامة هم كذلك في حاجة الى عفو الله سبحانه ورحمته . فكن كامل الثقة فيـه وابتهل اليه تعالى من كل قلبك . اي شيء لا تستطيع التوبة النصوح ان تناله من هـــذا الطبيب المطلق ؟ فاذا أفضل الله بردّ صحتك اليك ، فأنا آمل ان تأتي لتمضي آخر العمر معي ، وان نتبادل الحديث عن غفـران الله . اما الآن ، فاذا كنت لا تقوى على الكتـابة اليّ ، فأنا ارجو السيد « راسين » ان يتفضل علي بهذا المعروف ، وهو اسمى ما يمكن ان يقدّمه اليّ . الوداع يا اقدم الأصدقاء وأكرمهم . اسأله تعالى ان يتغمّد منك الجسم والروح بعظيم رحمته . »

لم يكن يفكر قبل ذلك في الدين ، ولكنه لم يقف منه موقف العداء (٥) ؛ وها هو

---

(١) Hervart (٢) La Littérature du siècle classique 88
(٣) Portraits lit 66 (٤) L.F.U. 312 Maucroix (٥) L.T. 293

ذا الآن منيب الى الله ؛ ومات الشاعر العظيم في بيت السيدة هيرفارت في ١٣ نيسان (ابريل) ١٦٩٥ وهو في الرابعة والسبعين من عمره. ولم تكن امرأته بلاريب الى جانبه. فعندما نزعوا ثوبه وجدوا تحته قميص التوبة والزهد (١) !

اخلاقه : — في اليوم الثاني من وفاة الشاعر كتب صديقه موكروا : «انني لم أجد قط نفساً اكثر براءة ولا صفاء من لا فونتين : فهو لا يعرف التدليس ولا التزوير ، ولعله لم يكذب مرة واحدة في حياته (١) . » ان الرجل كله في هذه الكلمات القليلة ، وكذلك لا فونتين الشاعر . فالصدق وسلامة القلب والجري مع الطبع ، هذه الخلال التي حببت الرجل الى اصحابه هي التي مسحت آثاره بالجمال والجاذبية . ما من مرة تحدث عن نفسه ، في الشعر او في النثر ، الا التزم الحقيقة . فاذا نحن قرأناه لم يخف علينا شيء من مزاجه وميوله وصداقاته وغرامياته ونواحي نشاطه ونواحي ضعفه . هناك سذاجة عذبة تحملنا على الاغضاء في حنان عن الشذوذ في حياته وفي شعره ؛ سذاجة طفل غرير نراها في فوضى حياته كما نراها في ورعه آخر ايامه . لقد كان — كما يقول الأب اوليفي (٢) — صادقاً في توبته ، كما كان صادقاً في سلوكه ، فلم يخادع الله ولا الناس (٣) . لم تكن حياته مثالية ، اذ لم يضطلع يوماً بواجب ما : كان تنقصه الارادة والشعور بالمسئولية . ترك كل شيء ، امرأته ، واولاده ، ووظيفته ، وجاء الى باريس ، ليعيش فيها فارغ البال ، على نفقة المعجبين الكرام . فهو في الحق اناني . بيد انها انانية من نوع خاص : انها انانية الأطفال المنبثقة من الغريزة الصافية ، والمنزهة عن الحرص والبخل والمصلحة ، والمتصفة بالعفوية التامة . فلا فونتين مهما تكن الظروف انما يستسلم لطبيعته ، بما فيها من حنان وعطف وصداقة على الخصوص ، وما من احد عبر عن هذه العلاقة النبيلة بمثل دقته ورقته (٤) (راجع ترجمتنا لقصيدته : الصديقان .) ان اثمن اللذات في نظره ان يترك لأحلامه العنان فتنطلق وفق ما يشتهي ، حتى لقد نظم هذه الابيات واوصى ان توضع على قبره :

لقد ولى جان مثلما جاء ،
أكل رأس المال والعائدات ،
واعتبر الكنوز أشياء لا ضرورة لها .
اما وقته فانه تصرف فيه جيداً :

---

(١) Pierre Clarac 491—492 (٢) Olivet (٣) L.F.U. 312
(٤) L.T. 294

فنام شطراً وارتاح شطراً آخر !

غير أننا نخطىء اذا فهمنا ما يقال عن كسله واهماله فيها حرفياً ، وهو الذي قرأ في الواقع كثيراً وتأمل كثيراً وانتج كثيراً . فلعله لم يكن ينام بقدر ما يخيّل الينا ، ولعله كان يؤدي بعض واجبه حينما كان يحلم ولا يعمل في الظاهر شيئاً . فبفضل هذا الاهمال والتلهي استطاع الرجل ان يحقق النظر ويطيل التفكير ويولّد الصور ويثقّف القوافي ويخرج التحف الخالدة ؛ وعلى الجملة فقد كان لدى شاعرنا ما نحب ان ندعوه بالكسل الخالق .

ونخطىء اذا أخذنا بالظواهر فظننا ان بساطة عاداته وسذاجة اعماله كانتا تسدلان حجابا امامه وتحولان بينه وبين المنظر الى الحياة بجلاء وعمق : فلئن كان الطبع رخواً مطواعاً ، فلقد كان الذهن مرهفاً نفاذاً . وصفه الأديب الكبير « لابرويار » فقال انه يبدو خشناً بليداً لا يجيد الحديث ولا يعرف ان يقصّ على جليسه ما رأى . وقال اوليفي « ربما لم يحزر الانسان ماله من مواهب اذا نظر الى ملامح وجهه ؛ فابتسامة بلهاء ، ومظهر ثقيل ، وعينان فاترتان في الأغلب . . . قلما بدأ الحديث ، بل كان في العادة ان يسهو عنه حتى ليجهل ما يخوض فيه الآخرون . هنالك شيء آخر يداعب خياله . . . » ولكن اوليفي يعود فيضيف الى ذلك : « بيد أنه حينما يكون بين اصدقائه وحينما ينشط في الحوار في جدل مستحب ، خاصة على المائدة ، هنالك يندفع ويحمى وتشتعل عيناه : ذلك هو لافونتين في حقيقته (١) . » ويقول الناقد الشهير سانت بوف : « استقبل شاعر الوزير فوكيه منذ البداية كزينة من امتع الزينات في ذلك المجتمع المهذب . ومهما قيل عنه فانه كان محبباً جداً الى الناس ، وبخاصة الى اصحابه الأدنين ؛ كان حديثه على ما فيه من سذاجة وإرسال ، يزدان عند الحاجة بلمعات ذكية ، وكان ذهوله يمّحي في الوقت المناسب لئلا يزيده إلا جاذبية وجمالا : لا شك انه كان اقلّ دعةً في المجتمع من كورني . كان النساء والبطالة والنوم تتوزع رغباته . وكان ينسجم في كل ذلك على خير وجه ، بل كان يتمدّح به احياناً ويتحدّث مختاراً عن نفسه وميوله من دون ان يُشعر جليسه الملل وربما حمله فقط على الابتسام (٢) . » اما ما وصفه به لابرويار ، فنستطيع ان نلاحظ فيه بعض المغالاة ، على طريقته في تفخيم بعض الملامح وابرازها ، ولا يخفى ما يرمي اليه من مقابلة

---

(١) Pierre Clarac : P : 494 Les Caractères II, P : 48

(٢) Portraits lit 56

عبقرية الرجل بظاهره العادي . وكان لا فونتين الى ذلك عظيم الاحترام للنساء ، يثني على ذوات الفطنة والرزانة منهن ، من غير احتقار لغيرهن (١) . وعلى الجملة فان احداً لم يكشف بامانة عن حقيقة الشاعر كما كشف هو عن نفسه ؛ فلنصغ الى ابيات اخرى من تلك التحفة الخالدة التي القاها يوم استقباله في الاكاديمية ، فهي تكشف لنا عن الكثير من اخلاقه ومزاجه :

انما انا شيء خفيف ، والى كل موضوع أطير ؛
فانتقل من غرض الى آخر ، ومن زهر الى ازاهير ؛
واخلط بعض الجد بعدد كبير من اللذاذات .
لعليّ اكون أرفع مقاماً في معبد الذكريات
لو أني في نوع واحد كنت افنيت أيامي ؛
بيد أني انتقل في أشعاري كما انتقل في غرامي .
حين ارسم صورتي انا الذي اتوجه لنفسي باللوم ،
ولا اريد أبداً ان اجعل عيوبي حسنات بالوهم ؛
لست ارمي الا الى ان ابيّن من غير ان اداجي
نتائج الخير والشرّ الكامنة في ومزاجي .
ما إن يكاد العقل يضيء مني هذه الروح
حتى احس من ايامي الاولى بوخز الجروح .
ما اكثر ما اصطلح علي مذ ذاك من اهواء ،
فاستمتعت بحقوق المنتصر ذي الغلواء .
انا اخشى ان يمضي في السفاسف ما بقي من اوقاتي
على نحو ما مضى في اللذات ربيع حياتي .

يقول « تين » : « ليس في الناس من يفوق لا فونتين وداعةً وطواعية وعجزاً عن الانطواء على الضغينة . ليست سخريته من الخبث في شيء ؛ انما هي اللهو المجرد من الاذى . بل قد تعطفه الرحمة احياناً على المخدوعين من اشخاص حكاياته فنشعر بذلك لدى قراءته . ابداً لم يؤذ انساناً ولم يتحدث عن احد بسوء ، الا ان يكون ذلك شعراً في معرض التعميم .

---

(١) L.F.U. 312

اما النساء فلم يذكرهن الا بالخير على الدوام (١) . » ثم يقول في مكان آخر (١) : « لقد اعطى صديقيه : بانتريل وموكروا (٢) كل ما يملك . . . أعني وقته ومجده ، فترجم لهما الاشعار ، وقرن اسمه الى اسمها ليقرأ الجمهور مؤلفاتها . »

اما عن عبقريته فني استطاعتنا كذلك ان نستقي من شعره كثيراً عن مصادر هذه العبقرية واتجاهاتها ؛ وهو في كل ذلك لا يحيد عن الحقيقة ولا يتجاوزها : فهو يذكر لنا انه نهل من ادباء القرن السادس عشر ومن ادباء النهضة والقرون الوسطى ؛ وانه قرأ في شغف شعراء اللاتين من امثال تيرانس وفرجيل واوفيد وسينيك ، كما انه قرأ للادباء اليونان وبخص منهم افلاطون وبلوتارك ، وذلك في الترجمات ، لأنه فيما يظهر لم يكن يلم باليونانية إلماماً كافياً . بل ان نهمه الفكري ليتجاوز هؤلاء القدامى الى غيرهم من مختلف الشعوب :

أعز أريوست (٣) وأحترم لوتاس (٣) ؛
ويملك مشاعري مكيافيللي (٣) وبوكاس (٣) ،
فما أني في ذكرهما حتى يمس جليسي الخبال ؛
وانا اقرأ لادباء الجنوب كما اقرأ لادباء الشمال .

كيف كونت هذه القراآت المتشعبة اكبر شعراء فرنسا طرافة وشيخ شعراء المنظومات الخرافية في العالم اجمع ؟ انه هو كذلك الذي يكشف لنا عن هذا السر :

بعض المقلدين أعترف انهم كالحمقى من الأنعام ،
اذ يتبعون راعي « مانتو » (٤) تماماً كالأغنام .
انني اتصرف على وجه آخر ، فحيناً يؤخذ بيدي فأنقاد
كثيراً ما اسير وحدي سعياً وراء السداد .
سترون انني افعل مثل هذا على الدوام ،
فما كان اقتدائي ابداً بعبودية واستسلام :
لا آخذ غير الفكرة والطريقة والقانون
التي كان اساتذتنا انفسهم يتبعون .

Taine 26, 31 (١) Maucroix, Pintrel (٢) Le Tasse, Arioste (٣) Boccace, Machiavel,
(٤) مدينة ايطالية ولد الشاعر فرجيل بقربها وهو الذي يكني عنه لا فونتين براعي مانتو فيما يظهر .

على انه اذا اعجبني عندهم بعض المواضع الرائعات ،
وامكن ان تسلك بين اشعاري من غير ما إعنات ،
فانا انقلها ، وأريد ان أتقي التكلّف العقيم ،
حين أجهد ان أسيم بطابعي ذلك اللحن القديم .

والحق ان لافونتين اقتبس كل شيء من غيره ، ثم وسمه بطابع عبقريته وفنّه [1]. اخذ من « إزوب » [2] اليوناني ، واضع الحكايات الخرافية المنثورة ؛ وأخذ من «فيدر» [3] اللاتيني ، ومن «بلبي» [4] الهندي ، ومن الادبين الفرنسيين في القرن السادس عشر : مارو ورابوليه [5] ، ومن كل من عرف من كتاب الخرافة المحترفين والطارئين. وكثيراً ما كان يخلط عناصر قصتين ، أو يزيد او يختصر او يصلح ، وهو يصوغ ذلك كله على طريقته وينفخ فيه من خفة روحة وجمال دعابته [6] .

على ان التخلي عن شرف ابتكار الموضوع هو في مجال الحكايات الخرافية دليل ذوق أصيل . فالامثال من هذا الطراز هي بطبيعتها نوع عفويّ بدائي : ان تفكير الفرد لقاصر عن خلق مواضيع خرافية في المنظومات الخرافية وفي الملاحم على حدّ سواء . لا بدّ ان تنبعث هذه الاشكال الرمزية من اوساط الشعب او ان تتخمر مدى سنين طويلة لتتقبل النفس كل ما فيها من غرائب واحالات [6] .

ولافونتين ، على تحرر فكره تحرراً لا يقدّمه فيه اديبٌ من رجال عصره ، لا نراه يشذّ في مذهبه الفني عن غيره . فهو كمعاصريه لا يعترف الا بالطبيعة ومحاكاة الأقدمين . نجد ذلك واضحاً في ابيات ارسلها الى صديق له على اثر نجاح احدى ملاهي موليير :

لقد غيرنا ذلك الاسلوب القديم ؛
فما نرتضي اليوم «جودلي» [7] ومذهبه العقيم.
لن نبتعد بعد الآن خطوة واحدة
عن الطبيعة السليمة الراشدة .

غير ان احداً لم يفهم الطبيعة الانسانية ولم يعبّر عنها مثل ما عبر اليونان والرومان،

---

(١) المصدر السابق 312-313 (٢) Esope عاش حوالي القرن السادس قبل الميلاد ، وخرافاته نثرية ، جافة ، موجزة . (٣) Phèdre (٤) Pilpay
(٥) Marot, Rabelais (٦) L. T. 296-297 (٧) Jodelet

فلا معدى لنا اذن عن محاكاتهم ، ولكن من دون ان يطغـــى ذلك على شخصيتنا وابداعنا (١) .

وهو لا يشذ كذلك عن رجال عصره في نظره الى امتناع العمل الفني الاصيل على التسرّع والارتجال . لقد اطال البحث عن ميوله الادبية ، ولم يخرج منظوماته الا بعد تلمّس وتفحّص ، وبعد ان بلغ السابعة والاربعين من عمره . ان ما نراه في هذه المنظومات من سهولة عجيبة لا شك انه لم يتوصل اليها الا بالجهد وطـــول التنقيب . كل منظومة ما زال يغيّر منها بجدّ وعناية حتى بلغت ما نراه فيها من كمال . لقد حفظت قصيدته : الثعلب والذباب والقنفذ ، على صورتين ، فلم يترك في ثانيتهما من اولاهما غير بيتين اثنين (٢) . هذه هي السهولة الصعبة ، كما عبّر عنها الاتباعيون ، وكما نصح بها بوالو : إصنع بجهد شعراً سهلاً .

اما هدف الفن عنده فهو الهدف الذي وضعه جهابذه الاتبـاعيين نصب اعينهم : ان يثقّف ويبعث على السرور . قال بوالو :

القارىء اللبيب يتجنب العبث في تسليه ،
ويريد أن يعود عليه بالفائدة كل وقت عضيه (٣) .

والى ذلك يشير لافونتين في مقدمة المجموعة الاولى من الامثال الخرافية : «هذا ما يطلب اليوم ؛ يراد جدّة وسرور . لا ادعو سروراً ما يثير الضحك ، بل نوعاً من الجمال ، روحاً مستحباً يمكن ان نبثه في صنوف المواضيع جميعاً ، بما فيها الجدّي العابس (٤) . »

الامثال الخرافية — ان شاعراً في مثل نزوع لافونتين الى الحرية لا بدّ له من معالجة نوع ليّن العريكة يطوع (٥) لمختلف اهوائه ، ويتناول عند الاقتضاء جميـــع مراميه . والامثال الخرافية هي اكثر الانواع الادبية استجـابة لهذه الاغراض : فهي تكون قصصاً او حواراً او سرداً عابثاً او سرداً جاداً او مقطّعات ريفية او وجدانية او نقداً او تصويراً للحيوان والانسان والطبيعة . ما من كتاب يفوق « امثال لافونتين » Fables تنوعاً وانسجاماً ؛ وكثيراً ما يتغيّر المنحى في القصة الواحدة ، كما في «فلاح الدانوب» ، حيث يبدأ الشاعر بوصف واقعي ، ثم ينثني الى مقطع خطابي بليغ (٦) .

(١) L.T. 296—297 (٢) L.T. 294—295 (٣) البيتان : ٨٩ ، ٩٠ من «فن الشعر»
(٤) L.T. 297 (٥) ينقاد (٦) L.T. 295 -296

يتناول لافونتين في امثاله موضوعات تقليدية كما ذكرنا؛ ثم يجدّدها بما يسكب فيها من طبعه الفنيّ، ومن تأثراته ورشاقة تعابيره. يتساءل المرء غالباً: ايّ جهد عبقريّ استطاع ان ينقل الى هذا الافق الرحيب نوعا من الادب جدّ دقيق؟ الجواب على ذلك ميسور: ذلك ان الشاعر يصبّ شخصيته وروحه في كل ما يكتب. انه لم يقتصر على نظم مواضيع «ايزوب» و«فيدر» وغيرهما من كتّاب الامثـــال الخرافية، ولكنه يصبّ في هذه المواضيع الهزيلة نظراته الخاصة ومزاجه فينفخ فيها الحياة والقوة والجمال. مثال ذلك ان هذين الكاتبين يقدمان له حادثا لا لون له ولا نكهة: العربة والذبابة. فاذا قرأ ذلك لافونتين تذكر رحلة قام بها في مقاطعة «ليموزان» وتخيل احد وديانها، وتذكر العربة التي كانت تصعـــد المنحدر الجديب بجد وعناء. كل هذه الانطباعات المستيقظة تنتظم الآن في لوحة عجيبة، ذات الوان متناسقة عميقة. من نفسه، لا من مصادره انما يتدفق الشعر وطرافة التصوير (١).

وكثيراً ما يظهر طابع الشاعر الخاص بأوضح الصور، ولا سيما في رشيـــق سخريته ورقيق عاطفته؛ ولكن من غير ان يشوب ذلك ما نجده عند الابتداعيين (٢) من اجواء غائمة صاخبة. فاما سخريته فهي شائعة في كل مكان؛ نراها في تلك الحرية وعدم الكلفة حينما يتحدّث عن الآلهة، وفي ذلك الاسلوب الفخيم يتناول به المعـاني الصغيرة، وفي ملاحظات عابثة ماكرة، واخيراً في بعض النعوت الغريبة المفاجئة. واما العاطفة فنراها هنا وهناك: كثير من هذه المنظومات ما هو إلاّ معرض لاحلام الشاعر وتأملاته في الموت: «حكاية الموت والمحتضر»، وفي الصداقة، «الصديقان»، وفي الحب: «الحمامتان»، وفي العزلة: «حلم ساكن الموغول». ما اكثر ما يتساءلون اين هو الشاعر الغنائي في القرن السابع عشر: ألا إنه هنا، في هذه الامثال الخرافية التي عرفت كيف تقدم من العناصر الغنائية الكمية والكيفية المناسبتـــين لروح ذلك العصر وذوقه. انها لمزيج فريد للمادة الموضوعية والعاطفة الشخصية (١). لقد ختم الشاعر كل امثولة بطابعه، فما من واحدة، حتى التي لم يُصب فيها كبير توفيق، الا تشرف علينا خلال بعض ابياتها طلعةُ الرجل المشرقة الطروب (٣). يقول سانت بوف: «ان لافونتين هو وحده شاعر فرنسا الحالم الذاتي، قبل «أندريه شنيه». لقد وضع

---

(١) L. T. 297-298 (٢) Romantiques (٣) L. F. U. 318

نفسه طالما مختارا في شعره ، وحدثنا عن نفسه ، عن اهوائه ونواحي ضعفه . ما اكثر ما نجد عنده تلك النغمات التي تنبعث من القلب وذلك التحنان الحزين الذي يقـرّبه من شعراء هذا الجيل (١) » .

غير ان لافونتين يسكب هـذه الشاعرية في نوع من الادب التمثيلي يقوم في الاساس على عمق التحليل ودقة الملاحظة ، ورشاقة الحوار ، وفجائية الحوادث والحلول، وبخاصة على تنويع الطبائع وابرازها . انه يريد ان يكتب :

تمثيليةً واسعة الآفاق في مئة فصل
تجري حوادثها على مسرح هذا العالم (٢).

فخلف ستار من الرموز التي يتطلبها هذا النـوع ، يعرض علينا الشاعر لوحة كاملة للحيـاة الانسانية وللمجتمع الفرنسي آن ذاك . ان لافونتين ليملك القدرة على الغوص الى اغوار النفوس ، وحاسةَ الشعور بالواقع معا : فقد استطاع ان يصور الناس من كل صنف : ملوكا ، وسادةً ، واثرياء ، ورجال الدين ، وعلماء ، وفلاحين؛ ومن كل الشيم : متكبرين ، وجبنـاء ، وفضوليين ، وذوي اثرة ، واستغلاليين ، ومنافقين — كلٌ بهيئته ولهجته اللتين تناسبانه وتعبّران عنه . انه يعرف الانسان كموليير، ويعرف المجتمع كسان سيمون (٣) . يقول الناقد الكبير «تين» في كتابه الفذّ عن لافونتين : «ان لافونتين بين شعراء فرنسا بمنزلة هومير بين شعراء اليونان . فهو شامل مثله : الرجال والآلهة والعجماوات والمناظر الطبيعية الخالدة ، والمجتمع لذلك العصر ، كل اولئك في كتابه الصغير . تجد الفلاحين فيه الى جانـب الملوك ، والقرويات الى جانب السيدات العظيمات ؛ كلٌ في ظروف حياته وعواطفه ولغتـه ... ان صغارنا ليتعلمونه عن ظهر قلب كما كان صغار الأثينيين يستظهرون هومير . بيد انهم لا ينفذون الى اعماقه بل يفهمونه على الاجمال . »

وتقضي قوانين هذا النوع ان يتقمّص الاناسيّ مظاهر الحيوانات ، فاذا بلافونتين بهذه المناسبة يكشف عن مواهب لا تجارى في تصوير الحيوان . انه ليرسم لنا بدقة وحياة عجيبتين الهيئة الظاهرة للحيوان : شبحه ، هيئته ، تصرّفه . هذه صور طبق الأصل ، كما قالت مدام دي‌سيفنيه في رسالة لها الى ابنتها . وعلى اساس هذه المظاهر

---

(١) Portraits 59-60 (٢) L. T. 298-299 (٣) Taine 46-47

المادية يختار الشاعر الصفات المعنوية المناسبة لهذا الحيوان او ذاك [١] . ان شاعر الحكاية الخرافية لا يقف عند اظهار الانسان في لباس الحيوان، بل يزيد فيكشف عن خصائص الحيوانات وطبائعها المختلفة ، في دقة متناهية نادرة . ان طبيعة الشاعر في نفسه مـا كانت لتصدّه عن توخّي الصفات البارزة الحقيقية من هذه الحيوانات التي طالما كان يلاحظها في البرية والريف . فاذا تم له ذلك جعل يلاحظ غرائز هذه الحيوانات المختلفة، على نحوها القريب من غرائز الانسان . هذه الكائنات الغريبة ليست اذاً من الاناسي ولا من العجماوات . انها ولائد خيال الشاعر ؛ فهي بين المخلوقات قبيلٌ قائم بذاته : انها حيوانات لافونتين [٢] .

اما مسرح الحوادث فقد اختاره الشاعر في الاغلب من الريف حيث امضى طفولته وجانبا من شبابه . اننا لا نجد انفسنا لدن قراءته امام صور شائهة باردة من وحي الخيال، بل امام مناظر الطبيعة قد رسمتها يد صناع في خطوط سريعة دقيقة ، توحي اكثر مما تقول ، فما من احد املك لفن الايجاز من لافونتين . كل كلمة تجيء في محلها المناسب تستطيع ان تستحضر عنده الصورة التي يشاء ، غابةً كانت ام مرجاً ام ساقية ام وادياً ام أفقاً لا زورديا . يكاد يجمع النقاد على ان لافونتين وحده بين شعراء عصره ، اذا استثنينا بعض رسائل مدام دي سيفنيه ، هو الذي أُشربَ جمال الطبيعة وعبر عنه في شعره بقوة ورشاقة ، ذلك الجمال القديم الذي شاءت النظريات الاتباعية ان تصرف النظر عنه ، ثم جاء لافونتين فغرف من بحره واعاد اليه اعتباره [٣] : فحقول الحنطة العريضة يتنزه في ارجائها السيد المالك عند الصباح الباكر ، حيث تخفي القنابر اعشاشهـــا والأرانب اوكارها ؛ والبساتين الخضر والمروج النضر ومنعطفات الاودية تفوح بالرند والسعتر ، وزرائب الماشية ، وموارد الماء ، كل اولئك يطالعك في شعر لافونتين بالوانه والحانه وطيب انفاسه . يقول سانت بوف : «لافونتين هو شاعر فرنسا الممعنة في القدم والحارس الأمين على لغتها الرشيقة العريقة [٤] . »

مغازي [٥] لافونتين — اخذ الأديبان الفرنسيان الكبيران : جان جاك روسو ولامارتين على شاعر الامثال الخرافية ان امثاله هذه لا تدعو الى كرم الاخلاق ، او

---

(١) L. T. 299 (٢) L. F. U. 318 (٣) L. T. 299 ; L. F. U. 318
(٤) L. T. 300 (٥) جمع مغزى

انها تدعو الى مبادئ جائرة او قاصرة . وهما يريان ان مغازيه كثيراً ما تعلم الانانية والخداع من حيث يجب ان تزرع في نفوس الابناء المروءة والاستقامة . يقـــول روسو ان قصة الثعلب الذي مكر بالغراب فأطرى صوته واخذ قطعة جبنه لحرية ان تعلّم أحط انواع المداهنة ؛ وان قصة الصرصور والنملة حرية ان تعلم القساوة ؛ وقصة الثعلب الذي رفض ان يحيا حياة الكلب الأهلي السعيد لئلا يُربط مثله تتضمن درساً في التمرّد وفساد الخلق. ويقول لا مارتين ان هؤلاء الحيوانات التي يسخر بعضهـا من بعض ، والتي تطغى عليهـا الأثرة والبخل والصفاقة ، والتي تتنكر للصداقة والرحمة والخير ، لمن الخطر بمكان (١) . هذا النقد شبيه جداً بما اخذه الكاتب المعاصر ج . ب . شو على شيكسبير . وعندي ان هذا الرأي لا يخلو من وجاهة . فالتمثيلية التي انشأها لا فونتين من مئة فصل ، على حدّ تعبيره عن حكاياته ، ليس فيها فصل واحد في النجدة والتضحية والشهامة ، تلك المثـل العليا التي يندر وجودها في هذه الدنيا ولكنها موجودة على كل حال . على انه اذا تخطّينا هذه الناحية فاننا لا نحب ان نعزو الى الشاعرين الكبيرين أية دعوة الى مبدأ لا ترضى عنه الاخلاق . فالرجلان في الاساس مصوران ، يعرضان لنا الحياة كما هي ، وليسا بواعظين ولا داعيتين الى مبدأ ما. ان تمثيل الحياة تمثيلا أميناً مطلب بعيد المدى محقق الفائدة بلا جدال، لست ادري لماذا يرى روسو في قصة الثعلب والغراب دعوة الى النفاق ولا يرى فيها حافزاً على اليقظة والاحتراز من ملق المحتالين . وقصة الصرصور الذي غنّى صيفتــه ولم يدّخر شيئاً لشتائه ثم جاء يطلب احسان النملة فردّته خائباً ، أليست هذه القصة مشهداً من مشاهد الحياة اليومية تقع عليه العين في كل مكان ؟ نعم ، كانت النملة جــــدّ قاسية على الصرصور المسكين ؛ ولكن لا فونتين لم يكن من القساوة في شيء ، بل كان مثال الخير والرحمة عندما اهاب بنا ان نفهم الحياة فهما جيداً ، وان نتدارك امرنا ، وألا نعتمد الا على انفسنا . كأني به بين جماعة من النشء يمحّضهم النصح، ويقول لهم : يا ابنائي الاعزّاء، لقد تعلمتم في البيت والمدرسة كثيراً من مكارم الاخلاق وزُينت لكم المثـــل العليا حتى أُشربتها نفوسكم وتطاولت اليها اعناقكم ؛ فبقي عليكم ان تفهموا الحياة فهما جيداً وان تعلموا ان فيها المرائين والخادعين والقساة والأنانيين ، فخذوا حذركم وكونوا على بينة من امركم لئلا تصبحوا خُدْعة الأشرار وهزْأتهم . . . اما امثولة الكلب والثعلب ، فما ارى فيهـا

---

(١) L. F. U. 317

تمرداً ولا فساد خلق ؛ ومن عجب ان يصف الحرية بهتين الصفتين رجل مثل روسو ، رائد الحرية وفيلسوفها قبل الثورة الفرنسية الكبرى . نعم ان لا فونتين لم يردد دروس البيت والمدرسة ، ولو أفرد لذلك بعض فصول تمثيليته الكبرى لكان عمله اروع واوفى؛ ولكن الرجل فيما يظهر لنا من سيرته لم يكن ينقصه طيب القلب وحب الخير ، فلم يجد دافعاً الى التغني بها ، وراح يتغنى بالفضائل التي لمس نفعها وأحس بحاجته اليها .

على ان الامثال الخرافية لا تقتصر دائماً على التحذير ، وكثيراً ما تقدم لنا نصائح ايجابية ، ولكنها عملية قريبة المتناول ، تنبعث من التجارب كما نراها في الحياة [1] :

الانسان في الغالب بحاجة الى من هو اصغر منه .

في كل أمرٍ إنما يُنظر الى النهاية .

ضمانان خيرٌ من ضمانٍ واحد .

لا ينبغي لنا ان نعاشرَ الا أكفاءنا .

يفعل الرفق ما يعجز عنه القسر .

أعنْ نفسك تُعِنْك السماء .

واحياناً تدلنا على بعض الواجبات :

اياك ان تسخر من البؤساء .

تعاونوا ، فذلك قانون الطبيعة .

يقول شامفور : « ليس لا فونتين بشاعر البطولة ، بل شاعر الحياة المألوفة والحكمة الدارجة . العمل ، اليقظة ، النظر الى عواقب الامور من غير قلق ، العيش مع النظراء ، عدم احتقار المعونة تأتي من أصغر منا ، الاعتدال : هذا ما يحبه لا فونتين وما يحببه الى الناس [1] . »

اسلوبه : — اراد لافونتين ان يحقق في الادب ذلك المطلب البعيد المدى ، المختلف الانواع ، الذي يتناول الاناسي والعجماوات ، الطبائع والعادات ، الحقول والغابات ؛ فأبت عليه طبيعة الفنان وسعة آفاقه ، كما أبتا على موليير ، ان يحبس نفسه في حدود اللغة القاموسية الضيقة على نحو ما ارتضتها الصالات الأدبية لذلك العهد . انه بين ادباء فرنسا نظير الجاحظ بين ادبائنا من هذه الناحية ؛ فلغته لا تجارى طواعية وتنوعاً

---

(١) L.T. 301

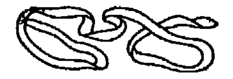
وانسجاماً ؛ لغة تأخذ من كل لون وطبقة ، وتجمع بين القديم والحديث ؛ يؤلف بينها فن محكم رهيف يتواري وراء ظاهر من العفوية الحلوة . لقد جمع شتات هذه اللغة من اوساط الشعب ، من لهجات البلدان ذوات الطوابع المحلية ، من اوضاع العمال ارباب الحرف ، من قصصيّي القرن السادس عشر ، من « مارو » و « رابوليه » ، واخيراً من صوب قريحته عند الاقتضاء . انه ليمزج ذلك كله مزجاً عبقريا عجيباً ويصبه في معين اسلوبه الصافي ، فلا ينبو عن اذنك تعبير مها خشن او انحط مصدره ، لأنه يجيء في مكانه المناسب ، فيكون طبيعياً ، بل ضروريا (١) .

وليس هذا ، على بالغ اهميته ، كل شيء في اسلوب لا فونتين ؛ فقد وقف النقاد معجبين حائرين امام ظاهرة اسلوبية اخرى يكاد يكون فيها شاعر الامثال الخرافية نسيج وحده : تلك هي القدرة الفذة على اختراع الاوزان وتنويعها والملاءمة بينها وبين مختلف الافكار . فاذا قرأنا احدى قصائده لفت نظرنا دقة حسّه الموسيقي الذي استطاع به ان يختار الفاظه ويؤلف بين انغامه ؛ ثم لفت نظرنا ان الشاعر لا يتقيد فيها بوزن واحد ، بل يكثر من الاوزان ، ويختار لكل فكرة اصلحها – وما اكثر ما تتنوع الافكار عند شاعر الامثال – فللفكرة القريبة الوزنُ الخفيف السريع ، وللفكرة الخطيرة الوزنُ الطويل المكيث. هذا النوع المعبّر من الوزن ، الذي يماشي العاطفة او الفكرة ، وينسجم مع النفس في شتى احوالها هو ما يدعونه اليوم بالوزن الحرّ Le vers libre ؛ وهو جدير ان يستوقف القارىء العربي على الخصوص لما يجد من مشابهة بينه وبين السجع في ارقى صوره . هذا الوزن الحرّ الذي يرجع الفضل في اكتشافه في الفرنسية الى لافونتين هو احد البواعث الكبرى لما نجد في شعره من حياة وحركة وعفوية ؛ وهو امرٌ نمنى بافدح خسارة اذا اغفلناه حين الترجمة ، ولا يشفع بعدئذ فيها جودة السبك والقدرة على النظم، لاننا نعدل بذلك عن اسلوب الشاعر الفرنسي الرغيب ، الى هذا الاسلوب المعروف الرتيب. يقول « تيودور دي بانفيل (٢) » : ان هذا المزج الوثيق بين الاوزان ، حيث يتغير لباس الفكرة حسب الفكرة نفسها ، وحيث تُشيع الانسجام والتناغم قوةُ الحركة الخفية ، تلك هي الكلمة الأخيرة للفن العالِمْ الدقيق ، الذي يسبب لك الدوار مجرّدُ النظر الى ما يعترضه من صعاب . بيد أن لا فونتين كما ابدع آلته قد اخذها معه : كل اولئك الذين

---

(١) L.T. 302 ، L.F.U. 318 (٢) Théodore de Banville من L.F.U 318

ادّعوا أنهم تَلَوا تلوّه وساروا على آثاره فخيل اليهم انهم استخدموا الوزن الحرّ قد وَهموا ولم يوفقوا الى غير خليط صبيانيّ مهوّش . وليس ذلك لانهم يجهلون روح هـذا الفن وسبيله ، وما فيه من حركة وانسجام وخفة فقط ، ولكن لانهم يجهلون كذلك آلية هـذا الوزن نفسها . » ويقول : « ان الوزن الحرّ هـو اروع ما ابدعتـه قريحة لا فونتين : فبفضل هذه الاوزان التي تتغير الى مالا نهاية له ، استطاع ان يحبي المناظر وان ينوّع الألوان . انها هي التي تفتن خيال الكبـار والصغار ، وهي التي تثبت المنظومات الخرافية في ذاكرتهم . وبفضلهـا اصبـح ذات يوم ذلك القصصي العابث من اكبر الشعراء في فرنسا (١) . »



(١) Théodore de Banville من L.F.U. 318

نماذج مختارة من « الأمثال الخرافية »

الذئب يصير راعياً [1]

كان الذئب قد أخذ ينال حظّه القليلْ
من غنم جيرانهْ
فبدا له ان يستعين بجلد الثعلب الأصيل [2]
ليموّه على عارفيه وخلانهْ .
فتنكّرَ بزي الرعاة ، فالعباءةَ ارتدى
واتخذ لنفسه عصا
ولم يُغفل المزمارْ .
وبالغ في اسلوبه المكّارْ ،
فكتب من طوعه على قبعته :
« اني انا « غيّو » ، مَن القطيعُ في إمرته »
فلما استقام الأمر حسب مبتغاه
ووضع رجليه الاماميتين على عصاه ،
تقدم « غيّو » المزوّر بخطا وئيدة .
على حينَ كان غيّو ، غيّو الحقيقي على العشب
يغط حينئذ في نومة فريدة ،
وكان كلبه ينام ، وكذلكَ ربابته [3] ، فليس هو فحسب .
كذلك كان اكثر النعاج [4] في نومة سعيدة .
تركهم المنافق في نومهم يسترسلون ؛

---

(١) Livre III P : 44—45 (٢) لبس جلد الثعلب : احتال (٣) الربابة : آلة موسيقية (٤) النعاج : جمع نعجة ، وهي الانثى من الضأن

واذ فكّر في استدراج الغنم الى وِجاره (١)
اراد ان يضم صوته الى لباسه وشماره ،
أمرٌ ظنّ ان لا غنى عنه ،
غير ان الأذى كلّه كان منه :
لم يحسن تقليد صوت الراعي .
فدوّت بنغمته الغابات والمراعي
وهتك الستر وكُشف الامر .
الكلّ أفاق على هذه الانغام ،
الغنم، والكلب، والراعي المقدام.
تلبّس الذئب المسكين بجريمته،
ولم يستطع في عباءته الاقدام ،
ولم يجدْ دفاعاً ولاهروباًمن كربته.

• • •

كل مختالٍ على الدوام مترَدٍّ في عثرته .
ومن يكنْ ذئباً فليجارِ في فعله الذئاب :
فذلك خير له وأضمن لحسن المآب .

الثعلب والتيس (٢)

كان المقدّمُ (٣) « ثعلب » ذات يومٍ يسير
في صحبة صديقه « تيس » الطويل القرنين :
لم يكن هذا أبعدَ من أنفه بعدَ العينين (٤):
والآخر كان في الخداع معلّماً منقطع النظيرْ.
لقد اضطرّهما العطش الى ان ينزلا بئرا :
هنالك كلٌّ منهما ارتوى .

(١) الوجار مأوى الذئب والضبع وغيرهما (٢) Livre III P: 46
(٣) رتبة عسكرية تخيلها الشاعر للفكاهة (٤) يصفه بالنباوة

وبعد ان أطفأا من الظمأ بالماء جمرا ،
قال الثعلب للتيس : «كيف العمل ، وماذا ترى؟
ليس كل همّنا ان نشرب ، فلنبغِ الخلاص .
ارفع يديك وقرنيك الى العلاء ، وحاذر الانتكاص ؛
اسندها الى الجدار : على ظهرك الذاهب في العلاء
إنــي صــاعد اولا ،
ثم اكون على قرنيك واثباً ؛
بمساعدة هذه الآلة الغرّاء ،
أخرجُ من هذا المــكان ،
وأنتشلك بعدئذٍ منه في امان .»
قال الآخر : «رأي جميل ، بحقّ لحيتي ؛ وانا أثني
على الاذكياء امثالك .
ولو لا ما علمتُ من مقالك ،
لما وجدتُ هذا السرّ ؛ هذا اعتراف مني .
خرج الثعلب من البئر وتــرك رفيقه
ملقيــاً اليه بهــذه الموعظــة الرشيقة
يحمله بهــا على جميل الصبر .
قال : «لو كانت السماء اولتك الحصـافة
بقدر ما اولتك من لحية في الذقن وحسن القيافة ،
لمــا تسرّعتَ من غير تفكير
فنزلت هذا البئر . الوداع ، فأنا منه خرجتْ
إجهدْ ان تخرج ، ابذل من الجهد ما استطعتْ ؛
فاني الآن مشغول بأمر خطير
لا يسمح لي بالوقوف على الطريــقْ
تبصّر في اعمالك بالعواقب تنج من كل ضيقْ .

الفلاح واولاده

إعملوا ، وتحمّلوا العناء :
هذا رأس مالٍ دائم معهود .

• • •

إحسَّ بدنوّ الأجل فلاح من الاغنيــاء
فاستحضر اولاده وأسرَّ اليهم من غير شهود
قوله : « حذارِ ان تبيعوا الحقــــل
الذي تركه لنــا آباؤنا :
فهناك كنزٌ تضمّه أرجاؤنا .
لا اعرف المكان ؛ ولكن الشجاعة والعقل
سيُظفرانكم به ؛ وتعودون خير معاد .
فهزّوا حقلكم غبَّ وقت الحصــاد :
إحفروا الأرض حفراً ، لا تتركوا من مكان
إلا تمهدته ايديكم بين آنٍ وآنٍ . »
ما كاد الوالد يقضي اجله حتى هبَّ بنوه الكرام
يقلبون الارض قلباً ؛ حتى انها آخرَ العــام
عادت عليهم بالخير العميم .
لا مالَ مختبئاً ، لكن الابُ كان الرجل الحكيم
اذ بيَّن لهم وهو لهذه الدنيا يجوز (١)
ان العمل المثمر هو احد الكنوز (٢)

الحظ والولد الصغير

على حافة بئرٍ سحيقة
كان ولدٌ يغطّ في نومة عميقة

(١) يجتاز ، وذلك كناية عن الموت
(٢) Livre: V P: 75-76

وهـو اذ ذاك تلميـذ غرير ،
والتلاميذ يرون أن كل شيء فراش وسرير .
فلو كان في مثل حاله احد الأشراف
لوثب عشرين باعاً بلا خلاف .
لحسن الطالع ، بالقرب من ذلك المكان
مر « الحظ » وأيقظه في أمان ،
وأنشأ يقول : « ياصغيري ، انا منقذ لك الحياة
فكن بعد الآن عاقلاً ، تلك مني اليك رجاة ،
فلو ترديت في هذه البئر لوجه اللوم الي
وهي مع ذلك غلطتك ،
فأنا اسألك فلا تخف علي :
أفهذه الفظيعة ، طيشتك ،
هوى من اهوائي ؟ » قال هذا وتولى .
اما انا فرأيه ارى .
ما يحدث امر في العالم
إلا توجه الى الحظ لائم ،
فهو الضامن المسئول في كل الامور .
وما يكن من حمق ولا طيش ولا تهاون أو غرور
الا ظننا اننا نتنصل منها باتهام حظنا :
فالحظ دوماً علة خطئنا ! !

الحيوانات المرضى بالطاعون (١)

الضراء التي نشرت الذعر ،
تلك التي ابتدعتها السماء في نقمة وسعر (٢) ،
لتعاقب الأرض على شرورها وجرائمها ،

(١) Livre VII, P:13 — 15 (٢) حالة الجنون

الطاعونُ ، وذاك انه ينبغي ان ندعوه باسمه الملعونْ ،
فهو جدير ان يُغني في يوم واحد آشيرون (١) ،
ضرّاء صبّت على الحيـوانات سخائمهـا (٢) .
لم تنفُق (٣) عن بَكرة ابيها ، بيد أنها أصيبت جميعا
فما إن ترى بينها مشغولا
في التماس دعامة لحيـاة فانيـة ؛
مامن طعام يثيرلهم شاهيةً (٤) .
لا الذئاب ولا الثعالب يرصدون
فريستهم اللطيفة البريئة ،
والقماريُّ (٥) كانوا يهربون :
لم يبق حُبٌّ ، فلا افراح هنيئة .
عقد الاسد مجلساً وقال : يا اصدقائي الاعزّاء ،
اظن ان قد أذنت السماء
من اجل خطايانا بهذه الداهية .
فعلى الاكثر من بيننا إجراما
ان يضحي بنفسه ليُعمل فيه غضبُ السماء انتقاما
فلعله بذلك يعيد إلينـا الشفاء ثانية .
والتاريخ ينبئنا أنهم في مثل هذه الأعراض الوبيلة
كانوا يقدّمون مثل هذه التضحيات الجليلة .
لا نُداهِنَنّ انفسنا قطّ ، ولننظر من غير تسامح او غفران
الى الحالة التي عليها الوجدان .
أما انا فقـد استرسلت في إرضاء شهوات النّهَمْ
فافترست كثيراً من الغَنَمْ .
عمـاذا اساءت اليَّ ؟ لا إساءة
بل انه حدث لي احياناً أن اكلتُ ، ولم اراعِ ،

(١) نهر في الجحيم ، ويراد به الجحيم نفسها (٢) احقادهـا (٣) نفقت الدابة : مـاتت
(٤) شهوة الى الطعام (٥) جمع قُمرية : ضرب من الحمام .

صاحبها الراعي

سابذل اذن نفسي ، اذا وجب ؛ لكن ارى ببراءة
انه يحسن بكل واحد ان يتهم نفسه مثلي
لأن علينا ان نأمل ، وفق كل عدالة
أن اكثرنا اساءة يلقى الموت واهواله

قال الثعلب : « سيدي ، وساوسك على طيبك تدلّ ومن قدرك تعلي .
ليت شعري أيعدّ اكلُ الخرفان والاسافل والأنواع البليدة
خطيئةً ؟ كلا ثم كلا . فأنت يا ذا الجلالة الرشيدة
تشرّفها بالتهامكها وتردّها سعيدة ؛
أما الراعي فحقّ ما قيل
إنه جدير بكل اذى وتنكيل
لأنه من هؤلاء الناس الذين لا يفتئون
يجعلون لانفسهم علينا سلطاناً وهم يتخيّلون . »
كذلك قال الثعلب ؛ فأخذ المراءون بالتصفيق .
ولم يجرؤ احد على التفكير العميق
فيما اقترفه النمر او الدب او القوى الأخرى
من آثام لا تغتفر واذى .
كل واحد من اهل الشراسة ، حتى الكلب الحقير ،
كان حسب ادعائه كالقديس الصغير .

• • •

تقدّم الحمار بدوره وقال : لديّ ذكرى غامضة
أنني مررت يوماً بمرج الرهبانْ ،
فالجوع والعشب الغضّ والفرصة العارضة
ولا يخلو الامر من اغراء الشيطانْ ،
دفعتني فأخذت من عفو هذا المرج بقدر طول لساني .
لم يكن لي فيه اي حقّ ، اذ يجب التكلم من غير غش . »
على اثر هذه الكلمات نادَوا : الويلُ للجحش .

بُرهنَ الذئبُ ، وما اقلّ علمه ، بلغو البيانِ
على وجوب التضحية بهــذا الحيوان الملعون
هذا الأمعطِ ، هذا الأجرب ، مصدر البلاء ، الخئون.
ثم قضوا عليه ان يصلب لهــذه الهفــوة
أيأكل عشب الآخرين ! جريمة توجب كرهه !
لا شيء يستطيع ان يكفّر عن كبيرته
غير موتٍ عاقبــوه به من ساعتــه .

. . .

كيفما تكن بين بسطة القوة او مظاهر الضعف
يكن حكم القضاة عليك بالعدالة او بالعسف .

العربة والذبابة (٢)

في طريق صاعد واعرٍ كثير الرمال
معرّض للفح الشمس تنال منه كل منال .
كان ستة جيــاد اقوياء تجرّ عربة .
وكان النساء والرهبان والشيوخ مترجلين (٣) جميعا ؛
والدوابّ تنضح بالعــرق زافرةً خائرة القــوى .
وفيهام كذلك عرضت لهم ذبابة ، وكانت من الخيل على مقربة ،
وزعمت انها تنشّطهم (٤) بما لها من طنين ،
فهي تخِزُ (٥) هذا وتخز ذاك ، ظانة في كل حين
انهـا تسيرّ الآلة الثقيــلة ،
وهي تجلس على الجَرّ ، وعلى انف الحوذي .
ما كادت العجلة تخطو خطوات قليلة
وما كادت ترى الجمــاعة تمشي ،

---

(١) مَعط الحيوان : قلّ شعره فهو أمعط (٢) Livre VII, P : 17—18 (٣) من ترجل : مشى راجلا (٤) كثيراً ما نستعمل ضمائر الذكور العقلاء للتشخيص
(٥) من وَخزَ : قرص قرصاً خفيفاً

حتى نسبت الى نفسها المجد من دونهم ،
فذهبت وجاءت معنيّة مستعجلة : حتى كأنها
عريفُ معركةٍ يجول في كل مكان منها
ليدفع بجنوده الى الامام ويستعجل النصر بهم .
ان الذبابة لتشكو في هذه المصلحة العامة
من انها تعمل وحدها والآخرون في راحة تامة ؛
فما من احد يساعد الخيل لتخرج من هذه الورطة .
الراهب يتلو صلاته وفرضه :
ما أحسن ما يستخدم وقته ! وهناك امرأة تغنّي:
الحق انها قضية اناشيد فهي تُجدي وتُغني !
ذهبت سيدتنا الذبابة تأزّ في الآذان ،
وتلقي بسخافاتها في الميدان .
بعد جهد جاهد وصلت العربة المكان العال .
الآن فلنتنفس الصعداء ! قالت الذبابة في الحال :
« لشدّ ما عملتُ حتى استوت جماعتنا أعلى الجبل .
الا ايها السادة الجياد أعطوني أجر هذا العمل» .

• • •

كذلك بعض الناس يبذلون الحماسة والجهد ،
فهم يتدخلون دائماً في كل الامور
ويمثلون دور الضروري ذي الغرور ،
على انهم ، وهم الثقلاء اينما كانوا ، لا يستحقون غير الطرد .

الحلابة وقعب الحليب (١)

« قرطاس » ، على الراس ، كانت تحمل قعب حليب
موضوعاً على حَشيّة (٢) وضع حاذق أريب ،

---

(١) Livre VII, P : 19—20 (٢) وسادة

وكانت تأمل ان تنتهي الى المدينة بخير وسلام .
فهي تسير بخطا واسعة خفيفةً قصيرة الثوب ؛
اذ لبست ذلك اليومَ لتنشط على ما يرام
خفّين مستويين وسروالاً من غير عيب .
فلما أحكمت حلابتنا هكذا ثيابها
اخذت بفكرها تتبيّن حسابها
فتحصي ثمن الحليب ، وتستخدم ما يغله من نقود ؛
وتشتري مئة بيضة ، وتتخذ ثلاث حواضن لها :
كانت الامور تسير سيراً حسناً بجدها المعهود .
وكانت تقول : سهل عليّ
ان أربي بعض الفراريج حول بيتي الصغير
فان لم يترك الثعلب بين يديّ
من الدجاج ما يكفي لاقتناء خنزير ، فانه لحاذق بصير .
فالخنزير سيكلّف قليلاً من النخالة ليقنو الشحم الغزير ؛
لقد كان لما امتلكتهُ (١) من الضخامة بمكان ،
وسأحصل ببيعه على مال جيد كثير .
ومن يمنعني ان اضع في زريبتي من ذوات الألبان
بقيمته بقرةً حلوباً ذات عجل وديع ،
وأن اراه لاعباً واثباً بين القطيع ؟
قرطاس على الأثر وثبت كذلك وقد استخفها الطرَبْ :
فوقع الحليب ؛ الوداع ايتها الدجاجة والخنزير والبقرة ذات الحلَب (٢) .
تركت سيدةُ هذه الارزاق (٣) بعين ساخطة مكدّرة
هكذا مالها المبدَّد ،
طالبةً من زوجها المعذرة ،
على خطر أن تجلَّد .

---

(١) صيغة الفعل الماضي هنا بعد صيغة المستقبل يدلّ على عاطفة « قرطاس » ، وكأنها ظنت ان حلمها قد تحقق (٢) الحلب : كالحليب (٣) الارزاق الخيالية ، والسخرية هنا ظاهرة .

لقد صاغوا من هذا الخبر أطروفة ،
باسم قعب الحليب كانت موصوفـــة ،
ايّ ذهن لا تطرقه الاحلام ؟
ولا يبتني قصوراً من اوهـــام ؟
بيكروشول (١) ، بيرّوس (٢) ، الحلابة والناس اجمعون ،
الحمق منهم والراشدون ،
كلٌ يحلم في يقظته ؛ لا شيء أحلى من ذلك عنـــدنا :
ضلالٌ مستعذَب هـــو عندئذ لنفوسنا سالبٌ .
كل مافي العـالم يصبـــح ملكـنا ،
كل الامجاد ، كل الحسانُ الكواعبُ .
عندما اكون وحيداً ، اتحدّى اشجع الشجعان
أشرد مع الخيـال ، اخلع الشاه دا السلطان .
أنتخَبُ ملكاً ، شعبي يحبّني ،
تيجان المـاس تمطر رأسي وابـــلا :
فادا ما حدث ان طارئاً اعادني الي نفسي وايقظني ،
فأناحنثا ، الفلاح الجافي ، كما كنت اوّلا .

الصرصور والنملة

قضى الصرصور في الغنـــاء
صيفـــــته جُمْعَـاء ،
فوجد نفسه جـدّ محروم
لما أوشكت الشمال على القدوم (٣) :
ما من قطعة واحـــدة صغيرة
من ذبابة او دودة حقيرة .

(١) بطل واسع الاطلاع تخيله الكاتب رابليه Rabelais (٢) ملك ايبريا ، كان يحلم باحتلال العالم (٣) الشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب ايذاناً بقدوم الشتاء .

فيمَّم جارتَه النمـلة ،
شاكياً الجوع والقلّة ،
راجياً ان تقرضه بعض الحب
ليقيم أوَدَه ويَفثأ السَّغب (١)
حتى الفصل الجديد (٢) .
قال لها سيكون التسديد
قبل آب (٣) ، يميناً من حيوان ؛
رأسُ مال بفائدة تُزان .
غير أن النمـلة ليست بدائنة :
ذلك أيسر ما فيها من وِزْر (٤) .
فقالت للمستدين بسخر :
ما صنعتَ ايام الصيف الفائتة ؟
ـــ كنتُ أغنّي ليـل نهار ،
وقيتِ الأذى ، لكل قادم .
ـــ كنتَ تغني ؟ يسرّني مرحك الدائم :
فارقص الآن لكل مارّ (٥) .

الغراب والثعلب (٦)

جثم المعلم « غراب » ذات يوم على غصن ،
وكان في منقاره قطعة من جبن .
واذا جذبت الرائحة المعلمَ « ثعلباً » اليه
وقف يحاذبه ما يشبه الحديث التالي بـين يديه :
« هيـه ! صباح الخير ايها السيد الغـراب
ما الطفك ! ان بهاءك لشيء عجاب !

(١) َفثأ : سكن . السغب : الجوع (٢) يريد الربيع (٣) آب : شهر الحصاد
(٤) الوِزْر : الاثم (٥) Livre I ، P : 19 (٦) Livre I, P: 20

من غير كذب ، لو كان ريشُك
يشاكله في الحسن صوتُك
لكنت في هذه الغابات سيد الطيور . »
سمع الغراب هذه الكلمات فجُنّ من السرور ؛
واراد ان يظهر جمال نغمته
فأفرج منقاره العريض عن صيدته .



تلقفها الثعلب وقال : يا سيدي الكريم :
إعلم ان كل منافق ذميم
يعيش على نفقة من يستمع اليه .
فمن يعطك هذا الدرس لا تستكثر قطعة الجبن عليه .
فأقسم الغراب وهو خجِلٌ خزيان
ألاّ يكون بعد اليوم ضحيّة الملق ، ولكن بعد فوات الاوان .

الضفدعة التي تريد ان تكون في ضخامة الثور (١)

رأت ضفدعة ثورا
اعجبها جميل قامته .
انها لتمتد ، وهي التي في حجم البيضة صغرا ،
وانها لتنتفخ ، وتجهد ان تكون في ضخامته ،
حسداً منها لهذا الحيوان ،
وكانت تقول لأختها الرزان(٢) :
«أريتك ، أيكفي هذا ، ألم أبلغ حجم البقرة الكبيرة؟
ـ كلا . ـ أعيدي النظر اذاً تري اختك أين بلغت
ـ ما كنت لتبلغيه أبداً . » وما زالت الضفدعة الحقيرة
تجدّ في الانتفاخ حتى انشقت .

• • •

الدنيا ملأى أناساً ما هم أحذق من الضفدعة وأحكم :
فأوساط الناس كلهم يريدون ان يبنوا مثل العظماء
وصغار الأمراء يوفدون السفراء
وكل وجيه يريد ان يكون له الحجّاب والخدَم .

الذئب والكلب (٣)

لم يكن للذئب غير الجلد والعظم :
لشدّ ما كانت حراسة الكلاب .
هذا الذئب التقى درّواساً (٤) جميلا من ذوي العزم
شحيماً (٥) صقيلا ، كان قد ضلّ بين الرّحاب (٦).
أيسطو عليه ، أينشبُ فيه انياب غادر ؟

---

(١) Livre premier, P : 20 (٢) مؤنث رزين : وهو الوقور
(٣) Livre premier : 21—22 (٤) الدّرواس : الكبير الرأس من الكلاب
(٥) سميناً (٦) الاراضي الواسعة المنبات ، رَحبة او رَحْبة

كان السيد الذئب يريد ذلك عن طيب خاطر .
بيد أنه أعرض عن قتالٍ وآثر السلامة
فالدرواس كان من الضخامة
بحيث يذود عن نفسه بشجاعة .
فاقترب منه الذئب اذاً في ضراعة ،
وجاذبه الحديثَ ، واثنى على ما فيه من براعة ،
وعلى صحته ، وهي منه موضع الاعجاب .
اجاب الكلب : « ايها السيد العالي الجناب ،
عليك انت انما يتوقف ان تكون في السِّمنِ لي مثلاً .
فارقِ الغابات تحسنْ فعلا .
إن اشباهك فيها لبؤساء ،
صعاليك محدودون (١) وأبالسة أشقياء ،
كُتبَ عليهم ان يموتوا طوى (٢) .
اذ أين منك الحياة الوداعة واللقمة السائغة ؟
فطعامك على مثل حدّ السيف إن كنت بالغه .
الا فاتبعني تُصبْ حظاً احسن وأوفى . »
فاستأنف الذئب يقول : « ما ينبغي لي ان اعمل ؟ »
فردّ الكلب ان لا شيء تقريباً ، إن هو إلا ان تطارد
المتسوّلين كأنك لكل حامل عكاز راصد ؛
ثم تداهن سكان المنزل ، وترضي مولاك :
بذلك تنال أجر مسعاك ،
فتحظى بانواع كثيرة من فضلات الطعام ،
من عظم دجاج وعظم حمام ؛
دع عنك صنوف الملاطفة . »
عند ذاك اخذ الذئب يحلم بالسعادة والهناء
وجرت دموع الحنان منه بسخاء .

(١) المحدود : الممنوع من الخير (٢) جوعاً

وفيما هما على الطريق لمح عنقَ الكلب أمعط .
قال : ما هذا ـ أجاب : هذا شيء يسير .
قال : زدني ـ قال لعلّ الطوق الذي به أربط
هو سبب ما ترى من عنق قشير .
قال الذئب : أتربط ! ؟ فانت اذاً لا تستطيع ان تركض
حيثما تريد ؟ قال الكلب : لا استطيع دوماً ، ولكن ما يهمّ ؟
قال الذئب : كلّ المهمّ ، بحيث ان الطعام الذى تعرض
تعافه نفسي ولا ترى فيه غير الشؤم ،
لا ، بل لا أعدل كذلك بحريتي كنزاً ثمينا .
قال هذا المعلّم « ذئب » واخذ يعدو عدواً مبينا .

الذئب والحمل (١)

حجّة الاقوى هي الفضلى على الدوام ؛
وسنقيم الآن الدليل على هذا الكلام :

• • •

كان حمل يريد الارتواء
من ماء جارٍ سلسل ؛
ففاجأه ذئب طاوي الحشا يترقب صيداً ويتجول ،
إذ جذبه الجوع الى تلك الانحاء .
قال هذا الحيوان بلهجة المغضب :
« ما الذي شجّعك كل هذه الشجاعة على تعكير مشربي ؟
ستلقى ما تجره عليك وقاحتُك .
اجاب الحمل : يا سيد ، اذا سمحتْ جلالتك
لم تستسلم الى الغضب ؛
واحرى بك ان تنظر يا عالي الرتب

---

(١) Livre premier P: 26-27

الى انني اروي نفسي الظـامية
من المياه الجـارية
تحتك على قيد عشرين خطوة ،
وأنني لذلك ما كنت لأحدِ الاسباب
لاستطيع ان اعكر لك الشراب



— بل تعكره ، أجابت هذه البهيمـة المعروفـة بالقسوة ؛
وانا اعلم أنك منذ عـام بسطت فيّ لسانَ الحقود .
— ولكن كيف استطيع ذلك ولم اكن في الوجود ؟
كذلك رد الحمل ، وزاد : إنني لا ازال أرضع .
— إن لم يكن ذلك إياكَ فأخوك الأفـظع .
— ليس لي اخٌ — هو اذاً من ذوي قرباك ؛
لانك لا تعفي احداً من أذاك ،
كذلك ذووك ورعـاتك وكلابهم وما يتبع .
لقد بلغني أنباء ذلك : فحق لي ان انتقم .»
وعلى اثر ذلك حمله الذئب

الى بطن الغابة، ثم أكله إكلة النهم،
مكتفياً بهذه الدعوى فحسب .

الموت والحطاب (١)

حطاب فقير تستره الاغصان من كل جانب ،
كان يسير بخطا وئيدة في انحناء وأنين ،
تحت عبء الحمل وتحت عبء السنين ،
ويجهد أن يدرك كوخه الأدخن الكارب (٢).
فلما خارت قواه من الألم والعناء
وضع عنه حمله واخذ يفكر في هذا الشقاء :
اي صفو عرف منذ كان في هذا العالم ؟
أعلى الآلة المستديرة (٣) من هو أشقى وآلم ؟
لا خبز أحياناً ، وأبداً تعوزه الراحة الرغيبة (٤) :
فامرأته واولاده والجنود والضريبة
والدائن والسخرة (٥)
رسمت منه هيئة الشقي وفقره .
عندئذ نادى الموتَ فأقبل من غير إبطاء ،
وسأله : ما تبتغي من هذا النداء ؟
قال : انما دعوتك لتمدّ اليّ يدا
تردّ على ظهري هذا الحطب ، وما اراك متأخراً أبداً .

• • •

يأتي الموت لكل شيء بالشفاء ؛
غير انه لا ينبغي لنا ان نبدّل حالاً بحال :

---

(١) 29— 28· Livre premier (٢) من كربه الغمّ اذا احزنه واشتد عليه ، فهو كارب ، ولا يصح أكربه فهو مكرب (٣) يريد الكرة الأرضية (٤) الرغيبة : المرغوب فيها (٥) السخرة : هي العمل الذي تفرضه الحكومة على الناس من غير أجر .

« العذابُ ولا الفنـــاء »
ذلك هو شعار الرجال .

الثعلب واللقلقة (١)

هزَّت أرْيحيَّةُ الكرمِ الأبَّ ثعلباً ذات يوم
فاستبقى للفـداء الأمّ لقلاقـــةً لديه .
كانت المأدبة حقيرة لا يظهر في اعـــدادها كبيرُ همّ
فالظريف لم يهن عليـــه
ان يجود بغير حساء صاف ؛ كان يعيش في تقتير .
وقد قدَّم في صحيفة (٢) هذا الحساء ،
فلم تستطع ذات المنقار الطويل (٣) ان تطعَّم من هذا الاناء ؛
على حينَ استفَّه (٤) الخبيث بجهد يسير .
وارادت اللقلاقة ان تنتقم لهذه الخديعة ،
فلم تلبث ان وجهت اليه دعوة سريعة .
قبل الثعلب الدعوة باديَ السرور ، وقال :
« لا أحب ان اعامل اصحابي بكلفة واحتفال . »
وفي الموعد المضروب حطَّ عصا الترحال
في بيت اللقلاقـة الداعية ،
حيث أطرى اخلاقها العالية ،
وارتاح لجاهز الطعام .
شهوة الطعام ، لا يخلو منهـــا الثعالب على الدوام .
لقـــد كان يطرب لرائحـــة اللحم
جعل قطعاً صغارا ، وكان يخـاله جيـــد الطعم .
وارادت الداعيـــة ان تحيِّره وتخزيه
فوضعت طعامها في اناء ضيق الفـــم طويل العنق .

(١) Livre premier : 29 – 30 (٢) الصحن الذي يتسع لطعام رجل واحد
(٣) اللقلاقة (٤) شربه كله

ما ايسر ما كان منقار اللقلاقة يمر فيه
بيد ان خطم (١) السيد لم يصل الى هذا العمق ،
فوجب عليه ان يعود جائعاً الى مأواه
آسفاً كاسفاً كثعلب أمسكت دجاجة في أذاه ،
مدنياً عليه ذنبه وقد تدلت أذناه .

• • •

أيها الخداعون إنما أكتب لأجلكم
فانتظروا أن تبوءوا بما باء به أمثالكم .

الصديقان

كان صديقان صدوقان يعيشان في « مونوموتابا (٢) »
ولم يكن احدهما ليملك شيئاً لا يشاركه فيه الآخر
ان الاصدقاء الذين يسكنون تلك الرحابا
يقال إنهم اكرم من اصدقاء هذه الحواضر .
فذات ليلة حينما كان كل انسان مستسلماً الى الرقاد
مستفيداً جهده مما يغشى الكون من سواد ،
خرج احد هذين الصديقين من سريره في ذعر وهم
وأسرع نحو قصر حميمه وايقظ الخدم :
لقد مس إله النوم ، مورفيه ، عتبة هذا القصر .
دهش الصديق الراقد، فتسلح وحمل ما في خزانته من وفر ،
وتقدم الى الآخر قائلا : ما اقل ما كنت تعدو
والناس نيام ؛ فانت تنام الليل جيداً فيما كان يبدو :
فلعلك لم تخسر كل مالك في المقامرة ؟
والا فدونك العوض . أم تراك كنت في مشاجرة ؟

---

(١) الخطم : فم الدابة (٢) يقول الشارح : انما اختار الشاعر هذا الاسم الغريب ليبين غرابة الصداقة في الدنيا وندرتها ، فكأنه يقول : اذهب الى بلد الاوهام والخرافات لتجد صديقين وفيين .

فلديّ خنجري ، هلمّ . ام انت في ضيق نفس وملال
من انك تنام ابداً وحدك ؟ فان أمَةً من ذوات الجمال
ترقد الى جانبي : أفتريدها نحوك لتسعى ؟
— كلا ، قال الصديق . فلا هذه ولا الاخرى .
اشكرك على لطفك الاسمى .
بيد أنك ظهرت لي حزيناً فيما يظهر للنائم ،
وخشيتُ ان يكون ذلك حقاً ، فانا عجلان قادم .
يدفعني الى ذلك حلمي (١) البغيض .

• • •

ايها اصدق حباً ؟ ماذا يلوح لك ايها القارئ ؟
اما انها لقضية تستوقف النظر .
الصديق الصدوق ما احلى منه الوداد !
انه يبحث عن حاجاتك في اعماق الفؤاد ؛
يحفظ لك الكرامة والعفاف ،
فلا داعي الى ان تبسط حاجتك بين يديه .
حلمٌ ، وهمٌ ، من كل شيء يخاف ،
اذا كان لذلك علاقة برجل حبيب اليه .

الاُسد والفأر .

اليمامة والنملة .

علينا ان نحسن جهد المستطاع الى الناس أجمعين ؛
فالانسان دوماً في حاجة الى من هو أصغر منه
هذا هو الحق ، وهتان حكايتان عنه ،
فما اكثر ما نجد على ذلك البراهين :

• • •

(١) الحلم : بضمة وبضمتين : الرؤيا .

بين أقدام احد الأسود

خرج فأر من الارض على غير رويّة ٠
لقد كشف ملك الحيوانات عن خُلقه المعهود ،
بهذه المناسبة ، فمنحه الحياة بغير ما أذية .
هذا المعروف ما كان ليضيع ؛
إذ احتاج الأسد الى الفأر الوضيع ؛
أكان هذا الأمر يخطر على بال ؟
مع ذلك فقد حدث ان وقع هذا الاسد
في حبالة (١) حينما عن آجامه ابتعد ،
ولم يستطع زئيره ان يفكّ اسره بحال .
هنالك بادر السيدُ الفأر وما زال يُعمل الاسنان ،
حتى قرض حلقةً جرّت على الحبالة العطب .
الصبر وطول الزمان
يصنعان اكثر من القوة والغضب (٢) .

★ ★ ★

الامثولة الأخرى مأخوذة من حيوانات أصغر :
على حافة ساقية جلواء كانت يمامة تشرب ،
عندما تردّت فيها نملة كانت ذلك الماءَ تقرّب ؛
وكنت ترى النملة في جهدها الأكبر
تحاول من غير جدوى شاطئَ هذا الخضمّ .
لم تلبث اليمامة ان أسدت جميلها :
اذ خفّت الى النملة وألقت في سبيلها
عوداً من العشب أنقذها من تلك الظُلَم .
هكذا نجت ؛ وعلى أثر ذلك
مرّ فلاح جافٍ حافي القدمين هنالك .

---

(١) الحبالة : الفخ (٢) الكتاب الثاني ، القطعة الحادية عشرة . لاحظ ان لهذه القطعة مغزيين « المعرّب »

هذا الفلاح كان يحمل بالصدفة قوساً .
فما ان رأى طير فينوسا [1]
حتى ظنه في قدره وطاب به نفساً .
واذ كان فلاحنا يتهيأ لبقتل عمامته
تحزه النملة في القدم ،
فيدير الصعلوك هامته :
فتراه اليمامة وترحل على وجه أتم .
لقد طار معها عشاء هذا الفلاح
ولم يحظ الرجل بجزعة [2] من ذات الجناح [3] .



(١) كان الاقدمون ينذرون الحمام لفينوس الهة الجمال (٢) بقليل (٣) الكتاب الثاني ، القطعة الثانية عشرة

LA ROCHEFOUCAULD لاروشفوكو

هو فرنسوا ، امير « مارسيّاك » ، الذي عرف فيما بعد بالدوق لا روشفو كو .
ولد في ايلول ١٦١٣ ، من اسرة نبيلة قوية ؛ وتزوّج في سنه الرابعة عشرة ، وقد كتب بعدئذ في « حكمه » : « من المعلوم انه لا ينبغي للمرء ان يتحدّث عن امرأته . » وفي الحق انه لم يتحدّث قط عنها . ولكن هذا لا ينفي انه شُغل بعدد من شهيرات النساء : منهن السيدتان شيفروز ، ولونجفيل ، والآنسة هوتفور ، اللواتي خضن معه غمار حرب « الفروند » ضد الوزيرين ريشليو ومازاران ؛ تلك الحرب العوان التي اضرم نارها البرلمان الفرنسي ، يعضده الأمير كوندي والكاردينال دي رتز وطائفة من النبلاء ، ومن ورائهم جميعاً المملكة الاسبانية تشدّ ازرهم وتمدّهم بالسلاح . كان ذلك في طفولة لويس الرابع عشر ، وشئون الحكم في يد مجلس الوصاية . فلما وضعت الحرب اوزارها وملّ صاحبنا السياسة ، توثقت اواصر الصداقة بينه وبين عدد من اديبات فرنسا مثل : مدام دي سيفنيه ، ومدام دي لا فاييت ، ومدام دي سابليه ، وهنّ يومئذ من ذوات الصالات الادبية المعروفة (١) . لم يكن لا روشفوكو يرمي في الواقع من وراء تلك الحرب الا الى تحقيق مطامعه ، شأن جميع الذين اشعلوا نارها معه ؛ ولا شك ان تشاؤم الرجل ، كما يبدو في كتابه « الحكم » راجع الى سوء ظنه في نفسه وفي الناس ؛ ثم زادته تجاربه العنيفة وهو يدبر المكائد ويخوض المعارك ويبلو الناس من أمته يقيناً فيما يرى ؛ وقد اعترف « بأنه يكاد يكون من المستحيل ان يكتب الانسان تاريخاً موثوقاً للحركات الماضية « لحرب الفروند » ، لان الذين كانوا لها سبباً انما بعثهم عليها مطامع دنيئة ، فحرصوا على الا يعلم الناس حقيقة ما جرى فيها ، خوفاً من ان تأخذ عليهم الاجيال القادمة أنهم ضحوا لمصالحهم بسعادة وطنهم (٢) . » التشاؤم والحزن وسوء الظن بالناس والشعور بالخيبة تلك هي الملامح البارزة في حياة هذا الاديب وفي « حكمه » . وقد كتب وهو في الخامسة والأربعين : « في هيئتي حزن وكبرياء . لقد بلغت كآبتي أني لم تفترّ شفتاي عن اكثر

---

(١) L.F.U. 289 ثم L.U. مادة : Fronde (٢) L.T. 224



لا روشفوكو

من بضعة ابتسامات ، منذ ثلاث او اربع سنين . أمضي أكثر وقتي اما حالماً لا أنبس بكلمة ، او غير آبه لما اقول (١) . » كانت السنون الاربعون الاولى من حياته رواية حب وحرب وطموح . اما الحكمة فلم تغره الا بعد لأي (٢) ؛ فكأنه إنما كان يتشاغل بها عن همومه ويسلو بها آماله الضائعة . ثم يجيء دور الشيخوخة الهادئة التي استمتع فيها بصداقة تلك الطبقة الراقية من روّاد الصالات . اما الكاردينال دي رتز ، رفيق الثورة الذي اتصلت بينه وبينه ذات يوم اسباب الخصومة ، فقد ردّ الى مودته ، وكان ممن يرغبون في عشرته . وفي آذار ١٦٨٠ وافاه الأجل تائباً متديناً بين ذراعي رجل الفصاحة والدين : بوسيه (٣) .

لقد باء هذا الرجل بالفشل ، لأنه ، على جلالة قدره ، ملتوي الطبع مشتت الهوى : فالزهو والصلف يحولان دون تحقيق مطامعه ، والأهواء المنيفة تفسد عليه خططاً انانيته ، والذكاء الوقاد يهوّش ارادته . يقول رتز : « لم يكن لا روشفوكو جديراً بتحقيق أمر ما . . . لأنه كان دائماً فريسة التردد . » ومن المؤكد انه لم يكن على وفاق تام مع رجال حزبه ، اذ كان فيما يظهر غير واثق من قضيته ، لا بل انه لم يكن يدري على التحقيق فيم هو ينحاز الى فريق دون فريق ! ويقول رتز : « انه لم يكن قط محارباً صالحاً . » ذلك لأنه كان ينفذ بثاقب فكره الى بواطن الامور ويستجلي دقائقها وخفاياها ؛ فلم يخف عليه ما يعترض جماعته من صعاب ، كما لم يكن يخفى عليه دواعي الحق والباطل عند الفريقين المتحاربين .

فلسفته — على ان رهافة الاحساس ونفاذالتفكير إن حالا بين اديبنا و بين النجاح في الحياة العملية ، فقد اصبحا دعامتي عبقريته منذ اطرح السياسة ومغامراتها ، وانصرف الى رسم صورة للقلب الانساني بريشة المصور البارع والحكيم النافذ البصيرة (٤) . وقد حظيت حكمه عند الجمهور وتتابعت طبعاتها في حياته حتى بلغت خمساً ، تحتوي الأخيرة منها ٥٠٤ حكم (٥) . لقد شاقت هذه الحكم الجمهور وأفزعته . انها آراء رجل متشائم عجم الدهر وحلب أشطره فانزاحت عن عينه الحجب وكشفت له الأسرار . وجدوا انفسهم امام مفكر صارم ينشر مخازي الانسانية ولا تأخذه رحمة بما في المجتمع من كذب ونفاق ، ولا يغمض حتى عن هذا الدهان البريء الذي نتسامح فيه لانفسنا لنظهر

---

(١) L.F.U. 289 -290 (٢) ابطاء (٣) L.T. 224 – 225 (٤) الكلام بعد الاشارة الثالثة من : L.F.U. 290 (٥) L.T. 226

امام الناس بالمظهر اللائق ولنستقر في حياتنا على حال !

يرى لا روشفوكو أن العقل عرضة أبداً لتأثير اهواء كثيرة تختلف حيناً وتأتلف آخر . فليس العقل هو الذي يقود خطانا ويسيطر على اعمالنا ، وليس هو بأهم شيء في تصرفاتنا . كلا ، ولا الارادة هي القوة الآمرة التي لا مردّ لأحكامها : « يخيل الى المرء غالباً انه يقود من حيث انه يقاد : فبينما ينزع بفكره الى غاية ، يجذبه القلب من غير ان يشعر الى أخرى . » وعلى ذلك فان العقل تحت سيطرة الاهواء تتحكم فيه كيف تشاء « فاذا استطعنا ان نقاوم اهواءنا ، فذلك لأنها ضعيفة ، لا لأننا اقوياء . » ثم ان معركة الاهواء التي تبث الحيرة والقلق في نفوسنا الى غير ما نهاية هي معركة قوى متفاوتة ، معركة لا شأن فيها لارادتنا ولا لعقلنا ، إلا أن يكون ذلك الشأن مراقبة للمعركة وتمنياً لها ان تتجه هذه الجهة او تلك ؛ ثم تنجلي المعركة عن انتصار الهوى الأقوى ، كما ترجح كفة الميزان الثقيلة وتشيل الكفة الخفيفة . لقد تكون النفس سليمة من الأدواء ، ولكنها تبقى عرضة لها على كل حال : « فسلامة النفس ليست بأضمن من سلامة الجسم ؛ والمرء وان بدا بعيداً عن الأهواء ، فما هو بأقل عرضة للتردّي فيها منه للوقوع في المرض في حالة الصحة . » وما ابعدنا عن محجة الصواب « حين تفارقنا بعض العيوب ، فيخيل الينا اننا نحن الذين فارقناها [1] ! » وهنا يبدو هذا الفيلسوف الأديب على طرف نقيض من ديكارت وكورني اللذين يجعلان المحلّ الاول للعقل والارادة ؛ ويقترب من جماعة الجانسنيين الذين يعتقدون بضعف الانسان وقلة حيلته ، إلا أن تتداركه نعمة من الله وعفو . بيد أن لا روشفوكو يختلف عنهم في انه لا يصدر مثلهم عن عقيدة دينية ، بل عن ملاحظة وطول تفكير [2] .

• • •

هل يكفي تفاعل الأهواء لتفسير الحيرة والارتباك في أطواء النفس ؟ يحيلنا لا روشفوكو لتفسير حركات النفس في ذاتها اولاً ، وفي علاقاتها مع الناس ثانياً ، الى ما اودع فيها من قابلية للتكيّف والتلون ، الى ما يمكن ان ندعوه بغريزة النفاق : ففضائلنا ليست في الأغلب إلا نقائص منكّرة ، واهم هذه النقائص التي تتوارى عن العيون هو الانانية ، حب النفس ، الأثرة : « تضيع الفضائل في توخّي الفائدة الخاصة ، كما تضيع

---

(1) L.F.U. 291 ، (2) L.T. 226–227

الانهار في البحار . » « تدخل العيوب في تركيب الفضائل ، كما تدخل السموم في تركيب الأدوية . » هذا هو محور فلسفته ومذهبه في الاخلاق . ليس في الدنيا إلا الانانية ، الا السعي وراء المصلحة الفردية . فأجمل الاعمال ما هو إلا ظواهر برّاقة . ليس هناك اصدقاء اوفياء ، ولا نساء شريفات ، اعني شريفات باختيارهن ورضاهن . انما نحن لؤماء شريرون بحكم طبيعتنا التي فرضتها علينا الاقدار ، كما فرضت علينا ان نكون سعداء او تعساء . لا شك ان اعمالنا اعقد مما تصوره هذه الحكم الشديدة الحبك القصيرة النفس: فالخيرية تختلط بالانانية ، ومن الخطأ ان نذكر الثانية ونضرب صفحاً عن الاولى . تشوب الفضائلَ في الغالب اهواء غير مشرفة بيد أننا نحيد عن جادة الصواب حين نحسب ان هذه الاهواء تلقف تلك الفضائل وتبيدها عن آخرها . ثم لا ننس هذه الثلة المختارة من الناس « التي تفعل الجميل لأنه خيرٌ واجمل ، لا لأجل صلاحها » . على ان قيمة هذه الحكم في انها تعبّر بجلاء وصدق عما يتراءى لصاحبها انه الحق ، عما لمسه لا روشفوكو في نفسه وفي بعض من اتصل بهم من رجال عصره ، من امثال مازاران ورتز والأمير كوندي (١) . ثم قيمتها في انها تصوب الانوار الى جوانب الضعف في النفس الانسانية فتبرزها للعيان . انظر الى قوله : « ان الاعتراف بالجميل عند اكثر الناس ماهو الا رغبة قوية خفية في استنزال المزيد من المنافع . » والى قوله : « ان ما ندعوه بالأريحية او الكرم ما هو في الأغلب الا التبجح بالعطاء . » أليس ذلك مع مزيد الاسف هو حال العديد الاكبر من الناس في كل زمان ؟ .

هذه الحكم تؤلف كتابا من اعمق الكتب في دراسة القلب ونوازعه واهوائه . انها تهتك السّتار عن نفاقنا المتستر وراء الحجب الصفيقة . ومن هذه الحكم اخذ الفلاسفة النفعيون والماديون في القرن الثامن عشر فلسفتهم وعليها بنوا مذهبهم في الاخلاق . أخذوا امثال قوله : « الرحمة هي في الاكثر الشعور بآلامنا بالتأمل في آلام الآخرين ، انها لحيطةٌ أريبة لما عسى ان نقع فيه من شقاء . انما نعطي المعونة غيرنا لنضطره الى بذلها لنا حينما نكون في حاجة اليها . وهذه الخدمات التي نُقرضها الآخرين هي في فصيح العبارة خيرٌ نصنعه مقدّماً لأنفسنا . » لقد اخذوا امثال قوله هذا ليبنوا مذهبهم في النفعية ، وهو يدعو الى مدّ يد المعونة الى الغير لتأمين حاجات النفس بالمقابل اذا عرضت (٢) .

---

(١) المصدر السابق ثم L.F.U. 291 (٢) المرجع السابق

نماذج من حكم لاروشفوكو

حبّ المنفعة يتكلم انواع اللغات ويمثل مختلف الادوار، حتى دور المنزّه عن الغايات.

• • •

ما اسرع ما نجد العزاء عن مصائب اصدقائنا اذا هي اتاحت لنا ان نظهر عطفنا عليهم.

• • •

نفضل ان نتحدّث بالشرّ عن انفسنا على ألا نتحدث عنها أبداً .

• • •

لو حكمنا على الحب بمقتضى اغلب نتائجه لوجدناه اشبه بالبغض منه بالصداقة (١) .

• • •

مهما تجهدّنا ان نواري اهواءنا وراء ستار من التقوى والشرف ، فانهما لا بدّ ان تبدو من خلال ذلك الستار .

• • •

لأنانيتنا اضيقُ ذرعاً بالنقد يوجَّه الى اذواقنا منها بالنقد يوجَّه الى افكارنا .

• • •

ما الجود في الأغلب الا مستور الطمع الذي يحقر المنافع الصغيرة ليحظى بالمنافع الكبيرة.

• • •

ان ما ندعوه صداقة ماهو إلا شركة ، إلا مراعاة متبادلة للمنافع وتقارض للخدمات؛ ماهو اخيراً الا تجارة تتطاول فيها الانانية الى شيء من الكسب .

• • •

لشد ما يؤلمنا ان يخدعنا الاعداء ويغدر بنا الاصدقاء ، ولكننا نرضى ان نخدع انفسنا ونغدر بها .

• • •

---

(١) ما اكثر ما ينطبق ذلك على مسرح راسين « المعرّب »

تضيع الفضائل في المنفعة كما تضيع الانهار في البحر .

• • •

ما كانت الفضيلة لتواظب على المسير لولم يكن حب الظهور لها رفيقاً .

• • •

ندامتنا ليست أسفاً على الاذى الذي كسبت أيدينا بقدر ما هي خشية من الاذى الذي قد يحلّ بنا .

• • •

ليست صحة الروح بآمنَ من صحة الجسد ، ونحن ، وان كنا نبدو في نجوة من الاهواء ، فلسنا اقلّ تعرّضاً لخطر التهافت فيها منا للوقوع في المرض في حالة الصحة .

• • •

يظهر لنا ان الطبيعة قد رسمت لكل انسان منذ ولادته حدوداً للفضائل والرذائل .

• • •

عظماء الرجال هم وحدهم ذوو عيوب عظيمة .

• • •

لأمراض النفس انتكاسات كما لامراض الجسم . وان ما يخيل الينا انه شفاء لهو في الأغلب فترةٌ انقطاع او تبديلٌ لنوع المرض .

• • •

ما اسهل ما ننسى اخطاءنا اذا لم يعرفها احد سوانا .

• • •

ما الاعتراف بالجميل عند اكثر الناس الا رغبة قوية مكتمة في تلقي معروف اكبر .

• • •

الذي ندعوه بالجود ما هو في الأعمّ الاغلب إلا زهو العطاء الذي نفضله على المال .

• • •

الرغبة في اتخاذ مظهر من الحذاقة تحول دون الحذاقة .

• • •

حبّ الذات يزيد في اعيننا من فضائل اصدقائنا او ينقص ، بنسبة ما تنال من رضانا ، ونحن نحكم بكفاياتهم وفضلهم حسب الطريقة التي يعيشون بها معنا .

يخيّل الينا غالباً اننا نحب الذين هم أقوى منا ، على حين ان المصلحة وحدها هي التي تحملنا على مودّتهم ؛ اننا لا نبذل في سبيلهم لِمَا نريد ان نقدّم لهم من خير، ولكن لما نريد ان يعود علينا منهم من غنم .

* * *

حبُّ المنفعة الذي نعزو اليه كل جرائمنا يستحق غالباً ان نثني عليه لأنه هو الدافع لنا الى طيّب الاعمال .

* * *

من بارع الفطنة ان نعرف كيف نخفي فطنتك .

* * *

اهل الكياسة والحذْق يتظاهرون كل حياتهم بذمّ الدهاء ، ليستخدموه ذات يوم في فرصة كبيرة ولجرّ مغنم عظيم .

* * *

أضمن طريقة للانخداع هي ان يحسب المرء نفسه اذكى من غيره .

* * *

الطبيعة تخلق الكفاية والفضل ، والحظّ يتيح لها ان يظهرا .

* * *

لمعظم الناس ميزات خفيّة ، كما للنباتات ، تكشفها المصادفة .

* * *

ليست حكمتنا رهينة بالحظ أقلّ من اموالنا .

* * *

يجب ان نتدبّر الحظ كما نتدبر الصحة : فنستمتع به مقبلاً ونصابره مدبراً ، ولا نلتمس له دواء عنيفاً إلا عند مسيس الحاجة .

* * *

العقل دوماً خُدْعة القلب .

* * *

بقاء عواطفنا ليس في يدنا ، كبقاء حياتنا .

* * *

تلد الاهواء غالباً نقائضها : فالبخل يلد التبذير في بعض الاحيان ، والتبذير ينتج البخل ؛ وكثيراً ما اظهرنا جأشاً رابطاً من ضعف ، وجرأة عن خوف .

• • •

إن نقاوم اهواءنا فلأنها ضعيفة في الأغلب لا لأننا اقوياء .

• • •

الغياب يضعف العواطف الحقيرة ويذكي العواطف الكبـــيرة ، كالريح تطفىء الشموع وتضرم النيران .

• • •

ليست النفوس الكبيرة تلك التي تخبو اهواؤها وتذكوا فضائلها اكثر من غيرها ، بل التي تضع نصب اعينها مقاصد عظيمة .

• • •

كأن الطبيعة التي أدقت تركيبنا وأحكمته لتجعلنا سعداء ، قد منحتنا كذلك الكبرياء لتجنبنا ألم التعرف الى نقائصنا .

• • •

قليل هم الذين يتحلون بقدر من الحكمة يجعلهم يفضلون اللوم النافع على المدح الخادع .

• • •

رفض الثناء هو رغبة في نيله مرتين .

• • •

نحب دائماً الذين يعجبون بنا ، غير اننا لا نحب دائماً الذين نعجب نحن بهم .

• • •

الكبرياء التي تحملنا على ذم عيوب نخال اننا منزهون عنها هي نفسها تحملنا على احتقار المزايا الحسنة التي ليست فينا .

• • •

يبقى حسدنا دائماً أكثر من سعادة الذين نحسدهم .

• • •

تنتصر الفلسفة في يسر على عيوب الماضي والمستقبل ؛ اما عيـوب الحاضر فتنتصر على الفلسفة .

اننا لنستحي في الغالب من أجمل اعمالنا لو علم الناس الدوافع اليها .

• • •

من الناس من تبلغ بهم الخفة والتفاهة أنهم غير اهل لان يكون لهم سيئات حق ولا حسنات حق .

• • •

من الناس من تزينهم النقائص ، ومنهم من تشينهم الفضائل .

• • •

ما من احد يعتقد انه في كل صفة حسنة عنده اقل حظاً ممن يكن له أوفر احترام .

• • •

هناك نوع من الاعتراف بالجميل هو بمقام الثقة في التجارة لولاها لما كانت تجارة . ونحن في الغالب لا نفي بما علينا لمكان ذلك من العدالة ، ولكن ليسهل علينا ان نجد من يقرضنا .

• • •

ليست البلية العظمى ان نحسن الى ناكري الجميل ، ولكن ان ندين لرجل لئيم .

• • •

اذا نحن اصلحنا ما بيننا وبين اعدائنا فلأننا نرغب في تحسين موقفنا ، ونمل الحرب ، ونخشى العاقبة الوخيمة .

• • •

ليست فضائلنا في الكثير الغالب الا عيوباً متنكرة .

• • •

الذي يجعل اكثر النساء ضئيلات التأثر بالصداقة ، هو أنهن يشعرن بتفاهتها بالقياس الى الحب .

• • •

عندما نغالي بعطف أصدقائنا علينا فذلك في الاغلب رغبة منا في اظهار ما لنا من مزايا ، اكثر من رغبتنا في الاعتراف بالجميل .

• • •

ليس ثمة الا نوع واحد من الحب ، بيد أن هناك مئة نسخة مختلفة عنه .

الهوى غالباً ما يصيّر اللبيب مجنوناً والاحمق لبيباً .

• • •

من الناس من لم يكونوا قط ليحبّوا لو لم يسمعوا بحديث الحب .

• • •

هنالك نوعان من الثبات في الحب : احدهما يأتي من اننا لا ننفك نجد في الشخص المحبوب دواعي مستجدّة للحب ، والآخر يأتي من اننا نحب ان نباهي بثباتنا .

• • •

في نغمة الصوت ولهجته من البلاغة ما يضاهي حسن انتقاء الألفاظ .

• • •

لنحن في الغالب اقرب الى قلوب الناس باخطائنا منا بخير صفاتنا .

• • •

من طبع العقول العظيمة ان تفهم بقليل الكلام اشياء كثيرة ، كما ان من طبع العقول الصغيرة ان تقول كثيراً ولا تقول شيئاً .

• • •

ليس لضعيف التفكير من الفطنة ما يجعله طيّباً .

• • •

لأسهلُ علينا ان نبدو جديرين بما لا نشغل من مناصب منا بالمنصب الذي نشغله .

• • •

مناقبنا تكسبنا احترام العقلاء والحظ يكسبنا احترام الجمهور .

• • •

من الجرائم ما تبرّأ ساحته ، بل يمجّد ، لشدته وكثرته واصطخابه. من هنا كانت السرقات العامة : ذكاءً وحذاقة ، وكان اغتصاب البلاد عدْواً بغير الحق : فتحاً .

• • •

العاجزون عن ارتكاب الجرائم الكبرى لا يسيئون الظن بغيرهم في سهولة .

• • •

من الناس من يفوق عقلهم ذوقهم ، ومنهم من يكون ذوقهم اظهر من عقلهم . ثم

يكون في الذوق ما لا يكون في العقل من تنوّع وعبث (١).

• • •

الشيوخ مغرمون باسداء النصح الجميل عزاءً لأنفسهم ، لأنهم فقدوا القدرة على ان يكونوا قدوة السوء .

• • •

لست تجد بين الناس من بلغ به الشقاء او السعادة الحدَّ الذي يتوهمه .

• • •

ان كان للعيّ عاطفة كان اقوى اقناعاً من افصح الناس (٢) .

• • •

وبعد فلا يسعنا الا ان نكبر ما في حكم لاروشفوكو من حقائق ؛ غير انه يسرف احياناً في التشاؤم ؛ وقد اعترف هو نفسه بذلك ، فعدّل من هذه الحكم ، اذ تبين الخطأ في لجوئه الى التعميم ، فجعل في الطبعة الأخيرة يلجأ الى التحفظ ؛ وآية ذلك ما نراه في مثل قوله « غالباً ما ، في الكثير الغالب . . » وخيراً فعل ، لان في انكار الفضيلة ، كما يقول احد الاساتذة ، تثبيطاً للهمم الشريفة عند كثير من كرام الناس الذين يسمون ابداً الى المثل الاعلى (٣) .



(١) الحكم السابقة من كتاب : Max imes ومن 301 – 303 Chevaillier (٢) قصة الادب ٣٢٨ (٣) Des Granges 151 – 152

رتز RETZ

لم تنشر «مذكرات Mémoires » پول دي جوندي ، كاردينال رتز ، الا في مستهل القرن الثامن عشر . غير انها كتبت قبل ذلك بنحو اربعين عاماً ؛ وينتسب الكاردينال المذكور الى ذلك الجيل الذي عرفناه بالحماسة واحترام القوة ، من غير نظر الى القيم الاخلاقية ، والذي ينتهي بتسلّم لويس الرابع عشر مقاليد الحكم الفعلي : ان رتز ليدهشك بتهاونه بالفضائل ، كما يدهشك بمطامعه العريضة وصبره الطويل .

ولد عام ١٦١٣ . وكان عمه مطران باريس ؛ فأدخل الكهنوت مرغماً ، لان اسرته كانت تحرص على الاحتفاظ بهذا المنصب الكبير . ولكن رتز ما كاد يرى ان هذا السلك هو اضمن وسيلة لتحقيق هدفه ، وهو الوصول الى الوزارة ، حتى احب عمله وتعلّق به . لقد أصبح مساعداً لعمه ومرشحاً بعده لمنصبه ، من غير ميـــل بادئ الأمر ، كما ذكرنا ، وربما كان من غير عقيدة كذلك . كان عمره حين ذاك ثلاثين عاماً . انه ليستغل منصبه ليفوز بمحبة الشعب ، وانه ليستدين المال ليوزعه على الفقراء ؛ فاذا اعترضه لائم اجاب «كان قيصر في مثل سني مديناً بستة اضعـــاف ما عليّ . » ومن اسف ان المنصب الذي كان يتوق اليه كان في قبضة ذلك الرجل الحديدي : مازاران . لقد كانت حياة رتز كلها جهوداً ضائعة ليحل مكان مازاران .

ثم تنشب حرب «الفروند» فيرمي بنفسه فيها ويصبح ذات حين قلبها النـــابض وعقلها المفكر ؛ ولكنه كان دائماً يرصد الخيانة ويبيّت الغدر اذا هو قبض الثمـــن المناسب ! وعرف مازاران خطره ، فتألّفه الى جانبه بوعد قطعه له برفعه الى رتبة الكاردينال ، وهو يضمر ان يحول بينه وبينهـــا . فلما خابت اماني الرجل وعرف ان صاحبه قد مكر به ، عاد يحوك الدسائس ويضرم نار الحرب الاهلية ، فكثّر سواده وامِرَ أمرُه [1] ، واستطاع ان يلحق الهزيمة بغريمه ، وان يتوّج رأسه بقبعـــــة الكاردينالية ، الشيء الذي لم يكن منه بدّ لرجل الدين حينئذ للوصول الى الحكم [2] .

---

(١) أمر أمره : اشتد (٢) كما فعل الكاردينالان ريشليو ومازاران



رتز

هكذا كان رتز يسير بخطا سريعة الى المنصب الذي تشوّف له وخاطر من اجله .

غير ان جهود الوزير الداهية في الخفاء ، وانكسار جيوش الثورة التي كان يقودها الأمير كوندي أحبطت آخر الأمر مساعي الكردينال وقضت على امانيه العذاب . انه ليأبى بعدما عرف لذاذة الظفر ان يعترف بذلّ الهزيمة ، وانه ليركب رأسه ويقصد على ملأ من الناس قصر اللوفر الشهير ، فيُقبض عليه ويُذهب به الى السجن . وفيما هو في محبسه يشاء القدر ان يموت عمه ويصبح هو مطران باريس ! ثم تسنح له الفرصة فيهرب من السجن ويواصل الكفاح ست سنين في مأمنه . وفي عام ١٦٦٢ حظي بعفو الملك ، على ان يتخلّى عن منصبه الكبير ويقنع بالاشراف على احد الاديرة . ولم يغب عنه فوائد هذا العرض ، وعرف ثراء ذلك الدير ، فدخل في شرط الملك ، وقبل عفوه ، ليظهر امام الناس بمظهر الزاهد في الدنيا ، غير ذي الحفلة بالمناصب . . . يا للمثّل البارع !!

عاد اذن الى باريس ليعيش فيها رافهاً ناعم البال . كان يخالط الاذكياء ، ويتردّد الى صالة مدام دي‌لافاييت ، ويلتقي عندها ادباءَ فرنسا واديباتها . كان لاروشفوكو وموليير وبوالو يقرءون له ما تجود به قرائحهم ويستطلعون رأيه فيه . ومن حين الى آخر كان يقصد روما مندوباً عن الملك ، فيكشف لدى مفاوضاته في مجمع الكرادلة عن شفوف ذهن وصلابة عود لم تنل منهما الايام : ما من احد يستطيع ان يتلاعب بامور الدين والكنيسة في مثل هدوئه ؛ فما بين عامي ١٦٦٧ - ١٦٧٦ لعب دوراً كبيراً واستطاع ان ينصّب ثلاثة بابوات ! انه لا يفكر في غير السياسة ولا يصدر عن غير السياسة ! اما الدين والورع والفضيلة ، فالفاظ حسان تستر المصالح الخاصة عن اعين البُله ! ترى أكان يسرّه ان يُظهر للويس الرابع عشر اي وزير حصيف في القدرة ان يكونه لو ساعف الزمان !

وعندما لحقته السن وانقطع آخر رجاء له بتحقيق ذلك المطلب البعيد استقال من الكردينالية : عفّة أعجب بها الجمهور من غير ان يعلم ما رمى اليه وراءها من حب الظهور بالزهد واطراح الدنيا امام الناس . كانت كهولته هادئة ، موضع احترام الجميع . وفي اثنائها ألّف «مذكراته» . وفي عام ١٦٧٩ لفظ رتز آخر انفاسه .

لقد كانت حياته من فاتحتها الى خاتمتها طوع ارادته ، كواحد من ابطال كورني .

• • •

يوجّه رتز «مذكراته» الى احدى صديقاته ؛ ويبدو انه لم يعدّها للنشر ، ولذلك تأخّر طبعها حوالي اربعين عاماً بعد وفاته. وهي لا تتناول غير السنين الاثنتين والاربعين الاولى من حياته ؛ واهم قسم فيها ذلك الذي يروي مغامراته في حربَي « الفروند » ، وهربه من السجن وحوادثه خلال السنة الاولى من الغربة . وتنقطع هذه المذكرات فجأة عام ١٦٥٥ .

ليس لرتز في مذكراته هذه دقة العالم ولا نزاهة المؤرخ . فهي على التحقيق صورة صادقة لشخصيته المراوغة المستهترة . ما من اكذوبة لا يجرؤ عليها : يحرّف السنين ، ويشوّه الحقائق ، ويزوّر الحوادث . وهو في كل ذلك أحرص على اظهار شخصيته وذكائه وعلى اغراء القارئ بمتابعة قراءته ، منه على الظهور بمظهر الرجل الشريف الذي لا يحيد عن مبادئ الفضيلة ولا يهجس في ضميره غير المصلحة العامة ؛ فتلك في نظره اوهام الضعفاء والاغبياء !

اما قيمة هذه المذكرات الادبية فترجع الى ما فيها من : قصص اولاً ، وصور ثانياً ، وافكار سياسية ثالثاً .

فأما القصص فيمتاز بطرافة الحوادث وحرارة العرض . واما الصور فهي عرض قوي أخاذ لبعض ذوي النفوذ في عصره ، وخصوصاً لاولئك الذين تعاون معهم وخبرهم عن كثب : الأمير كوندي ، القائد تورين ، السيدة لونجفيل ، الدوق لاروشفوكو ، اخو الملك . كل قد احكم درسه وأدقّ صورته بفنّ رائع اصيل . ولكن حذار ان تركن دائماً الى اخبار رتز ، فهو كما بيّنا لك محدّث بارع ومصور فنان ، لا شاهد عدل ولا راوية ثقة . على ان انحرافه عن الحقيقة يعود الى نقص في النزاهة لا الى قرب غور او ضعف تقدير .

واخيراً الافكار السياسية ، وهي ما تفرضه طبيعة الموضوع من جهة ، وما يأتلف مع ذوق ذلك الجيل الكورنيلي ـ بالنسبة لكورناي ـ من ميل الى المناقشة وتقليب الأمور من جهة اخرى . هذه الافكار تعترض مجرى الحوادث في كل حين، لتنفذ الى جذورها وتوضحها : يرى الكاردينال ان مصدر الفوضى في البلاد ـ ولنذكر انه يتكلم عما قبل عام ١٦٦٠ ـ هو تجاهل سلطة مجالس النواب . لقد خضد ريشليو شوكة هذه المجالس وقضى على فوائدها . ثم جاء مازاران ينهج نهجه ويتمادى في تبذيره البغيض ، فلم يكتب له النجاح ، لأنه يختلف كثيراً عن سلفه . وهنا يرسم المؤلف صورتين

رائعتين للكاردينالين الوزيرين . ومن الفصول الرائعة في الكتاب ايضاً ، ذلك الخطاب الذي وجهه الى الأمير كوندي ، يندُبه فيه الى صون البرلمان ، ويأسف لما يجد عنده من تردد وتلوّن .

واسلوب رتز في اكثر ما كتب بارع حارّ طبيعي كثير الالوان ، غير انه لا يخلو احياناً من التكلّف والغموض (١) .

نموذج من مذكراته

هرب الكاردينال دي رتز

لما أُلقي القبض على الكاردينال أودِع حصناً في «نانت» على نهر « اللوار ». وهو يروي هنا حادث فراره الطريف :

كنت اخرج احياناً للنزهة على جانب من الحصن يؤدي الى نهر «اللوار» ؛ فلاحظت ونحن في شهر آب أنّ النهر لا يضرب بامواهه السور ، وانه قد انحسر عن فسحة من الارض بينه وبين الحصن . كما لاحظت انّ هنالك بين الحديقة والرصيف الذي يرقبني منه الحراس عندما اتنزه باباً أقامه «شالوسيه» (٢) ليمنع الجنود من دخول الحديقة وقطف أعنابها . رسمت وفاق هذه الملاحظات خطتي، وهي : ألا اتظاهر بشيء حتى اصل الى هذا الباب ، فأجرّه ورائي ، فيحول بين الحراس وبيني ، وإن تعقّبوني بأنظارهم من خلال شبكته ؛ وأن اتدلّى من حبل يلقي به الي طبيبي والآب « روسّو » ، اخو وكيلي ، فأمتطي واربعة من النبلاء افراساً يعدّونها لنا عند اقدام السور ونذهب معاً . ان تحقيق هذه النيّة لمن الصعوبة بمكان . لم يكن في المستطاع إنفاذها الا في وضح النهار ، بين خفيرين احدهما على مسافة ثلاثين خطوة من الآخر ، وعلى مرمى غدارة قريب المدى ، وامام أحراسي الستة الذين كان في استطاعتهم ان يطلقوا على النار من خلال قضبان الباب . كان على النبلاء الاربعة الذين انتدبوا لمرافقتي لاعانتي على الهرب ان يرعوا جانب الدقة في انتظارهم اسفل السور ، فما اسهل ما كان ظهورهم يثير الشكوك . لم يكن في يدي ان أستغني عن بعضهم ، لاني اضطررت ان امر من مكان جد قريب ، وهو في

---

(١) استقينا مادة هذا الفصل عن «رتز» من : L. T. 234-238

(٢) مدير الحصن

العادة تمشي حرّاس الماريشال (١) . لو ان رغبتي لا تتعدّى الخروج من هذا الحبس ، اذن لكفاني ان اتخذت الحيطة الضرورية لما بسطته بين يديك ؛ بيد انها تذهب الى ابعد من ذلك ، فقد عقدت النية على ان آخذ سمتي رأساً الى باريس ، فأعلن وجودي فيها (٢) ؛ الى شواغل اخرى هي اصعب من هذه بكثير . وجب ان اشخص على جناح السرعة من «نانت» الى باريس ، اذا كنت لا اريد ان يُقبض عليّ في الطريق ، حيث لابني رجال الماريشال يلقون الرعب؛ وجب ان اهيىء الامور في باريس حيث يهمني ان يحاط اصدقائي علماً بمسيري ، بقدر ما يهمني الا يعلم بذلك غيرهم . تلك وسائل ما ان نقصّر في احداها حتى نُخلّ بسير الآلة .

• • •

تسللت يوم السبت في الثامن من آب ، عند الساعة الخامسة مساء ؛ انغلق باب الحديقة ورائي بصورة طبيعية . وضعت بين فخذيّ عصا وتدلّيت في توفيـــق تام من الحصن الذاهب في الفضاء اربعين قدماً . وكان قد تولّى خادم لي لا يزال في حوزتي ويدعى «فرومانتان» تولّى أمر تسلية أحراسي ودار عليهم بالشراب . وكانوا في مرح من تلقاء انفسهم اذ أخذوا يرقبون احد الرهبان يغتسل على حافة النهر ويغوص فيه . اما الخفير الذي كان على مسافة عشرين قدماً مني ، ولكن في مكان منقطع عني ، فلم يجرؤ على اطلاق النار ، لانني حين وجدته يتهيّأ لذلك صحت به متوعّداً بالشنق ان فعل ، فأمسك . وقد اعترف اثناء استنطاقه وتعذيبه ، بانه ظن لدى هذا التهديد اني كنت على اتفاق مع الماريشال في ذلك . وكان خادمان صغيران يغتسلان ، فلما رأياني متدلياً على الحبل نبّها في صوت عال الى انني انجو بنفسي ، ولكن لم يصغ اليهما احد ، اذ خيّل الى الجميع انهما يدعوانهم الى نجدة الراهب المغتسل . اما النبلاء الاربعة فوقفوا في المكان المعيّن اسفل الحصن ، حيث تظاهروا بالتماس الماء لخيلهم ، كما لو أنهم يريدون ان يذهبوا الى الصيد . وقبل ان يُرعب احـــد لنزولي كنت قد امتطيت فرسي ؛ واني لواصل باريس لا محالة فجر يوم الثلاثاء ، اذ أعدّ لي اثنان واربعون فرساً موزّعة على المحطات بين «نانت» والعاصمة ، لولا ذلك الحادث النكد الذي اعترض طريقي ، فكان في يده

(١) الماريشال دي لا مايوري ، الذي وكل اليه حراسة الكاردينال .

(٢) كان في نية الكاردينال ، وهو مطران باريس ان يحضر علانية احدى الصلوات العامة .

مصير ما بقي من حياتي :

• • •

ذلك اني ما كدت اعتلي صهوة الجواد حتى أوضعت (١) بنا الخيل في طريق «موف» وهي اذا لم تخنّي الذاكرة ، على خمسة اميال من «نانت» ، على النهر ؛ وكان الاتفاق على ان ينتظرنا فيها السيدان «دي ريساك» و «دي سيفنيه» مع قارب لاجتياز النهر . وقال لي «لارالد» ، حامل سلاح الدوق «دي بريساك» ، وكان يمشي امامي : إنه يجب ان نركض الخيل اولاً لئلا يتفسح الوقت لحراس الماريشال فيغلقوا باب الشارع الصغير في الضاحية التي يقيمون فيها ، اذ لا معدى لنا عن المرور فيه . كان لي احد كرام الجياد في العالم ، وقد كلف السيد دي ريساك الف ريال . على اني لم اطلق له العنان ، لاننا كنا نسير على صعيد زلق شديد الوعورة . ومع ذلك فقد هتف بي احد النبلاء واسمه «بواجوران» ، أن أضع الغدارة في يدي ، اذ رأى حارسين للماريشال ، مع انهما كانا لا يفكران فينا ، فوضعتها ؛ وحين قربتها من رأس ادناهما مني ، لاصده عن الامساك بزمام فرسي ، كانت الشمس في الاعلى قد انعكست على حديدها ، فأجفل الفرس ، وكان حاداً جموحاً ، ثم وثب وثبة وهبط على اربع . ووقعت انا على كتفي الايسر الذي كاد يتحطم على طرف احد الابواب . فرفعني احد النبلاء ، ويدعى «بوشسن» ، واعادني الى مكاني من ظهر الفرس . ومع اني كنت أعاني آلاماً هائلة ، وكنت اشد شعري من حين الى آخر لادفع عني الاغماء ، فقد تابعت عدو الاميال الخمسة ، قبل ان يتمكن رئيس المدفعية الذي كان يطاردني من اللحاق بي .وجدت في المكان المعين السيد دي بريساك والشوفاليه دي سيفنيه مع القارب . وما كدت ادخله حتى اغمي علي ، فاعادوني الى الصواب بكأس من الماء نضحوا به وجهي . وبعدما اجتزنا النهر أردت ان أعتلي صهوة الجواد فأعوزتني القوة ؛ واضطر السيد دي بريساك ان يودعني كومة عظيمة من العلف ، صحبة نبيل يدعى « مونتيه » كان يحتويني بين ذراعيه . لقد اخذ معه «جولي» (٢) ، الذي استطاع وحده ان يتبعني مع « مونتيه » اذ كان النبلاء الثلاثة الآخرون قد خارت قوى افراسهم ، وسار رأساً الى مدينة «بوبريو» ليجمع فيها النبلاء فيأتوا لانتشالي من كومتي هذه (٣) .

---

(١) أسرعت (٢) سكرتير الكاردينال

(٣) عربنا القطعة السابقة من كتاب : Chevaillier 312-316

القصة في القرن السابع عشر

اتجهت القصة اتجاهاً عاطفياً في مستهل هذا القرن ، تحت تأثير الطبقة الاجتماعية الراقية ، ونعني بها تلك الحلقات المثقفة التي كانت تجتمع في صالات بعض شهيرات النساء والتي اصبحت صالة المركيزة دي رامبوييه (١) خير ممثل لها فيا بعد . هذه القصص ليس لها قيمة فنية كبيرة ، ولذلك فقد اهملها تاريخ الأدب او كاد . وهي جميعاً تتخذ الحب الذي تعترضه الصعاب موضوعاً لها ، والفتاةَ البكر ، لا المرأة المتزوجة بطلة لهـا . والكاتب مقيد في قصصه بتقاليدالهيئة الاجتماعية الراقية وآدابها، فليس له ان يُسِفّ في قول ولا ان يخرج عن حدود الحب الشريف . اما العثرة التي تعترض هناء المحبين فهي ظلم الآباء وبلادة طبعهم وجشعُهم . وكثيراً ما يفضي ذلك بالفتى وفتاته الى الموت ، او الى اعتزال الدنيا في الدير ، وقلما استطاعا ان يقهراه ويحظيا بالزواج . ومن ميزات هذه القصص ان الحوادث فيها قليلة ، فهي تفسح المجال لتحليل العواطف ؛ ولكنها لا تتناول غير البسيط منها : ابداً لا تعنى بالغيرة او وخز الضمير او التردد او غيره من العواطف المعقدة ؛ ولكن بهزّة اللقاء وألم الفراق ووحشة البعاد . والطريقة التقليدية التي تفرض دائماً ان يكون الآباء قساة غلاظ الاكباد والعشاق اوفياء والعشيقات مدنفات ، تحـدّ من حرية القصصي وتحول دون تنويع الموضوع وارتياد آفاق جديدة . ثم ان قلة الحوادث في الرواية تبرّد العمل الروائي ، وتحمل على الملل ، اذ لا تجد لدى اولئك الكتاب الحـوار الحار ولا القدرة على التحليل العميق اللذين يمكن ان ينوبا عن الحوادث ويسيرا بالعمل في جاذبية وحرارة . على انه من الانصاف ان نعترف بالجميل لهؤلاء الكتاب على انهم وجّهوا الانظار الى اهمية الدراسات النفسية والعاطفية في القصة ، والى انهم مهّدوا السبيل امام القصصي المعروف «درفيه» :

ولد « أونوريه درفيه (٢) » عام ١٥٦٧ في مرسيليا ؛ واشترك في شبابه في احدى الثورات الفاشلة ؛ ثم اعتزل السياسة واخذ يكتب اشعاره الدينية والاخلاقية ؛ ثم عاد

---

(١) La marquise de Rambouillet (٢) Honoré d'Urfé

فتقلّب على مناصب كبيرة ، وخاض بعض المعارك ومات فيها عام ١٦٢٥ . اشهر درفيه على الخصوص بقصته : « أستريه (١) » التي صور فيها مُمثّلَ الطابقة الراقية من روّادالصالات وتقاليدَها . وهي من الأدب الريفي ، الذي يختار الحقـول والريف مسرحاً للحوادث ؛ وقد اظهر فيها الـكاتب قدرة مشكورة على تصوير الطبيـعة ، وعلى تحليـل العواطف الانسانية . تدور حوادث هذه القصة على وصف الصعاب التي اعـترضت طريق بطليهـا « سيلادون (٢) وحبيبته « أستريه » ، اللذين آثرا حياة الريف على حياة الحضر واستخفيا في زيّ راعٍ وراعية « ليعيشا عيشة أهنأ . » ولكنهما احتفظا بآداب الطبقة الراقية وميلها الى المناقشات الفكرية والعاطفية .

وقد أثنى بوالو على هذه القصة ، وأعجبه منها « انها تضمّ شخصيات قـد احسن الـكاتب تصويرها كما احسن تنويعها (٣) . »

* * *

والآن نستعرض تلك الادباء الذين خلفوا « درفيه » على زعامة القصة في هـذا العصر ؛ ولكن لنذكر أنهم ليسوا بالصدور المقدّمين بين ادبائه ، وأنهم لا يُقرءون اليوم إلا نادراً ، وانهم على كثرتهم وضخامة آثارهم ضخامة عجيبة ـ على خلاف المعهود عند الاتباعيين ـ لا يعيرهم تاريخ الادب اهمية تذكر ؛ فلنكتف اذن بلمحة سريعة نستعرض فيها حياة نخبة منهم ونلمّ المامةً مختصرة بأهم آثارهم :

شارل سوريل : ١٥٩٧ — ١٦٧٤ : — ولد في باريس ومات فيها . شغل وظيفة « مؤرخ فرنسا » . اشهر ما كتب : التاريخ الهـزلي الموثوق لفرانسيون ؛ والراعي المجنون (٤) .

لم يرمِ الـكاتب من سرد اخبار « فرانسيون (٥) » وغرائبه إلا الى ان يقود خطانا الى الاماكن المكتظة بالناس لنرى اكثر ما يمكن ان نراه : عالمٌ منوّع يعجّ بالنـاس بمختلف طبقاته : من فلاحيه ، الى طلابه ، الى لصوصه ، الى نسائه وخصوصاً منهن السافلات ، الى خدمه ، الى متحذلقيه ، الى مُجّانه ، الى معتوهيه . انه خبير أيّ خبير

(١) Astrée (٢) Céladon (٣) رجعنا فيما سبق الى L.F.U. 227—229 ومادتي Urfé و Astré في L.U. و 8 : La Princesse de Clèves

(٤) La vraie histoire comique de Francion و Le berger extravagant

(٥) بطل الرواية

لخفايا المدينة والريف التي لا يستلذها ، ولكنه يفضلها على عشرة تلك الطبقة التي تتكلف الاناقة والظرف في صالات الوجهاء . وهو لا يكتم شعور الكره للقضاة ويتهمهم بكل نقيصة ويرميهم بكل آبدة . والغرض الاخلاقي ظاهر عنده ، فما يكاد يفرغ من حكاية الا بعد ان يستخلص منها عبرة او دعوة الى مكرمة .

هذه القصة ، على ثوبها الفضفاض وبعض نواقص أخرى فيها ، لا تزال تقرأ في لذة . واقل منها إمتاعاً قصة الراعي المجنون : تأثر المؤلف في موضوعه بقصة « دون كيشوت » للمؤلف الاسباني المعروف « سرفانتيس » . فاذا كان دون كيشوت قد أدمن قراءة قصص الفروسية حتى تزيّا بزيّ الفرسان وقلّد اعمالهم ؛ فان الراعي المذكور قد أغرم بالقصص الريفية وتولّه بتلك العيشة التي يعيشها الرعاة في سبيل الحب فجعل يقلدهم ويسلك في الحياة سبيلهم . ولا شك ان « سوريل » يسخر هنا بالقصص الريفية جميعاً وبقصة « أسترين » على الخصوص . والفكرة في الاساس موفقة . ولكنها لا تصلح وحدها لتملأ فصول رواية ضخمة كهذه ؛ اذ يكفي ان يطّلع القارئ مرة واحدة عليها حتى يحزر خطط المؤلف في كثير من المواقف ويفقد جاذبية المفاجأة .

ماران دي جومبرفيل ١٦٠٠ — ١٦٧٤ : — احد الاعضاء الذين انتخبوا للمجمع العلمي في السنة الاولى من تأسيسه . اشتهر بقصتيّ : كاريسي (١) ، پولكساندر (٢) . وهو في كليهما يقود قارئه الى بلاد اجنبية نائية . ففي الاولى نشهد النيل ومناظر التماسيح . وفي الثانية ننتقل من جزر كناريا الى مراكش الى السينغال الى المكسيك الى الانتيل ؛ وهو يعرض علينا سكان تلك البلاد وعاداتهم . وقد أولع لا فونتين بقراءة هذه الرواية ؛ ويرى النقاد ان مؤلفها هو اول من كتب ادباً يدور حول البلاد النائية La littérature excotique

الآنسة دي سكيدري : ١٦٠٧ — ١٧٠١ : — عاشت زهاء مئة عام . قالوا انها اعجوبة عصر لويس الكبير ؛ وذلك لما لاقت روايتاها سيروس (٣) ، وكليلي (٤) من نجاح عظيم . وللمؤلفه كذلك رواية تدعى : ابراهيم (٥) . غير ان اقبال الجمهور على قراءة هذه الآثار ما عتّم ان فتر ثم زال . ذلك لانه لم يحفل بها إلا لانها تقدّم « صوراً » لبعض العظماء ولكنها صور غامضة شوهاء لا تروي غليل القارئ ولا تحقق ظنه . في ثاني هذه الروايات

(١) Caritie (٢) Polexandre (٣) Cyrus (٤) Clélie
(٥) Ibrahim

مثلا قصدت المؤلفة ان تقدم لنـــا شخصية الاديبة الشهيرة مدام دي سيفنيه في صورة البطلة : كلارانت ؛ ولكنك اذا حققت النظر في هذه الصورة لم تجد صفة واحدة تمتّ الى الاديبة الكبيرة بصلة . كلا ! ومن عجب أن احبّت الجماهير ذات يوم هذه الكتب المملّة وهتفت لها ! أهي الصدفة ، أهو الحظ الأعمى ، أهـو حكم الدهماء ؟ ولكن بوالو لم يلبث ان هتك الستر عن هذه الروايات و كشف عما فيها من مناقص وتفاهات ، ولم يلبث الرأي العام ان استجاب له وأولى اعجوبة العصر ظهره !

جوتيه دي لا كالبروناد [1] : ١٦١٤ — ١٦٦٣ : – وقصتـاه : « كليوباترا » وكاساندرا » تتنافسان طولاً وغثاثة وإملالا .

انطوان فيروتيار [2] : — ولد في باريس ١٦١٩ من اسرة خاملة: كان عالماً محرراً بعيد الهمة ، درس الحقوق وبعض اللغات الأفرنجية والشرقية ؛ وتقلب في وظائف الدولة وفي عام ١٦٦٢ اصبح عضواً في المجمع العلمي، فاكبّ على تأليف معجم لغويّ ، لأنه وجد زملاءه يبطئون في تأليف معجمهم . بيد أن ذلك ساء أعضاء المجمع فتآمروا عليه ورفعوا أمره الى مجلس الملك ، واتهموه بالكيد لعمل المجمع ؛ فما كان منـــه الا ان سخر منهم بأهاجي جميلة سببت إقصاءه عن المجمـــع آخر الامر ، ١٦٨٥ . ولفيروتيار الى جانب « قاموسه العام » كتب كثيرة ، اهمها « القصة البورجوازية [3] » .

كان فيروتيار صديقاً لبوالو وراسين ولا فونتين ، ومات في باريس ١٦٨٨ :

لم يكن فيروتيار أول من اكتشف القصة الواقعية Roman réaliste ، فقـد رأينا « شارل سوريل » يسبقه اليها في روايتيه اللتين تصور احداهما المجتمع على اختلاف طبقاته ، وتسخر اخراهما من حياة الرعاة الخيالية كما تبدو في القصص الريفية . غير أن فيروتيار أرسخ قدماً واذكى طريقة من سلفه . لقـــد اعلن في الصفحات الاولى من « القصة البورجوازية » انه لن يعرض علينا في روايتـه ابطالاً ولا بطلات ؛ فليس في اشخاصه من يحمل السلاح او تحدثه نفسه بثلّ العروش ؛ انما هم من اولئك الناس العاديين الذين يسيرون الهوينا الى اهدافهم ، والذين فيهم الفطن والبليـد ، والطيب والخبيث ، والجميل والدميم . انها تعرض عليك الطبقات الوسطى ، وهي ولا شك اقرب اليك من امراء واميرات البلاد النائية في التاريخ القديم . ان نظرة فيروتيار هذه الى القصة لشبيهة

---

(١) Gauthier de Costes de La Calprenède (٢) Antoine Furetière
(٣) Le roman bourgeois

جداً بنظرة الكتاب الروائيين في القرن التالي ، من امثال « سودين (١) » و « ديدرو (٢) » و « بومارشيه (٣) » ، ويظهر ذلك جلياً من قول هذا الأخير : « ما علاقتي ، انا المواطن الوادع في ظل الدولة الملكية في القرن الثامن عشر ، بثورات أثينا وروما ؟ اي مصلحة حقيقية يمكن ان تعرض لي في موت طاغية في « البيلوبونيز » ؟ او في التضحية بأميرة كاعب في « الأوليد » ؟ ليس في كل ذلك ما يقتضيني النظر ولا ما يصلح لان يسوق الي العبر . . . » كذلك كان فيروتيار من قبله كاتباً واقعياً يسره ان يصور اشخاصاً عاديين ، لا يتجاوزون المألوف في رذائلهم ولا في فضائلهم ؛ وعلى الجملة فقد كان اوساط الناس هم الذين يلفتون نظره ويستهوونه على الخصوص . فالسيدة « فوليشون » من اشخاصه ليست بالملاك ولا بالشيطان ، غير انها نمّامة مهذار ، فاذا افرغت ما في جعبتها من النميمة عرّجت على ذكر شواغلها ومشاكلها مع الاولاد والخدم : قل لي بربك يا سيدي هل لديك خادم امينة ذات جد ، فاني قد عزمت على تسريح خادمتي ؟ وانت يا سيدتي الا تبرمين بهذا الغلاء المستمر ، أما إن للبيت لغماً كبير الاشداق !

وجملة القول أن السيدة « فوليشون » هذه مثال حي من الطبيعة ، وأن فيروتيار لا يخلو من ألمية ؛ ليس هو بالكاتب العظيم ، لأن حفنة ذهبه ضائعة في كومة من تراب ، ولكن له عيناً بصيرة تسجل ما تراه . وقد اخذوا عليه ضعف الحبك وقلة التساوق ، فهو اشبه بالطبيعة المرسلة لم تصقلها يد الفن ، واخذوا عليه انه يمل قارئه احياناً ، فهو من هذه الجهة شبيه بالحياة اليومية الرتيبة . واخذوا عليه انه حين يتجنب المغالاة التي نجدها في مسرح كورني لا يعوضنا منها بمثل ما يفعل راسين . ثم انه اغرق في تبسيط شخصياته حتى شارفت احياناً حدود التفاهة ! اما واقعيته فخطوة حسنة في تاريخ القصة ، ولكنها واقعية بدائية على كل حال (٤) .

مدام دي لافييت (٥)

« رسالة المرأة ان تبتعد عن كل ما يجلب النظر . » هذا ما قالته مدام لا فاييت ؛

---

(١) Sedaine «٢» Diderot «٣» Beaumarchais «٤» رجعنا فيا سبق الى L.F.U. 286 -288 ، والى المواد التالية من L.U. : Sorel ، Francion Furetière, Scudéry, Gamberville, Le berger extravagaut Le roman bourgeois ثم الى La Princesse de Clèves : 8

«٥» Madame de La Fayette



مدام دي لافاييت

وقد عملت حياتها كلها بهذا الرأي السديد الذي أحظاها في القصر، ومكّن لها في مودة «هنريت دانجلوتير»، امرأة اخي الملك، وكسبها صداقة الكاتبة المعروفة المركيزة دي سيفنيه، وأهفى اليها قلب الدوق لا روشفوكو، صاحب «الحكم»، وهو يهدف الى الشيخوخة(١).

ولدت في باريس ١٦٣٤، من احد صغار النبلاء، وتزوّجت ١٦٥٥ الكونت دي لا فاييت. كانت متوفزة الشعور صادقة العاطفة، من غير إعلان: فقد أحزنها وفاة صديقتها الأميرة «هنريت دانجلوتير»؛ والتقت لا روشفوكو فوقع في قلبها، وهام هو الآخر بهذه المرأة اللطيفة التي كانت تصغره بعشرين عاماً؛ وتوثّقت بينهما وبين مدام دي سيفنيه عرى صداقة دامت اربعين عاماً، ولم يظهر في سمائها من غمام. وكانت الى ذلك واقعية، تثمّر ارزاقها وتعنى بولديها اشدّ العناية. وكانت دارها مجمع الاصدقاء، ونخص منهم السيدة دي سيفنيه ولا روشفوكو: هناك كان الاثنان يجتمعان الى مدام دي لافاييت التي كان ضعف صحتها يمنعها من الخروج؛ وهناك كانوا يتحدثون امتع الاحاديث، فيهذّبون «الحكم»، وقد تبدي السيدتان نفورهما مما تلمحان فيها من سخرية لاذعة؛ ويلطفون النظر جميعاً في طبائع بعضهم بعضاً، وربما تحرّج الموقف احياناً واكفهرّ الجوّ او خيّمت الكآبة. ثم يموت لا روشفوكو فتنقطع هذه الجلسات، ويغمر الهمّ اديبتنا الى غير سلوّ؛ وقد صرحت بعدئذ «بأن كل امرئ يفقد نصفه الآخر قبل ان يغادر هذا العالم.» لقد كان لا روشفكو هو هذا النصف! وماتت الاديبة الكبيرة عام ١٦٩٣، بعد ثلاث عشرة عاماً من وفاة الصديق العزيز؛ من غير ان تخلّف آثاراً ضخمة، لانها لم تضع مهنة الادب نصب عينها، ولانها كانت تستمتع بلذة الكسل. غير انها كتبت اقوى قصة في القرن السابع عشر، وهي تروي على المقاربة سرّ حياتها المؤلم: الأميرة دي كليف (٢). تجري حوادث هذه القصة في عهد الملك هنري الثاني الذي حكم فرنسا ١٥٤٧ – ١٥٥٩ (٣). فحول هذا الملك المغرى باللذات يتألق نجم الامراء والاميرات من ذوي الظرف والاناقة، وفي طليعتهم الدوق دي نومور، والآنسة دي شارتر. ما كادت هذه الفتاة تخطر لاول مرة في قصر اللوفر حتى تقدم الأمير دي كليف يطلب يدها، وحتى رأت الاسرة وجه المصلحة في هذا الطلب فاسرعت في تلبيته. هنا تبدأ المأساة. ان

«١» L.T 227—228 «٢» La princesse de Clèves «٣» L.T. 228 ،
L.F.U. 292

الأمير ليألم ويشكو مرّ الشكوى من انه يحب ولا يجد من يبـــادله الحب . اما امرأته فتحترمه ، ولكنها تميل على غير رأي منها الى الدوق دي نومور . انها لتفضي بالسرّ الى أمها ، فتنصحها ان تترك قلبها مُغلقاً لهذا الحب الآثم ، وان تقيم على الوفاء لزوجهـا . ثم تموت الام ، ويتجدّد القلق ويشتد الصراع في نفس السيدة الفاضلة التي تتأثر ابلغ التأثر حين تعلم ان عاشقها الدوق قد زهد في عرش عُرض عليه ، في سبيلها . على انها اذا لم تملك ألا تحب ، فعليها على الاقل ان تعمل بما يقضي به الواجب . فهي تريد ان تنأى عن حبيبها ، اذ انها تبينت يوماً بعد يوم مكانه من قلبها . فلما عجب زوجها من ميلها الطارئ الى العزلة التفتت اليه وجعلت تبوح له ببعض سرّها ، وتقول باكية انها تجد لزاماً عليها لتكون جديرة به ان تغادر القصر . اكبر الزوج وفاءها واطمأن بدياً اليه ؛ ولكن نار الغـــيرة ما لبثت ان اشتعلت في قلبه ؛ لقد اصبح نهب الاوهام ؛ وخيل اليه ان زوجتـــه تخونه وتستقبل عشيقها بعيداً عن الرقباء وتولاه الألم واستبد به اليأس ، وبادرت الزوجة تغتنم آخر لحظة من حياته لتكاشفه بالحقيقة ولتؤكد له براءتها مما تحوم حوله ظنـونه ؛ ثم يغفي الرجل اغفاءته الاخيرة . اما الآن فقد اصبح امرها في يدها ، واصبحت قادرة على ان تنعم بزواج من تحب ؛ بيد أن الدوق دي نيمور هو الذي سبب موت زوجها ، فلن تتزوجه . وقد شرحت له ذلك في حديث رائع ؛ ثم اعتزلت الناس في دير وما لبثت ان ماتت (١) . .

رضي جمهور القرّاء عن هذه القصة لقصرها قبل كل شيء : فهي دون مئتي صفحة. لقد لفظت اذواقهم القصص المطولة التي سدّد اليها بوالو ضربة قاضية في « فنّ الشعر » . تلك الاوصاف الطويلة ، تلك الحدائق والقصور والمآدب الفخمة التي يضيع فيها القارئ الى غير نهاية ، لقد انتهى عهدها . ان مدرسة ١٦٦٠ زينت للناس الطبيعة والبساطة . وانك لتبحث من غير طائل في هذه الرواية عن غرائب الاخبار او عجائب الصدف : من اختطاف او هرب او مطاردة او غرق. العفاء على معارك السلاح تُرْعَـــدُ لهولها الفرائص ، وعلى البطولات تودّع اعجوبة وتستقبل اعجوبة ! في هذه القصة بطولة ، ولكنها صامتة ، قريبة منا : بطولة هذه المرأة التي تزوجت رجلا واحبت غيره ؛ ثم أفضت بسرها لزوجها في شجاعة رائعة وبرّت به حياً وميتاً . هذه البطولة هي في رأي بعض النقاد

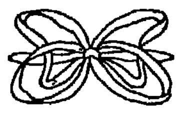
---

(١) L.T. 228—229, La princesse de Clèves : 6—7

انتقال لمثل المأساة الكورنيلية (١) الى القصة . بل ان موضوع القصة نفسه لكثير الشبه بموضوع « بوليكت » احدى مآسي ابي التراجيديا الفرنسية (٢) . ثم ان دقة التحليل في هذه القصة ، وصلابة اعواد اشخاصها واعتزازهم ، ومفهوم الحب الشريف الذي يستكين للفضيلة ويوسع لها ، كل اولئك مما تعودنا ان نراه عند كورني (٣) .

غير ان لهذه الشخصيات الى جانب صلابة ابطال كورني وشجاعتهم مسحة انسانية لطيفة لا عهد لنا بها في مسرح الشاعر الكبير : فاذا كان في اعمالهم بطولة ففي اقوالهم رقة حزينة ساحرة . ان العاطفة التي تشيع في هذا الأثر ، والبساطة وطبيعية العمل والحسرة الاليمة المتصلة : كل اولئك يذكرنا براسين (٣) .

وجملة القول ان هذه القصة ، على ما فيها من طاقة شعورية بعيدة المدى ، عريقة بالواقعية : فهي في موضوعها قطعة من حياة الكاتبة ؛ وهي في مكانها وزمانها قريبة العهد بمكان القصر الملكي الذي اتصلت به مدام دي لافاييت وزمانه ؛ وهي اخيراً بمشاعرها واحاسيسها ، وان كانت لا تتحدث عن اشخاص من اوساط الناس ، صادقة التصوير شديدة التأثير . هذا الى ان اسلوب المؤلفة في نقائه ودقته واتزانه يضارع فنها في العرض وعمقها في الغوص على حقائق النفس ، ويجعل من هذا الأثر القصير اروع قصة في القرن العظيم .



(١) نسبة الى كورني (٢) كورني (٣) L.T. 229, La princesse de Clèves 8-9

مدام دي سيفنيه

ترك لنا القرن السابع عشر ثروة ضخمة من الرسائل الحافلة بالطرائف والاخبار ، والغنية بالمشاعر والافكار ، أحكم الكتاب حبكها وجوّدوا عبارتها ، بل وصلوا بهـا حدود الكمال احياناً . ولو تحرّينـــا اسباب رواج هذا الفن وازدهــاره لوجدنا في مقدمتهـا :

١ — قلة الصحف في تلك الايام ، فمن الطبيعي ان تنوب الرسائل عنها في إرواء الناس بالطرائف والاخبار .

٢ — اهتمام الولايات بحوادث العاصمة؛ فباريس ما علمت هي قلب الحياة السياسية والفكرية ، وقصر فرساي مهوى العادات والازياء والطرف ؛ فاليهما تتوجّه الابصار والعقول .

٣ — كان الرجال والنساء ، النبلاء واوساط النـــاس ، ممن اخذوا بحظ من الثقافة والحياة الاجتماعية الراقية ، يحرصون على ان يهذبوا رسائلهم حرصهم على تهذيب افكارهم حينما تضمهم الصالات ؛ لانهم على ثقة من ان مخاطبيهم لن يقرءوها وحدهم ، وانها ستنتقل من يد الى اخرى .

٤ — انتظام مصلحة البريد في القرن السابع عشر بما يحفظ الرسائل ويؤمن سرعتها.

. . .

كانت رسائل المركيزة دي سيفنيه اشهر ما كتب في هذا الباب في عصرها ؛ وبقيت محافظة الى يومنا هذا على جمالها واهميتها (١) .

اسمها الاول ماري دي شانتال . ولدت في باريس ١٦٢٦ ، وفقدت ابويهـا وهي صغيرة . تزوجت في الثامنة عشرة من المركيز دي سيفنيه ، احد وجهاء مقاطعة «بروتانيا» ، وكان شرساً متلافاً ، ما لبث ان هلك عنها في مبارزة ، وهي في الرابعة والعشرين ، وخلّف لها بنتاً في الخامسة وصبياً في الثالثة . فانسحبت الى «الروشيه»(٢) وهي ارض في «بروتانيا» ورثتها عن زوجها . ثم ها هي ذي تعود بعد عشر سنوات الى

(١) Mme de Sévigné: Lettres choisies: P: 5

(٢) Les Rochers



مدام دي سيفنيه

باريس ١٦٦٣ . لقد عاهدت نفسها ان تعيش لولديها وألا تتزوج مرة اخرى . ولكنها لم تزهد في لذاذات الدنيا ، بل اقبلت عليها في روية واتزان . انظر اليها تخالط اشراف باريس وتتردد بين حين وآخر على القصر . انهم ليدعونها مثلاً لتشهد تمثيل تلميذات «سانسير» لرواية «استير» . لقد اخذوا بيدها الى المقاعد الثانية ، خلف الدوقات . ها هوذا الماريشال ب يشرّفها بالجلوس الى جانبها . ومع انها ليست من انصار راسين ، فقد اعجبتها هذه المأساة ايما اعجاب . فاذا انتهى العرض رأينا الماريشال يخطو نحـــو الملك ليقول له انه كان الى جانب امرأة جديرة حقاً برؤية « استير » . تقول مادام دي سيفنيه : «واقبل الملك نحوي وقال لي : انا واثق يا سيدتي من انك مسرورة ، فأجبته غير مبهوتة : مولاي ، انا مسحورة ؛ ان ما اشعر به لما يقصر دونه كلمي . فقال لي الملك : اما ان راسين لأريب . فقلت : هو من الذكاء بمكان ، بيد ان حظ هؤلاء الفتيات من الذكاء كبير ايضاً ، فهن يدخلن في الموضوع كأنهن لا يعرفن شيئاً سواه . فقال : اما هذا فحق مستو . ثم تولت جلالته وتركتني مثار الغيرة (١) »

ثم يدخل ابنها الجيش ، وتتزوج ابنتها من الكولت دي جرينيان (٢) ١٦٦٩ ، فيذهب بها الي الجنوب من فرنسا ، الى « البروفانس » . لقد كان فراق هذه الفتاة المدللة شديد الوقع على الام ، بل كان اظهر حادث في حياتها ، واليه يرجع الفضل في اثارة عاطفتها ودفعها الى الكتابة . اصبحت حياتها آلاماً بعاد طويل يتخلله فترات لقـاء قصيرة يجرح فيها شعور الوالدة : ذلك بان الفتاة كانت جافة فاترة متحفظة بقـــدر ما كانت الام ودوداً طلقة مستأنسة . لم يكن بين الاثنتين ذلك التفاهم الذي نراه بين الام وابنتها . فكان بعادان : الاول مادي يفصل بين جسديهما ، والآخر معنـوي يفصل بين روحيهما . اقرأ رسائل مدام دي‌سيفنيه فستدهش مما تجد فيها من فيض العـــاطفة والحنان ، ومن نبضات الحرقة والالم . أزح الكلم عن مواضعه قليلاً تتبين اي قلب لهيف يخفق بالحب ويألم بالشكوى وراءه . على ان حنان الوالدة يأبى عليها ان تقـابل العقوق بمثله ، فهي تصانع ابنتها وتعنى بشئونها وتمدها بالمعونة المادية والمعنوية ما وسعها الحال . وفي عام ١٦٩٦ كانت مدام دي‌سيفنيه تقوم بزيارة لابنتها فادركتها المنيـــة هناك عن سبعين عاماً (١) .

«١» L.T. 229-230, L.F.U. 296 «٢» De Grignan

صفات مدام دي سيفنيه : — تركت لنا الادبة الكبيرة مدام دي لافاييت صورة طريفة عن صديقتها مدام دي سيفنيه، تبرز فيها صفاتها المعنوية والمادية، وتبدو لنا فيها حية مرحة تشتعل ذكاء وحركة : «انت تواقة الى المجد والرفعة، مفتـــونة بمباهج الحياة ومسرّاتها . فكأنك خلقت لهـا وخلقت لك . وجودك يزيد السرور، والسرور يزيد جمالك . فالمرح طبعك الأصيل، والكآبة أعدى لك منها لأي انسان آخر . فاعلمي اذن، ان كنت لا تعلمين، ان ذهنك يجمّل شخصك، وان ليس على الارض من تضاهي جمالك حينما تنشطين في حديث تجري فيه الأمور على أذلالها (١) . لكل ما تفوهين به من الوضاءة والانسجام ما تتهلّل له الوجوه حولك؛ وان عقلك اللامع ليُضفي على وجهك وعينيك من النضرة ما يبهر العيون، وان ُظنّ ان العقل لا يؤثر الا في الآذان، فاذا أصغوا اليك لم يلحظوا من نقص ابداً وسلّموا لك باكمل ما في العالم من جمال (٢) . »

وتمضي الايام، وتتغير الاحوال؛ فبينما كانت مدام دي سيفنيه ذات يوم تلهو برسائل قديمة عثرت بهذه الصورة الطريفة، فكتبت الى ابنتها : « ان هذه الصورة تفوق الاصل، بيد ان الذين احبّوني لست عشرة سنة خلت قد يجدونها شبيهة بي . » هذه الكآبة الحديثة العهد التي جعلت مع الايام تظلّل صورتها المشرقة وتنفحها بمعـــاني التأمل ترينا كيف اخذ ذلك الشبه يزول يوماً بعد يوم . كانت في الثانية والثلاثين حين أثبتت لها هذه الصورة . وعلى انها حافظت طول حياتها على مرحها وظرفها الغريزيين، فقد لحظ النقاد من رسائلها ان التأمل العميق اخذ يمازج شعور الغبطة في نفسها ٣ .

واحبّت مدام دي سيفنيه الطبيعة، فسجلت بذلك رسائلها لحناً طريفاً في الأدب الاتباعي . بيد انها لم تمزج بذلك حباً ولا شعوراً، كما يفعل ادباء الابتداعيين، بل جعلت منه لذة حسية، لذة للسمع والبصر (٤) .

وكلفت بالقراءة، حتى لتملك مشاعرها القصص فتتابع حوادثها بشوق ولهف . ان كورني ليثملها، وان موليير ليفتنها . اما راسين فلم تكن تميل اليه كل الميل،

---

(١) في مجاريها الطبيعية

(٢) Mme de Sévigné, Lettres choisies 99 ' L. F. U. 296

(٣) L. F. U. 295 (٤) L. T. 232-233

وربما قرأته في فتور : لعل ذلك لانها لم تكن في اعماق نفسها من ذوات المزاج العاطفي ، بل كانت اقرب الى العقليين . وفي الحق ان رواد الصالات على العموم هم ، كما ذكرنا في بحثنا عن الحياة الاجتماعية ، أفهم للافكار منهم لجمال الشعر [١] .

غير ان ابرز خصائصها هو الخيال ، فالذي يجعل من رسائلها شيئاً فريداً هو الخيال القادر الذي يرى الاشياء في يسر ، ثم موهبة التحدث عنها وتمثيلها من غير كلفة . ان سلطان الخيال ليبدو لنا في كثير من الرسائل ، بل انه ليبدو لنا حتى في حنانها الاموي. فقد علمت ان الأم كانت على طرف نقيض في المزاج مع ابنتها ، وان التفاهم لم يكن بينهما ؛ بيد أن للبعد اكبر تأثير ، فهو الذي يوسع المجال للمخيلة ان تحيط الفتاة بهالة من الرعاية والعطف ، وهو الذي يدفع الوالدة ان تمثل لابنتها صورة اكمل من الحقيقة ، وان تعشق ذلك المعبود النائي الذي لم تكن لتأنس اليه عن قرب .

وجملة القول ان المترجمة فنانة راسخة القدم . ان مشاعرها لتتجمل بتأثير الخيال وتستعيض ما قد يكون فيها من نقص . ومن هنا ينشأ ما نراه عندها من موهبة نادرة في استنباط كل مافي الفكرة المجردة من روعة وتأثير . اقــرأ تلك الصفحة الرائعة التي كتبتها عن موت « لوفوا » : فستجد ان عاطفة المؤلفة ما هي بالحنان المتدفق ولا بالحسرة اللاهبة ؛ انما هي ذلك الانقباض الذي نحس به حين نتبيَّن من خلال الحقيقة الحية تلك الحقائقَ الخالدة التي َترعَش لها الفكر وُترعَد لها الأوصال . ان هذه الميتة لتمثل لها الموت بمطلق بمعانيه [١] !

ودلفت الكاتبة الى الشيخوخة ، وأصبحت أذكرَ للموت وأشد فرقاً منه ؛ فمن كتاب ارسلته الى ابنتها عام ١٦٧٢ : « تسألينني اذا كنت لا أزال متعلقة بالحياة . فاعترف باني أجد فيها احزاناً كاوية . غير اني اكثر كراهية للموت . اجدني كل ناعسة من أن عليّ ان اختم حياتي به ؛ فما ارتجي اكثر من ان اعود شيئاً الى الوراء . لقد وضعت في قارب الحياة من غير موافقتي ؛ ويجب ان اخرج منه بغير رغبتي ؛ ان هذا ليهمني ويغمني ، وكيف الخروج ؟ اغوص في لجج هذه الافكار وأجد الموت من الرهبة بحيث أبغض الحياة لان مؤداها اليه اكثر مما ابغضها لما يعترض طريقي فيها من اشواك [٢] . »

فلما مرضت آخر مرضها واحست بدنو الاجل ، وجدت في الدين ملاذاً وعزاء ؛

---

(١) L.T. 232—233 (٢) L.F.U. 299

وقـــد شهد صبرها ساعاتها الاخيرة ، فكتب الى احد اصدقائه يقول : « لقد تمثلت الموت ، منذ الايام الاولى من مرضها ، في ثبات وتسليم عجيبين . هذه المرأة على بالغ ضعفها ورقتها لكل ما أحبت ، لم تجد غير شجاعـــة ودين حينما ايقنت ألاّ محيص من التفكير في الموت[1] . »

رسائلها : — لم تكتب مدام دي سيفنيه قبل زواج ابنتها إلا قليلا . فلما تزوجت ورحلت الى ذلك البلد النائي تغير الحال . لقد اصبحت الكتابة ضرورة لازمة تدفع بها الأم عن نفسها السأم وتتقرب ما امكن من الغائبة العزيزة وتلتمس لها السلو في غربتها ، بما تطرفها به من اخبار وافكار وهذر تمتع صبّت فيه حيويتها ومرحها وأخرجته اشكالاً وألوانا . هذه الرسائل هي اولاً قصة نفس ؛ تبرز فيها شخصية الكاتبة بسماحتها وظرفها ، بعقلها الوزين وعاطفتها المتوقدة ، بافراحها وآلامها وتأملاتها . وهي ثانياً قصة مجتمع ، تسمع فيها أصداء الحوادث الكبيرة والصغيرة التي عرفتها فرنسا ما بين عامي ١٦٥٥ — ١٦٨٦ . ترى الكاتبة تجمع في رسالة واحدة طائفة من المواضيع حيناً : فمن نزهة خلوية ، الى طرائف العاصمة ، الى حوادث القصر ، الى فكرة اوحى بها كتاب ، الى عاطفـــة اثارتها قصة . وتراها حيناً آخر تشغل حديثها بموضوع واحد يحتل من نفسها مقاماً يصرفها عن صغيرات الامور التي كثيراً ما حرصت على ذكرها .

أعظمْ بهذا السيل الزاخر بالحوادث والمشاعر والملاحظات والافكار : هـا هي ذي محاكمة « فوكيه[2] » ، وزير المال الذي عرفنا ودّ الشعراء ورجال الفن اياه وخاصة ما بينه وبينهم ، ولكنه اثار نقمة الملك عليه بما أهدر من حقـوق وبدّد من اموال ؛ فالكاتبة تعرض عليك في رسائلها تباعاً دقائق المحاكمة ، فلا تغادر سؤالاً طريفاً ولا جوابا مفحما ولا تصويراً للمتهم او رجال القانون إلا عرضته عليك . وتشبّ النار فتلتهم جانباً من منزل فيكون ذلك موضوع رسالة طويلة لا تكتم فيها السيدة عواطفها . ان باريس اليـوم في هرج ومرج بسبب امرأة مجرمة ضُربت عنقها واحرقت جزاء ما جنت يداها : اقرأ تلك الرسالة التي وصفت بها الكاتبة ذلك تعلم ما تحس به امرأة ذكية طلعة وما يوحي اليها من فكر منظرُ الاعدام الرهيب . وحوادث الجبهة لا تغفل عنها الكاتبة ، فمن اجتيـــاز الحدود رسالة ، وعن مقتل القائد الباسل « تورن[3] » اخرى . . . ما من عمل مجيـد

---

(١) L.F.U. 299 (٢) Fauquet (٣) Turenne

إلا صورته ونوّهت به . ثم ماذا ؟ رسالة تضمّنها نظراتها في الحياة ، او تعرض فيها تأثرها بجمال الطبيعة « انتصار شهر مايس » « افراح الحصاد » « كآبة الاشجار » « تفتّح البراعم البهيج .

ثم اخبار القصر : من زواج اميرة ، الى حفلة تمثيلية ، الى انتحار طاه شريف... اما حديث ابنتها ، وما تبثه اياها من حب وشوق ولوعة فهو الموضوع الذي لا تنساه : وكيف تنساه وكل شيء يذكرها بفتاتها ويجري من عبراتها ؟ حفلات الرقص ، الحدائق النضرة ، اثاث البيت . . . كل شيء يهيج الذكرى ويحزن الفؤاد !

والجدير بالذكر ، الأمر الذي يسمو بهذه الرسائل كل السموّ : أن كل حادث ، بهيجاً كان ام عابساً ، خطيراً كان ام تافهاً هو معرض ملاحظات دقيقة وآراء جديدة للكاتبة ، بيد أنها لا تميل الى الاسهاب ، وتحرص على ألا تتعالم او تتفاصح . فكم مرة وقفت رواية ذلك الحادث الأسيف ، موت « تورين » لتتفكر في دور القدرة الآلهية العليّة وفي سامي حكمتها . ولكنها تسوق آراءها في ذكاء وذوق واقتضاب(١) .

اسلوبها : — لم تقصد مدام دي سيفنيه من رسائلها هذه الى النشر ، وبحسبك ان تعلم انها لم تجمع في كتاب لتذاع على الملأ الا بعد ثلاثين عاماً من وفاتها (٢) . وتصرح المركيزة الادبية انها لم تكن تتكلف القول ، بل « كانت ترسل الريشة وحبلها على غاربها » ومع ذلك فما أقل ما نجد بين رسائلها ما ينبعث عفو الخاطر من غير تهذيب وطول تنقيب . ذلك بأنها كانت على علم من ان الناس كانوا يتبادلون فيما بينهم هذه الرسائل ، ويعبّرون عن اعجابهم بها . فكانت تحرص ، حتى فيما تبعث به الى ابنتها ، على ألا تطلق القول على عواهنه ، وعلى ان توسع المجال لما تأنس في نفسها من مواهب : من حرارة وحلاوة طبع وسهولة وتوقّد مخيلة . ان تعبيرها ليبدو في بعض الاحيان كثير البهرج واللمعان ، فذلك من آثار الأناقة المتكلفة التي مال سوقها الى كساد ، بعد ان راج ردحاً من الزمن عند ادباء الصالات . على ان هذا طبيعي عند امرأة مثل مدام دي سيفنيه ، اتصلت كثيراً بطبقة المتأنقين وتوثقت بينها وبين بعضهم صداقات ؛ ولكن الذي يدعو الى العجب والاعجاب هو ضآلة هذه المواضع في كتابتها ، وأنها على العموم تجنح الى اسلوب مباشر متزن بسيط ، او بتعبير أوجز : الى اسلوب طبيعي . كانت تكتب الى ابنتها أن « لا تبتعدي ابداً

---

(١) استعنا في البحث عن « رسائلها » بالمصادر التالية : Lettres choisies: 7—8 L.F.U. 298, L.T. 231

(٢) L.T. 231

عن الطبيعة يكن اسلوبك كاملا . » والحق ان مدام دي سيفنيه مثال رائع ضنب المثال في السلاسة والجري مع الطبع . ترى أكان « لا برويار » يفكر فيها حينما فضل النساء في ادب الرسائل على الرجال ؟ (١)

مختارات من الرسائل

[١] الى الكونت دي ب ، ر ،

٢٥ تشرين الثاني ١٦٥٥

تشاجر الامير « داركور » مع « لافوياد » اول امس عند « جنتان » . قال الأمير ان الفارس دي جرامون قد ملأ جيبه مالاً ، وأشهدَ على ذلك « لافوياد » الذي قال ان ذلك لم يكن ابداً ، وان الرجل لم يكن معه قرش واحد . « — اقول لك بلى — اقول كلا — اسكت ، لافوياد — لستُ بفاعل (٢) » على اثر ذلك رماه الأمير رأسه بصحن ، فرماه الآخر بسكين . بيد أنهما لم يصيبا بعضها بعضاً ؛ ثم حجز الناس بينهما ، وحملوهما على المعانقة . عند المساء التقيا في « اللوفر » ، وتحدثا ، كأن شيئاً بينهما لم يكن . اذا كنت رأيت ذات يوم ما يصنع الطلبة في عطلتهم ، فستجد بين ذلك وهذه المشاجرة شبهاً قوياً (٣)

• • •

[٢] محاكمة وزير المال فوكيه

الى السيد دي پومپون

١٧ تشرين الثاني ١٦٦٤

هذا النهار ، الاثنين ١٧ تشرين الثاني ، ظهر السيد فوكيه للمرة الثانية على كرسي الاتهام . جلس من غير كلفة ، كتلك المرّة . ابتدأ القاضي بان طلب منه ان يرفع يده ، فاجاب بانه ذكر قبلا الاسباب التي تمنعه من ان يحلف اليمين ، وانه لا حاجة للتكرار . على اثر ذلك اخذ القاضي يلقي خطابا مطولاً ليبين شرعية المحكمة ، وان الملك هو الذي

---

(١) L.T. 233—234 (٢) لاحظ شدّة الحوار بين الرجلين (٣) Lettres choisies 9

أقامها ، وان البرلمان قد اقرّ لجانها . فأجاب السيد فوكيه بان الأمور تجري غالباً بالقوة وانهم لو فكروا لما وجدوا الحق في جانبهم : فقاطعه القاضي : « عجباً ! فأنت تدعي اذن بان الملك يسيء استعمال سلطته ؟ » فأجاب السيد فوكيه : « انما تقول انت ذلك ، لا انا ، يا سيدي ! ليس ذلك ما ارمى اليه ، واني لأعجب من انك تريدني ، وانا على هذه الحال، ان يكون لي شأن مع الملك . غير انك يا سيدي تعرف جيداً ان الانسان عرضة للخطأ . فلما وقّعتم قراركم ظننتموه عدلاً ؛ وفي اليوم الثاني مزقتموه : فانتم ترون ان الانسان قد يغير رأيه . قال القاضي : — ولكنك تجيب المحكمة وتقدم اليها بيّناتك ، وهأنذا على كرسي الاتهام . فأجاب : — حقاً يا سيدي اني على هذا الكرسي ، لكنني عليه بغير ارادتي . هم قادوني اليه ؛ هنالك سلطة لا معدى لنا من الاذعان لها ، وانها لمحنة ابتلاني الله بها فتلقيتها منه بالرضى . لعله كان بالامكان ان يعفوني منها ، بعد الخدمات التي اديتها ، والمهمات التي كان لي شرف الاضطلاع بها . » ثم تابع القاضي استجوابه عن جراية ضريبة الملح (١) ، فأحسن السيد فوكيه جوابه ايما احسان . ستستمر الاسئلة ، وسأخبرك بها في امانة على الدوام . غير اني اريد ان اتأكد من وصول رسائلي اليك .

السيدة اختك التي دخلت دير الاخوات في الضاحية وقّعت تعهدها . انها ترى الجماعة هذه الساعة وتبدو جدّ مسرورة . والسيدة والدتك يظهر انها غير غاضبة عليها .

لا شك انك تعلم بهزيمتنا في « جيجري » ، وبما ان الذين ادلوا بنصائحهم يريدون ان يعزوا الخطأ الى الذين أمضوها : فهم (٢) يرغبون ان تجري الدعوى في « جاداني » ليحسنوا الدفاع عن انفسهم . هنالك نفر يريدون ان يطوّحوا برأسه ، بيد ان الجمهور كله مقتنع بان ليس في امكانه ان يفعل غير ذلك .

يتحدثون هنا كثيراً عن السيد « آليت » الذي حرم (٣) الموظفين الصغار حول الملك لأنهم ارادوا ان يكرهوا الاكليروس على التوقيع . هذاما سيفسد بينه وبين ابيك كما سيوثق صلته بالاب « أنّا » (٤) .

الوداع ؛ احس بشهوة الكلام تتملكني ، ولا اريد ان استسلم اليها : يجب ان يكون

---

(١) اتهم الوزير بتسليم منحة قدرها (١٢٠) الف ليرة من هذه الضريبة .

(٢) تريد الوزير كولبير واعوانه ، وهم اعداء الوزير السجين . (٣) حرماناً دينياً .

(٤) المعنى هنا يراد به التهكم .

اسلوب الرسائل قصيراً (١) .

* * *

[٣] الى السيد دي بومبونه

الاثنين ١ كانون الاول ١٦٦٤

منذ يومين مال الناس الى الاعتقاد بان القضاة يريدون ان يطيلوا امر السيد فوكيه؛ اما اليوم فقد تبدل الحال ، وصار الى النقيض : فهم يستعجلون الاستجواب كثيراً . هذا الصباح ، اخذ القاضي ورقته ، وتلا قائمة بعشر تهم رئيسية لم ينتظر عليها اجابة . فقال السيد فوكيه : « انا لا ارغب ابداً يا سيدي ان يطول امد هذه الامور ؛ غير اني اتوسل اليك ان تتيح لي فرصة الاجابة . انت تسألني ، ويبدو انك لا تريد جواباً مني . يجب ان اتكلم . هناك عدة امور يجب ان اوضحها ، ومن العدل ان اجيب على كل مايتعلق بقضيتي . » فلم يجد سيئو النية بداً من ان يسمحوا له بالقول ؛ من المؤكد انهم كانوا لا يحتملون ان يحسن الدفاع عن نفسه . لقد احسن الاجابة كل الاحسان عن التهم العشر جميعاً . سيتابعون العمل ، وستسير الامور في سرعة ، حتى انني اعتقد ان الاستجواب لا بد منته هذا الاسبوع .

تناولت العشاء في قصر (نيفير) ، وقد اشبعنا الحديث، سيدة القصر وانا ، عن هذا الفصل . انا لنخشى الا يتهيأ فهمنا لغيرك ، اذ ان اسرة الوزير التاعس يسودها الامل والهدوء . أشيع ان السيد نيموند (٢) كشف وهو يعاني سكرات الموت عن أن اسوأ ما يسوءه هو انه لم ينحز الى رأي القاضيين في فسخ الاتهام ؛ وقال انه لو كان في آخر المحاكمة لأصلح الخطأ ، وانه كان يرجو الله سبحانه ان يغفر له ذنبه الذي اقترفه ...

يجب ان اطرفك بقصة صغيرة صحيحة مسلية . لقد اخذ الملك لعهد قريب يعنى بقرض الشعر ، فالسيدان س. د. يعلمانه ما يجب ان يفعل . منذ ايام أنشأ مقطعة صغيرة لم يستسغها هو نفسه . وذات صباح قال للماريشال « جرامونت » : « سيدي الماريشال ، ارجوك ان تقرأ هذه القطعة الصغيرة ، وانظر هل رأيت يوماً اردأ منها . انهم يعلمون باني لعهد قريب اميل الى الشعر ، فهم يأتونني بمختلف انواعه . » قرأها الماريشال وقال للملك :

---

(١) Lettres choisies 11—12   (٢) احد القضاة

« مولاي ، جلالتك تحكم على الاشياء كلها حكماً مسدَّداً رائعاً : حقاً ان هذه أغث وأسخف ابيات قرأتها في حياتي . » جعل الملك يضحك وقال : « أليس حقاً ان الذي نظمها مدّع مغرور ؟ — مولاي لا سبيل الى منحه اسماً آخر . — حسن ! انا سعيد من انك حدثتني باخلاص ؛ انا الذي نظمتها . — آه يا مولاي ، يا للخدعة ! لتُمدّها جلالتك عليّ فقد قرأتها بغير روية . — كلا ، يا سيدي الماريشال : الشعور الاول هو الطبيعي دائماً ». لشدّ ما ضحك الملك لهذه الحماقة ؛ وقد وجد الناس انفسهم امام اقسى نكتة يمكن ان توجّه الى شيخ من رجال القصر . اما انا التي احب دائماً ان افكر في الامور ، فكنت اودّ لو ان الملك فكر كذلك ، وتبيّن من هنا كم هو بعيد عن معرفة الحقيقة (١) .

* * *

[٤] زواج دي لوزون

الى السيد دي كولانج

في باريس ، هذه الجمعة ١٥ كانون الاول ١٦٧٠

اريد ان اخبرك بأعجب الاشياء وابعثها على الدهشة وأحفلها بالغرابة والاعجاز .. اندرها وأشيعها ، أشهرها وأخفاها حتى اليوم . . . واخيراً بحادث لم تعرف القرون الماضية له غير مثيل واحد ، وان لم يكن الشبه بينهما كاملا ، بشيء لا يستطيعون ان يصدقوه في باريس « فكيف يصدقونه في ليون » شيء رفع اصوات الناس كلهم بطلب الرحمة ، شيء غمر بالفرح السيدة دي روهان والسيدة دوتريف ؛ بشيء اخيراً سيكون يوم الاحد ، حيث يعتقد الذين سيشهدونه أن ستعشى ابصارهم . . . لا استطيع ان احمل نفسي على ذكره ؛ إحزرْه . أتراك غير راغب في الحزر ؟ حسن ! يجب اذن ان اقوله لك : ان السيد دي لوزون سيتزوج يوم الأحد في اللوفر ، إحزرْ من ؟ . . . ستقول السيدة دي كولانج : هذا امر يصعب حزره ؛ لعلها السيدة لافاليار ؟ — كلا ، يا سيدتي — فلعلها الآنسة دي رتز ؟ — ابداً ، انت خرقاء . — ستقولين . نحن حقاً بهائم ، فلعلها الآنسة كولبير ؟ — اقل منها . — فهي بالتأ كيد الآنسة كريكي . — لم تعرفي . يجب

---

(١) Lettres choisies 16—18

ان اذكرها اخيراً لك : سيتزوج يوم الاحد ، في اللوفر ، وباذن من الملك ، الآنسة ... الآنسة دي . . . احزري الاسم : سيتزوج الآنسة . . . ! الآنسة الكبيرة ، الآنسة حفيدة هنري الرابع ، وابنة عم الملك، الآنسة التي خُلقت للعرش. . . هذا موضوع حديث جيد . اذا صحتِ ، اذا خرجت عن طورك ، اذا قلت : انت تكذبين ، ان هذا غير صحيح . انت تسخرين منا ، هذه اضحوكة جميلة ، ان تصوّر هذا من التفاهة بمكان ؛ اذا قذفتنا اخيراً بسبّة : فسنجد الحق في جانبك ؛ فقد فعلنا قبل مثلما فعلت .

الوداع . الرسائل التي يحملها هذا البريد ستريك اذا كنا نقول الحقيقة أم لا (١).

• • •

[٥] الى السيدة دي جرنيان

في باريس ، هذا الاحد ٢٦ نيسان ١٦٧١

(في اليوم الثالث والعشرين من نيسان ١٦٧١ استقبل الأمير كوندي الملك في قصر شانتيللي .)

. . . وصل الملك مساء الخميس ؛ الصيد ، المصابيح ، ضوء القمر ، النزهـة ، الاكلات الخفيفة على بساط العشب ، كل اولئك كان على ما يرام .

تناولوا العشاء . كان الشواء ينقص بعض الموائد ، اذ زاد عدد الضيفان على غير انتظار . فحزّ ذلك في نفس « فاتيل (٢) » وجعل يردد « فقدتُ شرفي ، هذا عار لن اقوى على احتماله . » وقال للوكيل « جورفيل » : « ان رأسي يدور . مضى اثنا عشر يوما عليّ وانا رهين الارق . أعنّي على اعطاء الاوامر . » فكان « جورفيل » يهوّن عليه الأمر بما يستطيع . بيد أن هذا الشواء الذي لم تخل منه مائدة الملك وخلت منه المائدتان الخامستان والعشرون لم يكن يفارق خياله . اما الأمير فقد دخل غرفة طاهيه وقال له : « اي فاتيل ، كل شيء يسير جيداً ، لا شيء يضارع ذلك الاتقان في عشاء الملك . » فاجاب الرجل : « ان كرم طبعك يا مولاي ليُخجلني . أعلمُ ان الشواء صفرت منه مائدتان . » فقال الأمير : « لا شيء من ذلك ، لا تحزن ابداً . كل شيء على مايرام . »

---

(١) 26 — 25 بتصرّف (٢) رئيس الطهاة

جاء الليل . أخفقت النيران الاصطناعية ، وأحاط بها سحاب ، مع انها كلفت ستة عشر الفاً من الفرنكات . وفي الساعة الرابعة صباحاً طاف فاتيل جميع الامكنة فوجد القوم مستسلمين الى الرقاد ؛ ثم صادف مموّناً صغيراً ليس معه غير حملتي سمك . فسأله : هذا كله ؟ اجاب : نعم سيدي . لم يكن الغلام على علم بان فاتيل ارسل يطلب مثل ذلك من جميع الموانئ . انتظر كبير الطهاة بعض الوقت ، غير ان باقي المموّنين لم يأتوا . ان راسه ليحمي ، اذ خيّل اليه ان لن يأتي سمك ابداً . فلما وجد « جورفيل » قال له : لن اعيش يا سيدي قط بعد هذه الفضيحة . شرفي وسمعتي معرّضان للضياع .

جعل جورفيل يسخر منه . ان فاتيل ليصعد الى غرفته ويضع خنجره تلقاء الباب، م يمرّ به ناحية القلب ؛ بيد أنه لم يلفظ انفاسه الا عند الضربة الثالثة . وذاك انه صوّب الى نفسه قبلها ضربتين لم تكونا قاضيتين . ومع ذلك فقد جيء بالسمك من كل صوب ؛ وبحث القوم عن فاتيل ليوزّعه ، واقبلوا على غرفته؛ وضربوا الباب وكسروه ، فوجدوا الرجل مضرّجاً بدمائه (١) .

• • •

[٦] الى السيدة دي جرنيان

في « الروشيه » ١٣ تشرين الثاني ١٦٧٥

اما انك لتعجبين من اني اقتنيت كلباً صغيراً ؛ فاليك تفصيل هذا الحادث : كنت لا أفتأ انادي كلبة صيد لسيدة تسكن في طرف البستان . فقالت مـــدام دي تارانت : واعجبا ! فأنت تعلمين كيف تستدعي الكلاب ؟ اريد ان ابعث اليك باجمـــل كلب في العالم . شكرتها ، وأعلمتها على ما كانت عزيمتي قد صحّت عليه من تجنب امثال هـــذه الروابط . ثم يمرّ ذلك من غير ان يفكر احد فيه . . . بعد يومين رأيت خادماً يدخل حاملا بيتاً صغيراً تزينه الشرائط الملوّنة . ثم خرج من هذا البيت الجميل كليب معطر ذو جمال فريد . له اذنان حريريتان وتنفّس لطيف كملاك الأثير وشقرة كشقرة الانسان . ابداً لم أدهش كما دهشت حينئذ . كنت اريد ان اردّه ، فأبوا ان يحملوه ؛ فعُنيتْ به خادم عندي ، اذ خيّل اليها انها لا بدّ مشرفة على الموت ألماً عليه . ماري هي التي أحبتـه

---

(١) المصدر السابق 40—38

اذن ، فنام في دارها ، في غرفة بوليو . انه لا يأكل غير الخبز . لم اشأ ان أتعلّق به ، بيد أنه بدأ يحبني ، فانا اخشى ان أُغلب أخيراً على أمري . تلك هي الحكاية ، وارجوك الا تخبري بها كلبتي « مارفيز » في باريس ، لأنني اخاف اللوم : واخيراً ، هناك خاصة غريبة في هذا الكلب : انه يدعى وفاء (١) .

• • •

[٧] الربيع في (الروشيه)

الى السيدة دي جرنيان

من « الروشيه » يوم الاربعاء ١٩ نيسان ١٦٩٠

أعود اليك مرة اخرى يا عزيزتي لأبيّن لك وجوب الاعتماد عليّ اذا كنت حريصة على ان تعلمي بالتفصيل ماهو الربيع . انا نفسي لم اكن اعرف منه غير الظاهر ، بيد أني هذه السنة سموت في التحري عنه الى بداياته الصغيرة الاولى . ماذا عساك تفكرين ان يكون لون الاشجار منذ ثمانية ايام ؟ أجيبي . ستقولين : « أخضر . » كلا ابداً ، بل أحمر . انها براعم صغيرة على وشك ان تتفتح ، بلون احمر قانٍ ؛ ثم تنمو وريقات خضراء ؛ واذ كان ذلك متفاوت الزمان ، نشأ عنه خليط فاتن الجمال من أخضر واحمر . ألقينا على ذلك نظرات ملؤها العطف ، وتراهنّا على مبالغ ضخمة ، ولكن من غير ان نفكر في الدفع : ففريق منا زعم ان طرف هذا المشى سيكون أخضر في ساعتين ، وفريق اعترض ، فكان الرهان . الحق ان لاشجار « الشارم » طبيعة تختلف عن طبيعة الزان . وجملة القول اني اعرف الآن عن هذا كل ما يمكن ان يُعرف (٢) .

• • •

[٨] الى السيدة دي جرنيان

من باريس ، الاربعاء ١٣ كانون الثاني ١٦٧٢

لك الله ، يا عزيزتي ، مادا تقولين ؟ اي مزاح تظهرين حينما تتحدثين بالسوء عن

(١) Textes choisis et illustrés : 95 (٢) Chevaillier 289—290

نفسك وعن ذكائك ، ولتضمين من سلوكك ، وتجديثني جد كريمة اتفكيري فيك ؟ لقد أمضتّني هذا وآذاني ، وان كنت موقنة انك لا تعنين ما تقولين . ومع انه قــد لا يجب عليّ ان اردّ على اشياء لم تقوليها الا هازلة ، فانني لا استطيع ان امتنــع عن زجرك قبل ان أطلعك على مالديّ من انباء . انت ظريفة كذلك عندما تذكرين خوفك من الاذكياء . وا اسفاه ! لو عرفت يا عزيزتي انهم صغار من قرب ، وانهم جــدّ مضطر بين حائرين احياناً ، اذن لوضعتهم في الحال في مكانهم المناسب . أتتذكرين كم كنت احياناً تبرمين بهم ؟ حذار ان يجسّم البعدُ لك الاشياء : هذا امر معتاد .

نتناول عشاءنا كل ليلة مع السيدة سكارّون (1) . ان لهـــا لذكاء بارعاً مستقيماً : وانها للذة كبيرة ان يصغي اليها الانسان وهي تبدي رأيها في الاضطرابات الهائـــلة التي تجري في مكان ما (2) وهي على معرفة وثيقة به . . .

لكن أصغي الى سماحة المليك ، والى لذة القيام في خدمة سيد محبوب مثله . لقد وجّه في طلب الماريشال « دي بيلفون (3) » الى ديوانه وقال له : « سيدي الماريشــال ، اريد ان اعلم السبب الذي يدعوك لتركي . أهو الزهد في الدنيا والرغبـــة في العزلة ؟ أهي الديون تثقل كاهلك ؟ ان كانت الاخيرة فانا اريد ان أصدر امراً وان اتدخّل في تفصيل امورك . » تأثر الماريشال كثيراً بهذا الطيب وقال : مولاي ، انها ديوني ؛ انا مشرف على الخراب ؛ لا استطيع ان ارى بعض الاصدقاء الذين مدّوا اليّ يد المعونة يتألمون وانا عاجز عن ارضائهم . » فقال الملك : « حسن ! يجب ان تؤكد لهم اننا سنردّ اليهم ديونهم . أمنحك مئة الف فرنك عن دارك في فرساي » . . . و . . . » والحق ان من قساوة القلب ألاّ يطيع المرء سيداً يعنى بشئون احد اعوانه بمثل هذه الاريحيّة : لذلك لم يقاوم الماريشال ؛ وها هو ذا قد عاد الى مكانــه مغموراً بانعام المليك . هذه الدقائق كلها موثوقة . . .

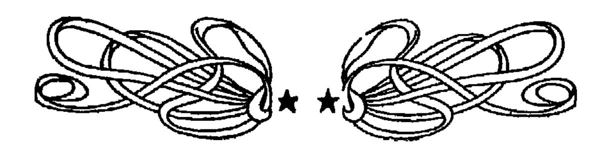
الّف راسين تمثيلية اسمهـــا « بيــازيد » وفّق فيها كل التوفيق . حقاً انهـــا لا تقلّ عن الاخريات . يقول السيد « دي تالار (4) » انهــا تفوق تمثيليات كورني

---

(1) هي ارملة الشاعر سكارّون ، وقد تزوجها لويس الرابع عشر بعدئذ سراً (2) تريد قصر فرساي (3) De Bellefonds (4) M. de Tallard : ماريشال فرنسا واحد وزرائها

بنسبة ما يتفوّق كورني على « بويه (١) » : هذا ما ندعوه بحسن الثناء . . .

لقد كنت في « ليفري (٢) » . كم فكرت يا عزيزتي فيك تفكير الحنان ! وا اسفاه ! كان الوقت رائعاً على شدّة ما كان الطقس بارداً ؛ بيد ان الشمس كانت لماعة ؛ وكانت الاشجار جميعها مزدانة باللآلئ وقطع البلاور : هذا الاختلاف لا يخلو من مسرّة . لقد خرجت في نزهات كثيرة (٣) .



(١) Boyer وهو احد كتاب المآسي الذين سخر منهم « بوالو »

(٢) Livry (٣) Lettres choisies 51—52

بوسويه

ولد «جاك بينين بوسويه (١)» في مدينة «ديجون» (٢) عام ١٦٢٧ من اسرة عرفت بمجدها وتقواها ، وكان بعض افرادها يتولون القضاء . وبعد دراسة محكمة في ديجون ثم في باريس ، ذهب الى (متز) ليشغل منصباً دينياً وليبدأ سلسلة مواعظه . فلما بلغ الثانية والثلاثين استدعي الى باريس ١٦٥٩ ، حيث تابع الارشاد عشر سنين ، كان خلالها يزور القصر ليلقي مواعظه او ليؤبّن بعض افراد الاسرة المالكة . وفي عام ١٦٧٠ عيّن مطراناً ، ولكن لويس الرابع عشر ما لبث ان اختاره مربيا لولي عهده . وعرف الرجل خطر المهمة فنذر نفسه لها واكبّ في جدّ عجيب على تهذيب هذا الطفل الذي سيئول اليه الحكم ذات يوم وعلى تثقيفه ؛ والّف من اجله كتبا كثيرة منها : مقالة في معرفة الله والذات ، خطاب في التاريخ العام ، السياسة على نهج الكتاب المقدّس . ومن اسف ان كسل التلميذ وضعف ملكاته أحبطا هذا الجهد العظيم ؛ ولكن بوسويه كان قد وثّق في هذه المدة الطويلة علمه ووسّع آفاقه . وفي عام ١٦٨١ فرغ من عمله التربوي فعين مطرانا لبلدة (مو) (٣) . في آخر هذا العام شهدت فرنسا مؤتمراً عقده رجال الدين ، وكان بوسويه ، بما اوتي من بلاغة وسعة معرفة هو الرئيس الحقيقي لهذا المؤتمر . لقد اصبح الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية شاغله الاول منذ ذلك الحين (٤) .

ان عمل بوسويه لمن الاهمية والفخامة بمكان: فمنه جانب جدليّ نافح فيه عن الكاثوليكية امام البروتستانية والفرق الأخرى الذين خيّل اليه انهم يفسرون العقائد على غير وجهها الصحيح . واهم ما الف في هذا الموضوع : « تاريخ الاختلافات في الكنائس البروتستانية (٥) » ، وفيه يؤكد ان الكاثوليكية وحدها هي التي تملك الحقيقة ، لأنها وحدها هي التي علّمت الناس عقيدة ثابتة على مرّ الزمان . لقد كشف

---

(١) Jacques-Bénigne Bossuet (٢) Dijon (٣) Meaux

(٤) L. T.: 305

(٥) Histoire des variations des Eglises protestantes



بوسويه

بوسويه في كتابه هذا عن علم واسع وذهن ناقد اصيل . ومنه جانب آخر قاوم فيه سلطة البابا ودعا الى المحافظة على حرية الكنيسة الفرنسية . كانت المعركة حامية وانتهت بظفر البابا . على ان اشدّ المعارك القلمية هي التي خاضها بوسويه ضد « فينيلون (١) » ، مطران « كامبريه (٢) » ، الذي كان يدعو الى « الاستسلام. (٣)» هذا المبدأ هو نوع من الصوفية التي تدّعي ان في الامكان الارتقاع بالنفس الى درجة من الكمال تتحد فيها مع الله سبحانه وتعالى عما يدّعون ، وتتخلّى عن كل عمل سوى الايمان والمحبة ، فتنكر العقائد المحدّدة، وتهمل العبادات المتّبعة، وترمي جانباً بتلك الرغبة الخائفة اللجوج في الفوز بالنجاة الابدية ، وتسلم امورها طائعة مختارة الى الارادة الرحمانية ، والى كل ما توحي به هذه الارادة او يخيل اليها انها توحي به . ان مبدأ التسليم والاستسلام ليؤدّي في الدين الى اهمال العقيدة المأثورة الواضحة ، وفي الاخلاق الى فوضى الاسترسال مع الغرائز والاوهام . واكبر الدعاة الى هذا المبدأ هو القس الاسباني «مولينوس (٤)» ، الذي عاش في القرن السابع عشر ، فاقتنعت بفكرته امرأة فرنسية صالحة هي السيدة «جيون (٥) » ونقلتها الى المطران الاديب فينيلون فتبناها وجعل يدافع عنها . اما بوسويه ، فقد ردّ الفكرة واعتبرها بدعةً ضارة . واستحرّ الجدال بين الاديبين العظيمين وشريَ الشرّ وانتهت المعركة بعد خمس سنوات بانتصار بوسويه وانخذال خصمه (٦) .

هذا العقل المحافظ نفسه يبدو لنا في مؤلفات بوسويه الفلسفية والسياسية : ف (الخطاب في التاريخ العام) يبين ان ارادة الله تظهر من خلال الحوادث الانسانية الكثيرة لتمهّد السبيل لولادة المسيحية وانتشارها هذه الارادة السامية نفسها قد استخلفت الملوك على الارض ووكلت اليهم شئون الناس . فملك فرنسا هو حقا ممثل الله في بلاده ، ويجب ان يكون مطلق اليد يفعل ما يشاء ! وليس عليه ان يقدّم حسابا على ما صنع الى احد غير الله ، وهو يأمره ان يعمل لصالح شعبه ، لا لتحقيق منافعه الخاصة وإمضاء شهواته (٧) .

---

(١) Fénelon (٢) Cambrai (٣) Quiétisme (٤) Molinos

(٥) Mme Guyon

(٦) Bossuet: مادة Larousse du 20ème siècle ، L. T. 306-307

(٧) المصدر الاخير

على ان عظمة بوسويه وخلوده يرجعان قبل كل شيء الى ذلك العدد الضخم من الخطب البليغة والمواعظ الشائقة التي أثرت عنه. غير انه لم يكن اشهر خطباء عصره، بل كان يقدّمه في ذلك ثلاثة آخرون، هم: بوردالو، وفليشيه، وماسيئون (١)؛ مع انه يتبرّعهم (٢) عند التحقيق جميعاً في سعة الافق وجولان الفكر وسمو العاطفة واقتدار الخيال. وقد لحظ النقاد شيئا من الكلفة والصنعة البيانية في خطبه الاولى؛ كما لحظوا تدرج الواعظ الكبير يوما فيوما نحو البساطة والعزوف عن التأنق والتزويق؛ حتى اذا بلغوا المرحلة الاخيرة من حياته ١٦٨١ - ١٧٠٤ وجدوا انفسهم امام محدث بارع، يستحوذ الاعجاب ويملك القلوب ببساطته وصدق نبرته واتزانه. في هذه الخطب نرى شخصية واعظ ديني يدعو الى صراط الفضيلة المسيحية ويضع النصوص الدينية اساسا للاخلاق القويمة. واشهر هذه المواعظ التي تتجاوز المئتين عداً: خطاب الصوم الكبير، القاه بين يدي لويس الرابع عشر ١٦٦٢، وخطاب في العناية الالهية، وآخر في الطمع، وآخر في الموت. ومن الجدير بالذكر تلك الشجاعة التي كان يتحلّى بها الكاهن الاديب في خطبه، فهو يماشي فكرته الى نهايتها امام الملك الشاب الذي لم يكن حينئذ ليرتضي غير الاجلال والاذعان، وهو يكرر على مسامعه آلام الشعب وبؤسه، ويشجب من غير خوف ما لا يماشي الفضائل في سلوك العاهل الفرنسي. في ذلك العهد الذي خفتَ فيه صوت البلاغة السياسية كان منبر الوعظ وحده هو المكان الذي يتهيّأ لمن يقف عليه ان يقول كلمة الحق في صراحة وقوة. بيد ان عدداً قليلا جداً من الوعاظ تجرّءوا على استعمال حقهم هذا، كما فعل بوسويه (٣).

اما بوسويه في «تآبينه» فمجدد سامي الانفاس حقا، وهو يعلو فيها ويعلو حتى يرمح بجناحيه فحول ادباء فرنسا ويستوي مع الصدور المقدمين من رجال الفكر في التاريخ. ان انقطاع الحياة من انسان كنا نراه لوقت قريب يروح ويغدو ويجدّ ويلهو لمن الرهبة بمكان، ولاسيما اولئك الاعزاء الذين تربطنا بهم شتى الروابط ونفقد بموتهم جانبا من شخصيتنا. لا واعظ كالموت يفتح عيون الغافلين ويحملهم على التفكير العميق في الانسان ومصيره، ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار! والعجيب حقا ان بوسويه هو اول من فكر باتخاذ قضية الموت محوراً لتأبينه، اما الذين تقدموه

---

(١) Bourdaloue، Fléchier، Massillon (٢) يتفوق عليهم

(٣) المصدران السابقان

فلم يكونوا يعنون بغير حياة الفقيد. ان بوسويه « ليفتح امامنا قبراً » لنقف امامه خاشعين. كل منا سيصبح ذات يوم « ذلك الكائن المجهول الذي ليس له اسم في لغة من اللغات [١]». غير ان العقيدة الدينية كلها هي تفسير لفكرة الموت ، والسلوك الديني كله هو إعـــداد لساعة الموت . فالدين هو الميزان الصحيح الذي تقدر به افراحنا وآلامنا ورغباتنا وأعمالنا قدرها الحق . ان التفكير في الموت جدير ان يقنعنا بتفاهة الحياة التي جعلت اللهو واللعب امنيتها ، وبعظمة الحياة التي تقدم لانفسنا فيها خيراً ونجعلها طريقاً الى الخلود . فوفاة انسان ما : هي عند بوسويه حجة يتذرع بها ليكشف لنا ضآلة اقدارنا وليبين لنا مايجب ان نصنع لنستعد لاستقبال يومنا الأخير . والثناء على فقيـــد هو فرصة عنـــده لتعليم الاحيـاء [٢] .

على ان لهذا النوع من الخطابة قواعده : يجب عرض الاعمال ، وتصوير الاشخاص وهنا يعرض لنا سؤال : هل كان بوسويه صادقاً فيما يقول ؟ هل كان يحسن جمع الاخبار وتحقيقها ؟ من المؤكد انه كان يبذل كل ما يملك من جهد ليصل الى الحقيقة : فكان يسأل ، ويقرأ الرسائل والمدونات ، ويطلب الى الثقات من اقرباء الميت وأصدقائه ان يمدوه بالمعلومات والذكريات . زد على ذلك انه هـــو نفسه كان على اتصال وثيق ببعض الافراد الذين أشاد بذكرهم امواتا ، وخصوصاً « السيدة [٣] » والأمـير كوندي . فاذا قلت ان صدق المؤرخ وصراحته قد لا تكونان في محلها المناسب امام اسرة حزينة حول نعش عزيز ، أجبنا ان بوسويه لم يكن ليخفي شيئاً ، ولكنه يقوله في لباقة وذوق [٤] .

القى بوسويه اثني عشر خطاباً تأبينياً ، ضاع منها اثنان وطبع الباقي في حياته بأمر الملك . كل خطاب يبدأ بآية من الكتاب المقدس يأخذ المؤلف بتفسيرها والتماس الشواهد عليها من حياة الفقيد . وعلى ذلك ، فليس تمجيد المرثي الا امراً ثانوياً بالاضافـــة الى موضوع الآية : مثال ذلك : تأبينه لملكة انجلترا ١٦٦٩ ، فهو في الواقع خطاب في العناية الآلهية ، وتأبينه « للسيدة » ١٦٧٠ خطاب في الموت ، وتأبينه لملكة فرنسا ١٦٨٣ خطاب في التقوى ، وتأبينه للاميرة « أننا دي كليف » ١٦٨٥ خطاب في ضرورة الاعتـقاد ، وتأبينه للأمير كوندي ١٦٨٧ خطاب في العبادة والورع [٤] .

---

(١) او كما يقول شيكسبير على لسان حفار القبور في هملت : ذلك المخلوق الذي كان يوماً ما امرأة او رجلا (٢) L.T. 310, 311 (٣) امرأة اخي الملك ، واسمها : هنريت دانجلوتير (٤) L.T. 311—312

على ان خطابيه في تأبين « السيدة » ، هنريت دانجلوتير ، امرأة اخي الملك ، وتأبين الامير كوندي يفوقان خطبه الأخرى في دقة المنهج وحرارة التعبير . ان بوسويه ليتكلم هنا من اعماق قلبه . ان حميًا الذكريات لتملكه وتثير بلابله . فهو فضلا عن اتصاله الوثيق بالفقيدين ، كان يشعر بقرابة واشجة بين روحه وروحيهما . كان ظرف السيدة ورقتها يهيجان شعور الحنان عنده ؛ وكانت امجاد الأمير وعبقريته الحربية توقظ ما في نفسه من حزم وعمق تفكير (١) .

• • •

اظهر ما في طباع بوسويه التفاني في سبيل الواجب من غير وهن . كانت آثاره الخطابية والكتابية بنت الحاجة ووحي الساعة ، من غير رغبة في مجد ادبي او عرض دنيوي . انه مثال فذّ للرجل الذي يعيش من اجل مثله الأعلى . وكان بوسيه شجاع القلب ، معتدل الخطة ، هادئاً بسيطاً ، صريحاً من غير قساوة ولا محاباة ؛ وكان يكره الرواغ والكيد والكذب . نفس رقيقة الحاشية وشعور مرهف متوثّر ، ولكنها لا يظهران الا في اعتدال . اما الخرافات والاوهام فكان دماغه المحكم اليقظان يأباها . في كل اعماله كان يكشف عن محاكمة سليمة وارادة حازمة وذهن عمليّ وقاد (٢) .

وتوفي بوسويه ١٧٠٤ في ساحة جهاده السلمي « وسلاحه بيده » كما يقول سان سيمون (٣) .

رسالة الى لويس الرابع عشر

يجدر بالقارئ ان يلاحظ الفن والاسلوب الحكيم اللذين يعرض فيهما بوسويه للملك اخطاءه ويفتح عينيه على الحقائق الأليمة ويرشده الى الطريق القويم ، من غير ان يشعره بوخز النقد ويثير حفيظته :

لا يخفى عليّ يا مولاي كم يشقّ عليك ان تواسي شعبك وانت تخوض حرباً عوانا

---

(١) L.T. 311 - 312 (٢) L.T. 310 (٣) L.T. 307

تتكبّد في سبيلها نفقات باهظة جداً وترمي من ورائها الى دفع الاعـــداء والمحافظة على الحلفــاء . بيد أن الحرب التي تضطر جلالتـكم الى بذل اموال عظيمة تضطرها في الوقت نفسه ألا تثقل كاهل الشعب الذي به وحده تستطيع المضيّ في هذه الحروب . وعلى هذا فتخفيف ويلات الأمة ضروري لتقوم بخدمتكم ولتستمتع هي بالراحة معاً . جلالتكم لا تجهل ذلك . وعلى هذا فانا إن احدثّها بما أعتقد أنه من واجبها الصريح المحتوم أذكر أن عليها قبل كل شيء ان تجتهد في تعرّف آلام الولايات بعمق ، وخصوصاً في تبيّن ما سبق ان عانوه من غير ان تستفيد جلالتكم شيئاً ، وذلك من تلك الفوضى بين رجال الحرب (١) ، ومن ثقل الضرائب الى حدّ لا يصدّق . ان جلالتكم وان كانت محيطة ولاشك بما يقترف من مظالم وما يسلب من حقوق ، فان الذي يثبّت الرعية على الثقة بكم يا مولاي : هو أنها لا تستطيع ان تعتقد بان جلالتكم عارفة بكل هذا ساكتة عنه (٢) ؛ وانها التأمل أن يضطركم ما ابديتموه من حرص على آخرتكم (٣) الى التعمق في قضية جدّ ضرورية أيضاً .

لا يمكن ان تظل آلام عظيمة قادرة على ان تطوّح بالمملكة مهملة بغير علاج . وإلا فسينضب المعين فلا يرفد بعد ذلك أحدا . على ان هذا العلاج لا يتوصل اليه الا بعناية فائقة وصبر طويل : ذلك بانه من الصعب عليّ انا ان اتصور طرائق عملية للاصلاح وليس من شأني ان اتحدّث في ذلك . غير ان الذي اعرفه وأتأكد منه هو ان جلالتكم اذا ابدت رغبتها في الأمر باصرار ، واذا تخطّت ما قد يعترض التفاصيل من عثرات فاستمرّت بعزم على رغبتها الى اولي الامر بالتحرّي ، واذا أشعرتهم ، وهي بذلك جدّ خبيرة ، بانها تأبى ان تخدع بوجه من الوجوه في هذا الشأن ، وانها اخيراً لا تكتفي بغير الاشياء الوطيدة الفعّالة ، اذا كان كل ذلك فان الذين تعهدون اليهم بتنفيذ الاوامر سينحنون امام هـــذه المشيئة ، وسيفيئرون تفكيرهم كله لارضائكم في اعدل ما يمكن ان تظهــروا من ميول .

وجملة القول أن جلالتكم يا مولاي يجب ان تقتنع بان الذين يخدمونها مهما حرصوا على مواساة الشعب فانهم لن يبلغوا في ذلك شأوها . الملوك الصالحون هم آباء الشعب الحقيقيون؛

---

(١) لم يكن للجنود حين ذاك ثكنات ، فكانوا يبيتون عند السكان ويخربون ويفسدون ما شاءوا

(٢) الكلمتان الاخيرتان : ساكتة عنه ، غير موجودتين في النص ؛ وانما اضفناهما للتوضيح

(٣) كان لويس الرابع عشر قد وعد بوسويه باقصاء خليلته السيدة دي مونتسبان عن القصر ، لان وجودها فيه ينافي الدين .

يحبونه بطبيعة الحال ؛ امجادهم ومصالحهم الجوهرية في المحافظة عليه والاحسان اليـه ؛ اما الآخرون فانهم لن يبلغوا في ذلك مبلغهم قطّ .

فجلالتكم هي التي يجب ان تتوخى بعزم اكيد هذه المواساة ، وان تولّد مثل هـذا الشعور لدى الذين تستعملهم على رعاياها . فان هي لم تفتشرهمتها في البحث والاستطلاع رأت النفع حقيقة ماثلة . ان ما لها من صائب الحكم ووثيق المعرفة بامور الدولة ييسّران لها ان تميّز ما هو حقيقي وطيد الاركان مما هو عرضي واهن البنيان . هكذا ستسير آلام الامة في طريق الشفاء ؛ والاعداء الذين لا يعقدون آمالهم إلا على ما يجرّه عجز الامة من فوضى سيرون انفسهم قـــد مُنوا بخيبة الآمال . واذا تحقق هذا فهل يكون ثمّة أمير اسعدُ وعاهلٌ امجدُ منكم يا مولاي (1) ؟

من تأبين للاميرة (هانريت دانجلوتير)

دوقة اورليان ١٦٧٠

هي ابنة شارل الاول ملك انجلترا وملكتهـا هنريت دي فرانس ، ابنـة هنري الرابع الفرنسي . ولدت ١٦٤٤ ايام الثـورة الشعبية التي كان يقودهـا « كروموبل » في انجلترا والتي أطاحت رأس ابيها ؛ فلجأت بها امها الى فرنسا وهي في الثانية من عمرهـا . ولما بلغت السادسة عشرة ظهـرت في القصر الملكي ، فكانت قبلة الانظار بجمالها وظرفها ودكائها . لم يكن لويس الرابع عشر غافلاً عن محاسنها ، غير انه لأمر ما تزوّج من غيرها ؛ ورضيت هي ان تتزوج اخاه دوق اورليان ، وكان هذا فتى مشتّت الاهواء فاسقاً عربيداً فأهملها واطّرحها للمداهنين والمعجبين . غير ان هنريت هذه احتفظت بحسن سمعتها ؛ وكانت توّاقة للآداب ،

---

(1) Chevaillier 339 -340

فانصرفت الى رجال الفن والادب تشجعهم وتقرّبهم ، وفي مقدمتهم موليير وراسين .

وفي ١٦٧٠ عهد اليها لويس الرابع عشر ان تفاوض اخاها شارل الثاني الذي تسنّم عرش انجلترا ١٦٦٠ ، وان تعقد معه معاهدة تحالف ؛ فتكللت جهودها بالنجاح ، وعادت الى سان كلود (١) تستجمّ ؛ وهناك فاجأها الموت المُبْكر ، على اثر تناولها كأساً من ماء الهندباء المجمّد احدث في امعائها آلاماً غريبة شديدة . وقد شهد بوسويه ساعاتها الأخيرة وأعجب بشجاعتها وصبرها ، وتأثر لصباها الذاوي ، كما عبرّ عن ذلك في خطابه العظيم الذي نقتطع منها بعض الصفحات (٢) :

(وهم وغرور ، وكل شيء متاع الغرور)

سيدي (٣)

قدّر لي اذن كذلك ان اقوم بهذا الواجب الكارب نحو السيدة الرفيعة المقام العظيمة الشأن ، الأميرة هنريت آنّ دانجلوتير ، دوقة اورليان . لقد كُتب على تلك التي كانت تعيرني كلّ سمعها أثناء قيامي بالواجب نفسه نحو امها الملكة ، انتكون عاجلاموضوع خطاب مشابه ؛ وكتب لصوتي التاعس ان يؤدّي هذه المهمة الحزينة . يا للعبث ! ياللعدَم ! ايها الفانون الجاهلون مصائرهم ! أ كانت تظنّ ذلك قبل عشرة أشهر ؟ وانتم يا سادتي أ كنتم تفكرون حينما كانت تذرف الدمع الغزير في هذا المكان أنها ستجمعكم فيه عما قليل لتبكوها ؟ ايتها الأميرة ، ايتها المرأة الجديرة باعجاب مملكتين عظيمتين ، ألا يكفي إنجلترا ان تبكي لفرقتك فتضطرّ الى البكاء لموتك ؟ وفرنسا التي تهلّلت لرؤيتك تعودين في هالة وضّاءة جديدة ألم يكن لديها غيرهذا الضرب من الحفاوة والتمجيدتبديها

---

(١) Saint-Cloud (٢) Oraisons funèbres et sermons 1, P. 55-56

(٣) يخاطب الأمير كوندي ، ممثل الأسرة المالكة Chevaillier 334

لك لدن عودتك من هذه الرحلة الشهيرة التي عدت منها بالمجد العظيم وبالآمال الحسان ؟ . « وهم وغرور ؛ وكل شيء متاع الغرور . » تلك هي الكلمة الوحيدة التي بقيت لي ؛ تلك هي الفكرة الوحيدة التي يسمح لي بها ، في حادث غريب جداً كهذا ، ألمٌ أليم حقٌ . . . أما إنني لأريد ان ارثي في هذا المصاب وحده لحال الانسانية جميعاً ، وان أرى في هذه الوفاة وحدها موتَ الامجاد الانسانية كلها وعدمها . هـــذا النصُّ الذي يطابق احوالنا وحوادث حياتنا جميعاً يصبح بسبب خاص قويَّ المناسبة لموضوعي الباكي؛ اذ أن عبث الحياة الدنيا وغرورها ابداً لم يتوضّحا للعيان ثم يُلقى بهافي يمّ النسيان على هذا النحو . كلا ، بعد ذاك الذي رأته العين ، ما العافية إلا اسم ، ما الحياة الا حـلم ، ما المجد الا ظاهر ، ما المباهج واللذات الا ألهوة مخوفة ؛ كل شيء عبث فينا ما خـلا الاعترافَ البريء الذي نقدّمه عن عبثنا وأوهامنا بين يدي الله العليّ القـدير ، والحكمَ النضيج الذي يهيب بنا ان نحقر انفسنا .

ولكن أأفضي بالحقيقة ؟ أليس الانسان الذي خلقه الله على صورته غـــير ظل زائل ؟ . . . الا فلنعترف بخطئنا . لا شك ان مشهد الانسانية العابثة الزائلة يخدعنا ؛ وذبول الأمل بموت هذه الأميرة الفاجيء يذهب بنا جد بعيـــد . لا ينبغي ان يُسمح للانسان ان يحتقر نفسه اطلاقاً ، لأن ذلك مدْرَجة له الى ان يسير من غير هدى وفق رغباته العمياء ، معتقداً مع الكفرة ان حياته ما هي الا ألعوبة تسودها الصدفة وتسيرها. من اجل ذلك اراد الحكيم أخيراً ، بعد ما بدأ كتابه الآلهي بالكلمات التي تلوتها ، وبعد ما ملأ صفحاته كلها باحتقار الاشياء البشرية ، ان يُبيّن للانسان شيئاً اوثـــق واقوى ، فانهى خطابه بقوله له : إخشَ الله ، واحفظ حدوده فهنالك الرجل كله ؛ واعلم بان المولى سينظر في حكمه الى كل ما نعمل من خير أو شر . » وعلى هذا فـكل شيء عبثٌ في الانسان اذا نظرنا الى ما يهبـــه للعالم ، ولكن ، على العكس ، كل شيء فيه ذو اهمية اذا اخذنا بعين الاعتبار ما يدين به لله ؛ كل شيء في الانسان باطل اذا نظرنا الى مجرى حياته الفانية ؛ ولكن كل شيء ثمين ، ذو اهمية اذا تأملنـا الغاية التي يصير اليها والحساب الذي عليه ان يؤديه . لنتفكر اذن هذا اليوم ، لدى مشهد هذا المذبح وهذا القبر في كلامَيْ الحكيم. الاول والأخير، فأحدهما يبيّن انعدام الانسان، والآخر يبين عظمته . ليقنعنّا هذا القبر بفنائنا ، على ان يعلّمنا في الوقت نفسه هذا المذبح الذي تقدم فيه كل يوم أضحيةٌ ثمينة جلالَ اقدارنا . ستكون الاميرة التي نبكي شاهداً امينـاً على

هذا او ذاك . لكم ما سلبها الموت الفاجئ ، ولكم ما منحهـــا موت التقى والصلاح .
هكذا نتعلم ان نزدري ما تركته من غير جهد ، لنقصر احترامنا على الذي توصلت اليـه
بكثير من الحماسة ، بعد إذ تطهّرت روحها من مشاعر الارض وامتلأت بحب السماء التي
كانت تقترب منها ، وعندما رأت الضياء وهاجاً سنيّاً . تلك هي الحقائق التي عليّ ان
اعالجهـا ، واني رأيت انها جديرة ان تُعرض على اميـــر عظيم وعلى ارقى مجتمع
في العـالم .

كانت تلك المرأة التي أثنى الكتاب المقدس على حكمتها في كتاب الملوك الثاني تقول:
« سنموت جميعاً ، وسنذهب الى القبر بلا انقطاع ، كالمياه التي تضيع فلا تعود . »
حقاً اننا جميعاً نشبه المياه الجارية . فمهما يفاخر النـــاس بامتيازهم فان لهم جميعاً اصلا
واحداً ، وان هذا الاصل لوضيع . اعوامهم تتوالى وتتدافع كالموج ؛ انهم يمضون
على الدوام ويمضون ، حتى اذا أثاروا شيئاً من الضوضاء ، وطافوا بعض الامصـار ،
وزاد بعضهم في ذلك قليلاً على بعض ، تردّوا على بكثرة أبيهم في هوة لا يمتاز فيها امراء
ولا ملوك ولا ذوو الالقاب السنية الاخرى التي تميز الناس ؛ كمثل هذه الانهار الشهيرة
التي تغيب في المحيط من غير اسم ومن غير مجد ، الى جانب النهيرات المجهولة سواء بسواء .
والحقيقة ايها السادة ، اذا كان اشيء ان يسمو بالناس فوق ضعفهم الطبيعي ، اذا احتمل
الأصل الذي نحن فيه سواسية بعضَ الامتياز القويّ الدائم بين اولئـك الذين جبـلهم
البارئ من تربة واحدة ، فمن ذا الذي يكون في العالم اكثر امتيازاً من الأميرة التي اتكلم
عنها ؟ كل ما يستطيع ان يفعله الحسب والنسب ، ومناقب الذكاء العظيمة ، في سبيل
رفعة أميرة ما ، يجتمع ثم يبيد في أميرتنا . أنني تتبعتُ آثار أصلها العريق لا اكتشف
غير ملوك ، ويعشو بصري لسنى أجلّ التيجان . . . على ان لهذه الأميرة المولودة على
العرش عقلاً وقلباً اسمى من اصلها . فالمحن التي نزلت بأسرتها لم تستطع ان تئودها (۱)
في صباها الأول ؛ وقد رأينا عندها عظمة لا تدين للحظ بشيء . كنا نقول في اغتباط:
لقد انتزعتها السماء بما يشبه المعجزة من أيدي اعداء الملك ابيها لتهبها لفرنسا : منـحة
ثمينة ، هبة لا تقدر ، لو أن امتلاكها فقط يدوم ! . . . فـاذا كان مقامها يسمو بهـا
فان هناك ما يسوّغ لي القول انها ارفع مقاماً بكفايتها . أستطيع أن ألفتكم الى انها كانت من

(۱) آده الحمل : أثقله

المعرفة بجمال الآثار العقلية بحيث كان يخيّل الى الذي يحوز أعجابها انه توصل الى الكمال. واستطيع ان أضيف كذلك ان اعاظم الحكماء والمجربين كانوا يعجبون بهذا الذكاء النافذ الوقاد الذي كان يحيط بدون جهد بأعظم الأمور وينفذ في يسر كبير الى أدق المصالح. ولكن مابالي أفيض في حديث أستطيع ان أجتزئ منه بكلمة؟ فالمليك، وحكمه قاعدة لا تتخلف ابداً، عرف فضل هذه الأميرة، ووضعها باكباره فوق اماديحنا كلها (١).

مع ذلك، لا هذا الاكبار، ولا كل هذه المزايا الجليلة، استطاعت ان تنال شيئاً من تواضعها. فعلى سعة فطنتها، أبداً لم تستطل بمعارفها، وأبداً لم تغتر باستنارتها. الا فاشهدوا على ما اقول، انتم الذين شرفتهم هذه الأميرة الكبيرة بثقتها. أي ذكاء وجدتموه اسمى، بل اي ذكاء وجدتموه أودع؟ كثيرون يخشون ان يتورطوا في الرخاوة فيتوحلوا بالقساوة والتمنع على العقل؛ اما السيدة فكانت تبتعد عن الزهو بعدها عن الخنوع، وكانت موضع الحرمة لا انها تستطيع ان تسدي النصائح الحكيمة وان تتقبلها، على حد سواء. ان من يجدّ في ما يرضي هذه الأميرة من دراسة لقادر ان يميّز غث النصائح من ثمينها. نوع جديد من الدراسة يكاد يكون مجهولاً عند الاشخاص في سنها ومنزلتها، ولنضف اذا اردتم، عند بنات جنسها: كانت تدرس عيوبها؛ وكانت تحب ان تمحّض النصح فيها؛ دليل اكيد على قوة روح لم تطغ الخطايا عليها، ولم تهيب ان تلقاها وجاها، لثقة خفيّة بما لديها من قوى تستطيع بها التغلب عليها. انها رغبة التقدم في دراسة الحكمة هذه هي التي كانت تغريها بقراءة التاريخ الذي يدعونه بحق مستشار الأمراء الحكيم. هنالك (٢) ليس لاعاظم الملوك منزلة إلا بفضائلهم، واذ تخلعهم يد الموت الى الأبد من مناصبهم يأتون، بغير بلاط ولا حاشية، ليتقبلوا حكم الشعوب والاجيال قاطبة. هنالك انما نفطن الى ان بهرج الملق سطحي، وان الاصباغ الكاذبة لن تدوم مهما وضعت بمهارة. هنالك كانت اميرتنا العجيبة تدرس واجبات اولئك الذين تؤلف حياتهم التاريخ: لقدصرفها ذلك، بصورة لا شعورية، عن تذوق الروايات (٣) وابطالها التافهين؛ وكانت،

(١) اشارة الى الثقة التي وضعها فيها لويس الرابع عشر والمهمة التي كلفها بها. (٢) في التاريخ

(٣) كان ادب الرواية ضعيفاً في القرن السابع عشر، والخطيب يعرّض هنا باورفيه، ولاكلبرو ناد، وكومبرفيل، وبالآنسة سكيدري، وهم يومئذ اشهر كتاب الرواية.

لحرصها على تكوين نفسها على الحقيقة ، تكره هذه الاوهام العابثة الخطرة. هكذا كانت تختفي تحت وجه ضحوك ، تحت ملامح الصبا التي كان يخيل لناظرها انها لا تبشر بغير اللهو واللعب ، فهماً رشيداً وزيناً ادهش اولئك الذين كانوا يعاملونها .

من اجل ذلك أمكن ائتمانها من غير خوف على اعظم الاسرار . فما كان ابعدها عن لشائك العلاقات وعن خلطة النفوس الضعيفة التي لا ذمة لهـــا ولا عهد ، والـــتي لا تعرف ان تمسك لسانها البئوح (١) ؛ يقـــول الحكيم (٢) : « انها تشبه مدينة لا أسوار لها ، مفتوحة من كل الأطراف ، فهي نهب لأول قادم » الا ما كان ارفع السيدة عن هذا الضعف ! لا المفاجأة ، ولا المصانعة ، ولا جاذب الملق الناعم او الحديث الرقيق ، التي طالما فتحت مغاليق القلوب وأطلقت اسرارهـــا ، بقادرة على دفعها الى افشاء سرها ؛ وكانت الطمأنينة التي يجدونها لدى هذه الاميـــرة العاقلة الجديرة بعظائم الأمور تحملهم على ان يستودعوها اخطر الاسرار .

لا تحسبن اني اريد ان اتهور فأخوض في اسرار الدولة وأتحدث عن رحلة انجلترا... كلا ، فلن اتحدث عن هذه الرحلة الجيدة إلا لأقول ان السيدة كانت فيهـــا مثار الاعجاب اكثر من اى وقت آخر . لم يكونوا يتحدثون الا متحمسين عن طيب هذه الأميرة التي ما لبثت ان استهوت جميع العقول ، على عمق الشقة بين البلاطين وبعدها . كانوا عاجزين عن اطراء مهارتها الفائقة في معالجة ادق الأمور ، في مداواة تلك الشكوك الخفية التي كانت تتركهم حائرين مترددين ، في إنهاء كل المنازعات بحيث توفق بين اكثر المصالح تضارباً . ولكن من ذا يستطيع ان يفكر ، من غير ان يسكب الدمع ، في مظاهر الاحترام والعطف التي حباها بها اخوها الملك ؟ هذا الملك المظيم الذي كان اكثر تأثراً بالفضل والكفاية منه بالدم والقرابة كان لاينى اعجابا بما للسيدة من بارع الصفات . يا للجرح العياء (٣) ! ان ما كان في هذه الرحلة مبعث إعجـــاب حق سار لهذا الامير سبب آلام لا تحد . ايتها الأميرة ، ايتها الرابطة الجديرة بأعظم ملكين في العالم ، لماذا سلباك بهذه السرعة ؟ هذان الملكان العظيمان يعرفان انفسهما ؛ فذاك أثر ما بذلت السيدة من جهود ، وعلى ذلك فان دوافعها النبيلة ستوفق بين عقليها ؛ وستكون الفضيلة مصلحا دائما بينها . ولكن اجتماع كلتها وان لم يضع من قوته ،

(١) الذي يبوح بالاسرار . (٢) سليمان الحكيم (٣) العضال ، الذي لا دواء له .

فسنبكي الى الابد انه اضاع اعذب ما له من ملاحة ، وأن اميرة أثيرة في قلوب العالم أجمع تردّت في لحدها على حين ترفعها ثقة ملكين عظيمين الى ذروة العظمة والمجد .

العظمة والمجد ! ألا نزال قادرين على سماع هذين الاسمين والموتُ في نصره وزهوه ؟ كلا يا سادتي ، لا استطيع ان احتمل هذه الكلمات الكبيرة التي يجهد الغرور الانساني ان يشغل بها نفسه ليتلهّى عن النظر الى فنائه . لقد آن لي ان أري ان كل ما يناله العدم ، مهما نضف الى ظاهره ليبدو عظيماً ، هو في جوهره عاجز عن السموّ . هلاّ أصغيتم بهذه المناسبة ، لا الى استدلال فيلسوف يبحث في مدرسته ، او رجل دين يتأمل في صومعته ، فانا اريد ان أخزي الناس بأقوال اولئك الذين يكرّمهم الناس ويجلّونهم ، بأقوال اولئك الذين خبروا الناس وعرفوهم ، فلا اعرض لاقناعهم إلا استدلال اهل الخبرة من ذوي العروش . يقول الملك النبيّ (١) : « الهي ، لقد جعلت ايامي تجري وفق حساب ، وليس كياني بشيء امامك . » والأمر كذلك ايها المسيحيون : فكل ما يقاس ينتهي ؛ وكل ما وُلد لينتهي لا يخرج تماماً من العدم الذي سيغوص فيه عما قليل . واذا كان وجودنا ليس بشيء وكان قوامنا المادة الزائلة ، فماذا عسى ان يكون كل ما نبنيه عليها ؟ ما البناء بأقوى من الأساس ، ولا العرَض المتصل بالكائن بأصحّ وجوداً من الكائن نفسه . ماذا عسى ان يصنع الحظ في سبيل رفعتنا حين تحطّنا الطبيعة الى اسفل درك ؟ تحرّوا ، تخيّلوا الفروق الأجلب للنظر بين الرجال فانكم لن تجدوا فارقاً اظهر واقوى من ذاك الذي يرفع الغالب فوق المغلوب الذي يراه جاثياً على قدميه . ومع ذلك فان هذا المنتصر ، على اختياله بالقابه ، سيقع هو نفسه بدوره بين يدي الموت . عندئذ سينادي هؤلاء المغلوبون التعساء غالبيهم ليكونوا في صحبتهم ، وسيخرج صوت من اعماق قبورهم فيدكّ امجادهم جميعاً : « هأنتم اولاء جرحى مثلنا ؛ لقد اصبحتم مثلنا . »

ولكن أتكون المواهب العقلية ، والأهداف العظيمة ، والافكار الرحيبة قادرة على ان تنوب عن الحظ فترفعنا على سائر الناس ؟ الا فلتحذروا من هذا الظنّ ، لان كل افكارنا التي لا نريد بها وجه الله هي ملك للموت . «ليموتنّ» يقول الملك النبيّ ، « وفي هذا النهار ستموت افكارهم جميعاً » : يعني افكار الغزاة ، افكار

---

(١) النبي داود عليه السلام

الساسة ، الذين تدور في خيالهم ، وهم في غرفاتهم ، خطط لتشمل العالم اجمع . ستشد ازرهم من كل النواحي الحيطة البالغة والنظر الى عواقب الامور جميعاً ما خلا الموت الذي سيذهب في لحظة واحدة بجميع افكارهم . من اجل ذلك نرى الحكيم الملك سليمان ابن الملك داود (لانه يسرني كثيراً ان ابسط امامكم تتابع النظرية نفسها في عرش واحد) اقول من اجل ذلك نرى الحكيم سليمان اذ يحصي الاوهام التي تحزن صبيان الرجال يدخل فيها الحكمة نفسها . انه يقول «لقد وضعت الحكمة نصب عيني ، ثم وجدت انها عبث وغرور كذلك ، وذلك لان هناك حكمة زائفة تقتصر على الاشياء الزائلة فتغوص معها في العدم . وعلى هذا فانني لم اصنع شيئاً من اجل السيدة [1] عندما عرضت لكم كثيراً من الصفات الجميلة التي كانت تثير اعجاب الناس وتؤهلها لاسمى المقاصد التي تستطيع اميرة ان تسمو اليها . فالى ان أبدأ فأحدثكم بما كان يصل هذه الاميرة العظيمة بالله ، فانها لن تبدو في هذا الخطاب الا كاعظم مثال واقدر مثال على اقناع ذوي الاطماع بانهم لا يملكون من وسيلة للامتياز ، وأنه لن تغني عنهم انسابهم ولا امجادهم ولا عقولهم ؛ لان الموت الذي يسوي بين الجميع يتسلط عليهم من كل ناحية بقوة وبأس ، ويطيح اكثر الرءوس حرمة بيد سريعة قاهرة .

ألطفوا النظر ايها السادة الى تلك القوى التي تطالعنا من عل . فعندما ترتعد فرائصنا بين ايديهم يبطش الله بهم تذكرة لنا وعظة . لعلوهم أصيبوا ؛ انه لا يبقي على شيء منهم ، ليجعلهم عبرة لباقي الناس . ايها المسيحيون ، لا تهامسوا من ان السيدة قد اختيرت لتعليمنا مثل هذا الدرس . لا شيء قاسياً هونا عليها ، لان الله ، كما سترون أنقذها بنفس الضربة التي كانت لنا درساً . علينا ان نكون مقتنعين بفنائنا : على انه اذا اقتضى الامر مفاجآت لقلوبنا المفتونه بحب الدنيا ، فان هذه المفاجأة لمن العظم والهول بمكان . يالتلك الليلة النكداء ! يالتلك الليلة الليلاء ! حيث دوي بغتة كقصف الرعد هذا الخبر الراعب : السيدة تموت ! ماتت السيدة [2] ! من منا لم يصعق لهول

---

(١) كلمة السيد كانت تطلق على اخي الملك من غير ذكر اسمه ، وكلمة السيدة كانت تطلق على زوجة اخي الملك وهي هنا «هنريت دانجلوتير» التي يؤبنها الخطيب .

(٢) كان هذا الصوت الفاجع لا يزال يدوي في أذني بوسويه الذي دعي ليلة النزاع على جناح السرعة الى قصر سانت كلود ليكون الى جانب الاميرة المحتضرة . عندما وصل بوسويه الى قوله : ماتت السيدة توقف برهة امام تأثر المستمعين العميق .

هذه الصدمة ، كما لو ان حادثاً كارباً قد نزل بأسرته ؛ بادر الناس اول ما سمعوا هذا النعي الغريب الى قصر سانت كلود من كل حدَب وصوب ؛ فوجدوا الجميع مذاعير حيارى ، ما خلا فؤاد هذه الأميرة . كيفما تلتفتْ تسمعْ عويلاً وتَرَ الألم والقنوط وخيال الموت . الملك ، الملكة ، السيّد (١) ، رجال البلاط ، الشعب بأسره ، الكل كان شارد اللب ، الكل كان فاقد الرجاء ؛ فكأني ارى مصداق قول النبي : « سيبكي المليك ، سيحزن الأمير ، ستنكّس رءوس الشعب ألماً وذهولاً . »

بيد أن حسرات الأمراء والشعب كانت بغير جدوى ؛ عبثاً كان «السيد» والملك نفسه يعانقان السيدة اشدّ العناق . هنالك يستطيع كل منهما ان يقول مع سانت امبرواز: « كنت اضغط الذراعين ، غير أني كنت أضعت الذي في يدي.» فالاميرة كانت تفلت منهما وهما يعانقانها احنى عناق ، وكان الموت القادر المتسلّط يسلبنا اياها من بين تلك الايدي الملكية . كيف اذن ! اتهلك بهذه السرعة ؟ عند اكثر الناس يحدث التغير شيئاً فشيئاً ، ويهيّئهم الموت بصورة طبيعية لضربته الأخيرة . اما السيدة فانها مع ذلك قد ذوت من الغُدوة (٢) الى المساء ، كما تذوي خضرة الحقول . كانت في الغداة تنوّرُ وتزدهر ؛ ما كان اروع صباها وأنضره ! انتم بذلك عالمون : ثم رأيناها في المساء ذاوية ذابلة (٣) . ان تلك العبارات القوية التي اكّد فيها الكتاب المقدس زوال الاشياء الدنيوية لهي بالنسبة الى الأميرة ادقّ واكثر حرفية . وا أسفاه ! كان في الامكان ان نسطّر تاريخها من كل ما نستطيع تصوّره من عظيم ومجيد . كان الماضي والحاضر يكفلان لنا المستقبل ، وكنا نأمل الكثير من بارع صفاتها . أوشكت ان تربط بنفسها مملكتين قويتين بمستحبّ الطرق : فما كانت حظوتها لتثقل ، وهي الوديعة دوماً ، والكريمة المحسنة الرزان (٤) . ابداً لم نرها تطلب المجد في قلق وتهافت ، بل كانت تنتظره في صبر ، كأنها واثقة من امتلاكه . هذه المثابرة التي كانت تظهر عظيم وفائها للملك حتى المماة كانت تضع في يدها اسباب هذا المجد . والحق انه مما يبهج ايامنا ان في امكان الاحترام ان يقترن فيها بالواجب ، وان في المستطاع ان نرتبط بما في الأمير من فضل وان نحترم ما له من قوة وجلالة . ولم تكن ميول «السيدة» لتلفتها اقل من ذلك

---

(١) اخو الملك ، وزوج المتوفاة . (٢) الغدوة او الغداة : الصباح

(٣) قضى عليها الألم في عشر ساعات . (٤) مؤنث : رزين

الى واجباتها الاخرى كلها : ان شغفها بمجد «السيد» (١) لم يكن له من حدود . فلما كان هذا الأمير الكبير يقفو آثار اخيه الذي لا يغلب ويمضد في بسالة ونجاح مقاصده العظيمة الملأى بالبطولة في حرب الفلاندر ، كان سرور هـذه الأميرة لا يصدق.. ذلك هو التاريخ الاثير الذي كنا نسطره للسيدة ؛ ولاستكمال هذه المقاصد النبيلة لم تكن في حاجة الا الى استمرار حياتها التي لم نكن نحسب انها في خطر . اذ من كان يستطيع ان يفكر فقط ان السنين قد تعوز صبا في هذا النشاط ! لقد اضطررنا ان نعدل عن قصة هذه الحياة الرائعة الى قصة تلك الميتة الباهرة ، على ما فيها من حزن . الحق ايها السادة انه ما من شيء ابداً ساوى ثبات نفسها ولا تلك الشجاعة الهادئة التي كانت بطبيعتها ، وبدون جهد للارتفاع ، فوق الاحداث المخوفة : اجل ، كانت السيدة أناة وادعة امام الموت ، كما كانت مع الناس اجمعين . فلم يغضب للموت قلبها الكبير ولم يضق به ذرعاً . كلا ولم تحتقره في اختيال ، بل اكتفت بمقابلته من دون اضطراب . يا للعزاء الحزين ، اذ فقدناها ، على الرغم مما اظهرت من عظيم الشجاعـة ! ذلك هو عبث الاشياء الانسانية الا كبر . فبعد ان نتغلب على الموت ، ان وفتى هذا التعبير ، بما نبذل من جهد فائق ، يعود فيطفئ فينا هذه الشجاعة التي كان يبدو اننا نقتحمه بها . ها هي ذي الاميرة العظيمة الحبيبة ، برغم قلبها الكبير ! ها هي ذي ، كما صيرها الموت ؛ وستزول كذلك هذه البقية ، هذا الظلال من المجد سوف يتلاشى ، وسنراها مجردة حتى من هذه الزينة الكئيبة . ستنزل الى هذه المحال المظلمة ، الى ما تحت الثرى من مساكن ، لتنام فيها بين الغبار مع عظماء الارض ، مع هؤلاء الملوك والامراء البائدين الذين نكاد لا نجد لها بينهم موضعاً ، لفرط تزاحم الصفوف ، فما اسرع ما يملأ الموت هذه الاماكن ! ولكن الخيال يخدعنا هنا كذلك . فالموت لا يترك لنا من الجسم ما يشغل مكاناً ما ، فما إن نجد هناك الا الاجداث (٢) بادية للعيان . لن تلبث لحومنا ان تغير طبيعتها ، وجسمنا يأخذ اسماً آخر ؛ حتى اسم الجثمان لا يبقى له طويلاً ، لانه ، كما يقول تورتيليان ، يظهر لنا شكلا انسانياً : انه ليصبح شيئاً لا اعرف ما هو وليس له في لغة من اللغات اسم ؛ فمن الحق اليقين ان كل شيء فيه يموت ، حتى هذه الالفاظ الحزينة التي ندعو بها بقاياه التاعسة !

---

(١) زوجها ، وهو اخو الملك . (٢) جمع جدث : وهو القبر

هكذا مجد القدرة الالهية الساخطة يحق على كبريائنا تدفع بها الى العدم ؟ وهي تسوي بيننا جميعاً فلا تجعل منا غير رماد واحـــد . أفي المستطاع ان نبني على هـــذه الانقاض ؟ أفي المستطاع ان نؤسس مطلباً عظيماً على هذا الحطام الذي لا بد ان تئول اليه الاشياء الانسانية ؟ ولكن ماذا ايها السادة ، أكل امل فينا الى خيبة لذن ؟ أيسحق الله أمجادنا جميعاً حتى تصير غباراً ولا يترك لنا من رجاء ؟ هـــو الذي لا يخفى عليه شيء والذي يتبع اجزاء جسمنا الصغيرة مها يقذف بها الفساد والصدفة في مكان سحيق ، أفتراه يأذن ان يبيد من دون عون ذاك الذي جعله جديراً بمعرفته وجبه ؟ ههنا يعرض لي نوع جديد من الأشياء : ان ظلمات الموت لتتبدد ، و « تتفتح السبل الى الحياة الحقيقية (١) » ليست السيدة أبداً في القبر ؛ لقد وطد الموت كل شيء ، من حيث خيل الينا انه قوض كل شيء : هذا هو سر قول الحكيم الذي أشرت به اليكم منذ بداية هـذا الخطاب والذي عليكم الآن ان تكتشفوا لبابه .

علينا اذن ايها المسيحيون ان نعتقد ان لنا ، الى جانب العلاقـة التي تربط جسمنـا بالطبيعة المتغيرة الفانية ، علاقة وثيقة وقربى خفية من الله ، لانه تعالى هو الذي اودعنـا قوة نستطيع ان نعترف بحقيقة وجوده وان نذعن لسامي قدرته وان نستسلم لخفي حكمته وان نركن الى رحمته ونخشى عدالته ونعقد الرجاء بأزليته . من هذه الجهة ، اذا اعتـقد المرء يا سادتي ان فيه عناصر السمو فانه لا يضل . لانه اذا كان محتوماً ان يلتـحق كل شيء بمصدره ، فيعود الجسم لهذا السبب ، كما يقول الحكيم ، الى الارض التي خرج منها ، فمن الحتم ، لهذا السبب نفسه ، ان يثوب الى الله ما كان فينا يحمل الطابع الالهي ، ما كان فينا جديراً بالاتصال بالله ؛ ولكن ايكون الذي يجب ان يعود الى الله ، مصدر الجـــلال الأسنى ، إلا عظيماً وسنياً ؟ من اجل ذلك ، عندما قلت لكم ان العظمة والمجد بيننا ليست إلا اسماء فخيمة لا مادة لها ولا معنى ، فأنا انما كنت انظر الى استعمالنا السيء لهذين اللفظين . ولكن إن اردنا الحقيقة بكل اتساعها فليس الضلال ولا الزهو بالذين ابتدعا هذين الاسمين الرائعين . لا بل انا ما كنا لنجدهما ابداً لو لم يكن لهما اساس في نفوسنا : إذ أنّى لنا ان نأخذ من العدم هذه الافكار النبيلة ؟ فالخطأ الذي كنا نتورط فيه لم يكن في استخدامنا هذه الأسماء ، ولكن في اسنادها الى اشياء حقيرة . لقد فهم سانت كريزستوم هـذه

---

(١) من مزامير داود

الحقيقة جيداً عندما قال : « المجد والثراء والنبالة والسلطان لن تكون لابناء هذا العالم غير أسماء ، أمّا لنا ، اذا كنا نجدّ في طاعة الله ، فانها اشياء . وعلى النقيض من ذلك الفقر والعار والموت ، فانها اشياء راهنة محققة من أجلهم ؛ أما لأجلنا فهي محض أسماء . » لأن الذي يرتبط بالله لايفقد مالاً ولا شرفاً ولا حياة . لا تعجبنّ اذاً اذا ردد الحكيم غالباً أن « كل شيء عبث . » فقد اضاف مفسراً أن « كل شيء عبث تحت الشمس » يعني كل ما تحده السنون ، كل ما تذهب به سرعة الزمان . أخرجوا من الزمان ومن التبدل ، إرموا بابصاركم الى الأبدية لا تمتدّ اليكم يد العبث والفناء ابداً . لا تعجبنّ اذا كان هذا الحكيم نفسه يحتقر كل شيء فينا ، حتى الحكمة ، ولا يجد خيراً من تذوق ثمرات العمل الصالح في هدوء . الحكمة التي يتحدث عنها ههنا هي الحكمة الرعناء الحاذقة في تعذيب نفسها ، الماهرة في خدعة هذه النفس ، التي توردها مورد الهلاك في الحاضر ، وتضلّ معها في الآتي ؛ الحكمة التي تطيل التفكير وتجتهد في التدبير ثم لا تفعل شيئاً غير ان تضني نفسها عبثاً بركام من الاشياء التي تعصف بها الريح . « هيه ! » يهتف هذا الملك الحكيم « أهناك شيء باطل كهذا ؟ » أليس محقاً في تفضيل حياة معتزلة يتذوق المرء فيها على هينته بقلب سليم هذا الخير القليل الذي تحبوه الطبيعة به ، على هموم الطامعين وغمومهم ، على احلام الشرهين المقلاق ؟ ثم يضيف : « بيد أن هذا نفسه ، هذا الهدوء ، هذه الحياة الرخيّة ، هي كذلك باطل ، لأن الموت يعكّر كل شيء ولا يبقي على شيء . لندعه اذاً يستخفّ احوال هذه الحياة جميعها ، لاننا أخيراً ، مهما التفتنا رأينا الموت وجاهاً على الدوام يغشى بدياجيره ايامنا الجميلة جميعاً . لندعه يعدل المجنون بالحكيم ؛ بل إني لا اخشى أن أنادي بجهير القول على هذا المنبر : أن دعوه يلبس (١) الانسان بالبهيمة . وهذا هو الواقع ؛ فالى ان نجد الحكمة الصحيحة ، وما دمنا ننظر الى الانسان بعيني جسمنا ، ولا نستبين بعقلنا ما فيه من مبدأ خفي لكل أعماله ، ما فيه من قوة تستطيع ان تتصل بالله ويجب لذلك ان تعود اليه ، فما عسانا ان نرى في حياتنا غير الهموم الحمق ؟ وما عسى ان نرى في موتنا غير انفاس تخمد . . . غير آلة تختل وتتفكك ثم تصبح حطاما ؟ فاذا أعيتنا هذه المبطلات فلنتحرّ ما فينا من عناصر العظمة والقوة . لقد أوضحها لنا الحكيم في الكلمات الاخيرة من سفره ؛ وقد أرتنا « السيدة » ذلك في اعمال حياتها الأخيرة :

(١) يخلط

« إخش الله واحفظ حدوده ، فهناك الرجل كله » ؛ فكأنه كان يقول : ليس الانسان هو الذي أحتقر ، بل الضلالات التي يُوحَل فيهـــا ويجلب على نفسه المهانة والعار من أجلها [1] . أتريدون ان تعرفوا بموجز القول ما هو الانسان؟ كل واجبه ، كل هدفه ، كل وجوده في خشية الله ؛ وما خلا ذلك باطل ؛ أصرّح بذلك ؛ ولكن ما خلا ذلك ليس من الانسان في شيء . هذا هو الشيء الحقيقي الوطيد الأركان الذي لا يستطيع الموت ان ينتزعه « لأن الله » يضيف الحكيم « سينظر في حكمه الى كل ما فعلناه من خير وشر . » انه لمن السهل علينا الآن ان نوفق بين الامور جميعاً . يقول صاحب المزامير « سيذهب الموت بكل افكارنا » ؛ نعم ، تلك التي تستأثر بها الحياة الدنيا ستصير الى زوال . اذ على الرغم من ان لذهننا طبيعة باقية ، فانه سيترك للموت كل ما يسخره للاشياء الفانيــة ؛ بحيث ان افكارنا التي لا تمتد اليها يد الفساد من جهة الأصل والمبدأ تصبح فانية من حيث الهدف . أتريدون ان تنقذوا شيئاً من هذا الدمار الشامــل المحقق ؟ اذن فأخلصوا الحب لله ، فما من قوة تستطيع ان تسلبكم ما تودعونه يديه الآلهيتين ، ولسوف يكون في مكنتكم ان تستهينوا بالموت في شجاعة ، على مثال فقيدتنا الباسلة [2] . . .



(١) اختصرنا هنا ، من قوله : فكأنه ، الى قوله : أجلها . (٢) أعجلنا الطبع عن استيفاء هذا الخطاب النفيس ، فنأسف .

الدور الثالث

دور الانتقال

١٦٩٠ - ١٧١٥

نحن الآن في العقد الأخير من القرن السابع عشر ، ولم نزل نتوقّل بك في هـذا الجبل الباذخ حتى بلغنا ذروته . وراءنا عهد ذهبي شهدت فيه فرنسا مجداً عسكريا وادبيـاً يذكرنا باروع العصور وأخلدها ، يذكرنا بعصور بركليس واغسطوس والرشيدوالمأمون. وامامنا نطلّ على بقية من هذا العهد تمتد حتى تبلغ خمساً وعشرين عاماً ؛ اذ لا ينبغي ان يذهب عنك اننا جارينا علماء الأدب فنسأنا (١) من أجَل هذا القرن وجعلنا ختامه وفاة لويس الكبير عام ١٧١٥ . هذه الفترة الباقية من القرن العظيم هي في عرف العلماء : دور الانتقال من افكار هذا القرن ومثله الى افـكار القرن الثامن عشر ومثله . فيهذا الفصل سنحدثك عن الحياة السياسية كذلك وعن انعكاساتها في الادب ؛ غير اننا سنقف بـك قليلا لنجوس خلال المجتمع الفرنسي ، فنحتك بطبقات الشعب الذي درسنا ادبه ومازلنا نستشرف منه الى مزيد ، ولنرقب عن كثب سير الحياة العامة فيه :

بقي المجتمع الفرنسي في هذا العصر كما كان في العصور الوسطى مبنيـــاً على نظام الطبقات : رجال الدين ، والاشراف ، وسواد الشعب ، او العامة . غير انّ نظام الطبقات كان على جانب من التعقيد . فلم يكن افراد كل طبقة سواء ؛ وكثيراً ما لعب افـراد من العامة ادواراً كبيرة لم يتح لرجال الطبقتين الاخريين ان يلعبوها (٢) .

فاما رجال الدين فقد حدثناك في فصل سابق عن بسطة نفوذهم وسعة ثرائهم ؛ ومع ذلك فقد كان نصيب الحكومة من اموالهم ضئيلا جداً : كانوا في الواقع صنفين ، الاول هو الذي تهكم به موليير في طرطوف ، وهم من الاغنياء وذوي الوجاهة ، ومنهم يكون

---

(١) أخرنا (٢) Les temps modernes 259 -261



لويس الرابع عشر

المطارنة والاساقفة ورؤساء الاديرة ، الذين كانوا يختارون في الاغلب من طبقة النبلاء فيعيشون في فرساي ، كما يعيش النبلاء ؛ في بذخ وعبث ، ما خلا نفراً قليلا منهم أوفوا عهد الدين وكانوا كهنة صالحين ، كبوسويه وفينيلون . والثاني من الفقراء البائسين الذين قلما نالوا حظاً من العلم او الجاه : اولئك هم الخوارنة ومن يليهم في مناصب الكهنوت . كان بين الفريقين هوة سحيقة ، فمن اولئك الكبرياء والاحتقار ، ومن هؤلاء ، وهم الكثرة الغامرة ، البغضاء والنفار (١) .

واما الاشراف فهم اصحاب الاراضي الذين يتمتعون بحقوق الاقطاعيين ، فيحملون شارات الشرف ويقدمون في الكنائس ويُعفون من الضرائب ، وتعقد لهم الألوية ، ويختار منهم كبار الموظفين . افراد هذه الطبقة متفاوتون كذلك : فقد جعل الملوك يختارون منها فريقاً يثقون به ويسترسلون اليه فترك اراضيه واقام في فرساي لاهياً رافهاً في خدمة الملوك . هؤلاء هم « اشراف القصر » الذين كانوا قدوة الفرنسيين والاجانب بما يتخذون من ازياء وما ينهجون من عادات . اكثرهم من المثقفين المعنيين بالآداب والفنون والمحافظين على تقاليد الارستقراطية المترفة وما أثر عنها من دماثة المعشر وحلاوة الحديث . عن هذه الطبقة حدثتنا « رسائل مدام دي سيفنيه » وستحدثنا « مذكرات سان سيمون . »(٢) وفريق آخر لزموا اراضيهم ، وهم « اشراف الولايات » الذين كانوا حملة السلاح ووقود المعارك . لقد ساءت الحال بهم كثيراً ، ولا سيما زمن لويس الرابع عشر ، فنهكتهم الحرب ولزمتهم الديون ، فاضطروا الى بيع جانب من ارضهم ليوفّوا ما عليهم . جهد ما كانوا يبتغون أن ينظموا بعض أبنائهم في وظائف الدولة او الكهنوت (٣) !

طبقتا رجال الدين والاشراف لم تتجاوزا في القرن السابع عشر خمسمائة الف نسمة من تسعة عشر مليوناً هم جملة الشعب . يليها في النظام الاجتماعي : طبقة العوام ؛ وهم كذلك فيما بينهم درجات ، أعلاها حظاً : البورجوازية ، وفيها اغنياء التجار والصناع ورجال المال وارباب المهن الحرة من اطباء ومحامين ، وموظفو الحكومة وفي مقدمتهم رئيس البرلمان . لقد أعفيت البورجوازية من بعض الضرائب ، واقتصرت عليها وحدها مجالس البلدية ؛ وكان بعض افرادها يتحولون الى اشراف ، كما تقضي بذلك بعض المناصب الخطيرة التي يشغلونها ، وبخاصة مناصب البرلمان . والحق ان الدور الذي لعبته البورجوازية

(١) Les temps modernes 259—261 (٢) Tapié 56, 154
Les temps modernes : 261



مدام دي مانتونون

من الخطر بمكان : فكان في يدهم الادارة والقضاء ، ثم آل اليهم الحكم في عهـــد لويس الكبير ، لانه كان يختار وزراءه واكثر اعوانه منهم . اما رجال المال فقـد كانت حاجة الدولة اليهم تزداد كلما رهق الدولة عجز وخيّم الفقر على البلاد . وكان الملك يتوجه اليهم في المواقف الحرجة ويدخل في شروطهم . فجنوا من ذلك ارباحا طائـلة ، سلكوا اليها في الغالب طرقاً دنيئه ، اثاروا بها بغض الشعب واحتقاره : هؤلاء هم المرابون الذين هزأ بهم موليير في رواية البخيل . وقد استطاعت البورجوازية ، بما تكدّس لديهـا من ثراء ، ان تستنزل الاشراف عن بعض اراضيهم ، واصبحت مع رجال الكهنـوت اكبر اصحاب الارض . وجماع القول : لم تكن الشقة بين الاشراف والبورجوازية من البعد كما يخيّل الى كثيرين ، فكم من شريف تدلّى به الفقر الى بورجوازي صغير ، وكم من بورجوازي اغتنى واتسع فارتفع من غمار الناس حتى صاهر الاشراف . الا تذكر ملهاة « البورجوازي النبيل » لموليير ، وكيف كان الاصهار الى الاشراف بداعب مخيلته ؟ خذ مثالاً من الوزير « كولبير » ، فقد رفعه منصبه من تاجـر عاديّ الى شريف سريّ ، ثم زوّج بناته الثلاث الى نفر من كرام النبلاء !

واخيراً طبقة العمال والفلاحين ، وهم سواد الامة والمنتجون فيها . كانوا يعيشون في شظف وفاقة ، ولاسيما الفلاحين ، فقد كانوا يرزحون تحت اعباء الضرائب الفادحة ؛ وكان استبداد الاقطاعيين والجنود يزيد حالتهم سوءاً ؛ ولعلك لم تنس قصة : « المـوت والحطاب » للافونتين ، فهي تصور لنا جانباً من شقائهم ؛ وكثيراً ما فدحهم الخطب حتى أعيا على ولاة الامور ضبطهم ، فاظهروا نشوزهم على الطاعة ، وثاروا وهم معازيـــل من كل سلاح ، فقمعهم اولو الامر واثخنوا فيهم . وعلى هذا فلم يكن جلال « العصر العظيم » ورواؤه الا ظاهراً يكمن وراءه آلام واحزان (١) . ارأيت كيف يكون وراء كل بذخ وتبذير حق مضيّع ؟ يقول الاستاذ ماليه : « كان القرن السابع عشر المجيـد ، عصر ريشيليو ومازاران ولويس الكبير ، قرناً كالحاً شتيما (٢) على طبقة الفلاحين ، وهم كثرة الشعب الغالبة (٣) . »

لسنا ندفع تلك الرغبة الصادقة التي ابداهـــا لويس الرابع عشر ووزراؤه ، وعلى رأسهم كولبير ، في تخفيف ويلات الشعب واصلاح مرافق الدولة وتشجيع العلماء والادباء

---

(١) المصدر السابق 261-264 (٢) كريه الوجه (٣) Malet 112



الأزياء في القرن السابع عشر

فارس وسيدة من علية القوم يحتسيان القهوة

ورجال الفن ؛ بيد أن المؤرخين قد اخذوا عليه اموراً خطيرة اذا وضعت في كفةسيآته كادت تعدل حسناته او تزيد عليها : اخذوا عليه طموحه العسكري ورغبته في توسيع حدود فرنسا وايقاع الرهبة في قلوب جاراتها ؛ تلك هي في الحقيقة خطة ريشيليو ومازاران من قبله ؛ غير ان الوزيرين الكبيرين استطاعا بدهائهما ان يكسبا الى جانبهما الامم الاوروبية ، لانهما لم يفخرا بقوتها وكانا يحتجان دائماً بسعيها الى حفظ التوازن الدولي واقرار السلام . اما لويس فقد نهج منذ البداية سياسة المجد والغلبة ، فأقلق بذلك الاحلاف فانقلبوا عليه ورموه عن قوس واحدة وكالبوه من كل جانب (١) . ان اوضح مثالين على زهو هذا العاهل وحرصه على بسط نفوذه من غير نظر الى عواقب الأمور هما حادث السفيرين في لندن ، ثم خلافه مع البابا . فقد نمي الى لويس الرابع عشر ان سفير اسبانيا تقدّم سفيرَه في احتفال جرى في لندن ، فغضب اشد الغضب ، وهدّد بالحرب ملكَ اسبانيا ، وهو ابو زوجته ، اذا لم يبادر لتقديم الترضية ، ففعل . وفي الوقت نفسه كان الحرس البابوي قد اساء الى السفارة الفرنسية في روما ، فما كان من لويس الرابع عشر الا ان احتلّ « أفينيون » و « فينيسان » وهدد بغزو ايطاليا ، ما لم يعتذر اليه سفير من البابا على ملأ من الناس ، وما لم تبادر قداسته لتخليد هذا الاعتذار على نُصب تقيمه في روما وتتخذ لحفظه الحيطة الكاملة ، ففعلت (٢) !

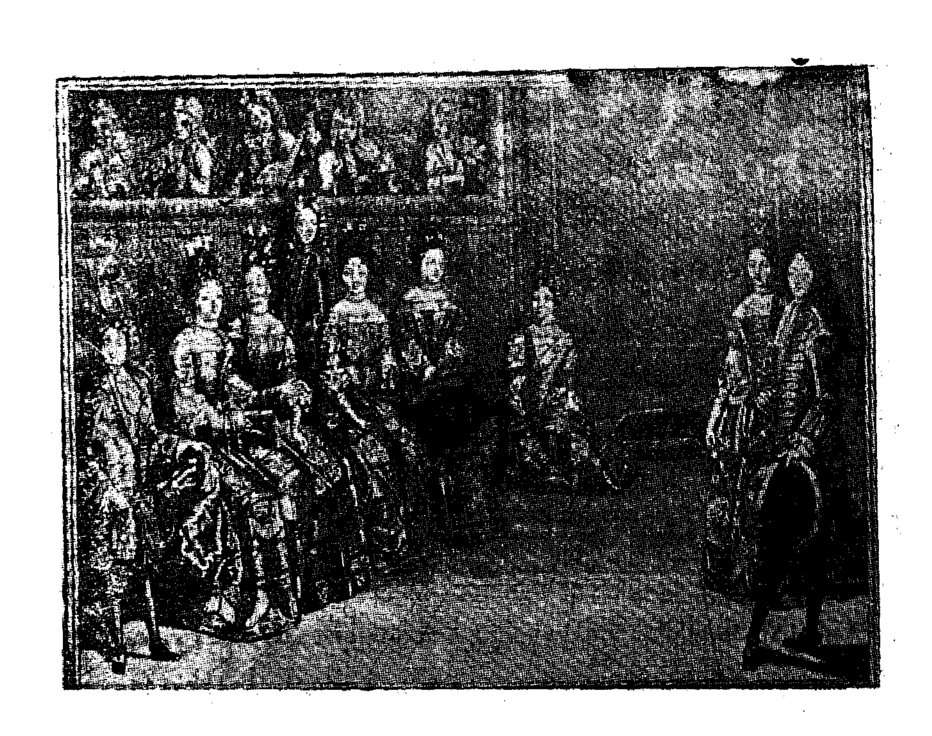
هكذا لقحت الحرب بين لويس الرابع عشر ومن حوله من الدول . والئن استطاع ان يقهر اعداءه ويكلل بالظفر جيوشه قبل ١٦٨٨ بما وفّق اليه بادىء الامر من وزراء اخيار مثل كولبير ووزير الحرب « لوفوا » ومن قادة حزَمَة مثل (كوندي) و (تورين) ، ومن ساسة أكفياء مثل (هوجز دي ليون) ، فان استمرار الحرب وكثرة العدو وفقدان هؤلاء الرجال العظام ، كل اولئك قد اثقل كاهل الفرنسيين بعد ذلك التاريخ ؛ حتى اذا كانت حرب التنازع على العرش الاسباني ، وهي من أذكر حروب لويس وأضراها ، جهدَ الفرنسيين الحصارُ وناء بهم الحمل وطمع في تهضم جانبهم من لم يكن يقوم لهم ، واصبحوا يريدون ان يضعوا الحرب ويخلدوا الى السلم فلايستطيعون(٣)!

ثم اخذوا عليه تعصبه الديني : ذلك بان استبداد هذا العاهل لم يقتصر على السياسة

---

(١) Tapié 199, Les temps modernes 305

(٢) Les temps modernes 309—311 (٣) المصدر السابق 323 301 ، ثم Tapié 179—199



الأزياء في القرن السابع عشر
ترى وفرات الشعر المستعار على الرءوس

بل تعداها الى امور الدين ؛ لم يكن صدره ليتسع لغير سلطته ان يكون لهاصوت مسموع في بلاده ؛ ومن هنا نشأت تلك الخصومة بينه و بين البابا ، وقام بوسويه على رأس الاكليروس الفرنسي يعلن استقلال الكنيسة الفرنسية، ذلك الاستقلال الذي لم يطل ان امّحى ، نظراً لتألب الاعداء وحاجة الملك الى معونة البابا . وكان لويس الرابع عشر يفسر كل اختلاف معه في المذهب بأنه خروج عن الطاعة ؛ وقد جعل شعورُه بالعداء نحو فريقي الجانسنيين والبروتستان يزداد في الشطر الثاني من حكمه ؛ وما زال يوقع بالفريقين اذى وتنكيلا حتى هدّم دير الجانسنيين وجدّ دابرهم واحرق كتاب « الريفيات » الذي نافح فيه باسكال عنهم . اما البروتستان فقد كان ظلمه لهم اقوى ، مع انهم كانوا رعية صالحة لم تدّخر وسعاً في خدمة الوطن والوفاء لصاحب التاج . واخيراً بلغ من ظلمه ان ألغى عهدة «نانت» التي تحفظ لهم حقوقهم ، وامر بتهجيرهم، فخسرت البلاد بذهابهم حوالي خمسمائة الف رجل من خيرة تجارها وصناعها ، خمسمائة الف رجل هم ثلة مختارة في الجد والخلق، فليس قليلا ان يهجر القوم ديارهم ويزهدوا في ممتلكاتهم حفاظاً على عقائدهم ! هذا ولو رحت تبحث في اسباب هذا الاجماع الذي اظهرته الدول البروتستانية المجاورة على مناصبة الفرنسيين العداء لوجدت في طليعتها نقمتهم على سياسة الملك الدينية . وكثيراً ما كان ثوار البروتستانت ، وهم قوم حمسٌ مغامرون ، يغتنمون الفرص، فيخرجون من معتصمهم في الكهوف وممتنع الجبال ، فيأخذون الجيش من ورائه ويخذّلون عنه الانصار (١) !

ومما اخذوا عليه اسرافه في بناء القصور ، فبنى فرساي ومارلي والتريانون (٢) ... وانفاقه من دون حساب على النبلاء والحاشية في الاعياد والحفلات ، مما لم تثمر معه جهود كولبير العظيمة في اصلاح احوال البلاد الاقتصادية ودعم خزينة الدولة (٣) . كان يريد ان يضمن هيبة فرنسا في قلوب اعدائها ، وكان يرى ان انجع وسيلة لذلك هي الظهور امام السفراء والاجانب في أبهة وفخامة !

وكأن الطبيعة ارادت ان تصب كذلك ويلاتها ، فاذا أشتيةٌ زمهرير تتوالى ، افدحها شتاء ١٩٠٩ ، فيبست الزروع وذاق الشعب مرّ الشدائد ؛ وازدادت حاجة الدولة الى جباية الضرايب ، حتى كانوا كما يقول سان سيمون يبحثون عن المال في عظام الرعية ، وقدّر (فوبان) عدد الشحاذين بمليونين ، وغزا البؤس قصر فرساي نفسه ،

---

(١) Les temps modernes 237—241 م Le siècle de Louis XIV, P: 2

(٢) لويس الرابع عشر ٩١-٩٢ (٣) Les temps modernes 253

وتكفّف (١) قوّامه وخدمه ؛ ونقص عدد السكان من تسعة عشر مليونا الى سبعة عشر ! ولم يكن لويس الرابع عشر بنجوة من هذا الشقاء ، فلقد كتب عليه ان يفقد ابنه وبعض احفاده واعزّائه ؛ وكأنه أخذ يشعر بأنه يحمل كبَر هذه النوائب بما انشب من حروب وبدّد من اموال ؛ وإنه لفي غمرات الموت اذ دعا بحفيده وأنشأ يقول له : «اي بني ، عما قليل تصبح ملكا عظيما ، فلا ينبغي لك ان تقتدي بي فتميل الى بناء القصور وخوض الحروب . إجهدْ ان تخفف آلام الشعب ، فقد آلمني واشقاني اني لم افعل ذلك .» ثم التفت الى حاشيته وهم وقوف حوله ، فاعتذر اليهم «من القدوة السيئة التي كانها لهم .» لقد تحمل الآلام ، وعاين الموت يدانف منه ، في شجاعته اثارت اعجاب الجميع ؛ ثم لفظ انفاسه الاخيرة ١٧١٥ عن سبع وسبعين عاماً ، بعد ان وجّه بنفسه ، من غير ضعف ولا انقطاع ، شئون المملكة جميعها اربعا وخمسين عاما (٢)

يقول سان سيمون : «لما نعي لويس الرابع عشر الى الناس اخذتهم هزّة الفرح وتفاءلوا بانكشاف هذه الغمرة وحمدوا الله على خلاص كانت تهفو اليه افئدتهم (٢)».

اما الادب فلم يكن في معزل عن هذا كله ؛ فلما استشرى الخطب واتسع الخرق اخذ الادباء يتناولون بالبحث اسباب هذه المآسي وطرق علاجها . كان فينيلون يرى ان استبداد الملك هو السبب الاول ؛ وكان ينصح ان يعتمد الملك على مجالس نيابية حرة . اما «فوبان» فقد كان يرى موضع الضعف في نظام الضرائب الذي يعفي بعضاً ويثقل آخرين ، وكان ينصح باقامة نظام يعدل بين الجميع (٢) .

اضطلاع الشعب عن طريق نوابه بمسئوليات الحكم ، والعدالة في توزيع الضرائب: هما حلما الادباء في الدور الثالث من القرن العظيم ، ولسوف تجعلهما الثورة الفرنسية بعد خمسة وسبعين عاما حقائق راهنة (٢) .

المعركة بين القدماء والمحدثين

يتألف المثل الاعلى للادب الاتباعي من عنصرين مختلفين : الميل الى تحكيم

---

(١) تكفف : مد يده يسأل الناس

(٢) Malet 291—292 ، مادة : Louis XIV في Larousse du xxème siècle ، Tapié 200—206 ، Les temps modernes 318—319

العقل ، وحب الجمال . فاما العقل فكان يصرف انظار الادباء عن القدامى ويندبهم الى الا يستشيروا سواه . واما حب الجمال فكان يلفت الانظار الى الاقدمين ويدعو الى تفهم آثارهم الخالدة ؛ كما انه كان يحدّ من سلطان العقل على الأدب ويوسع المجال للفنّ ان يبسط نفوذه عليه ، حتى لتجد روائع المنظوم والمنثور في القرن السابع عشر كلها تقريباً من انتاج مدرسة المعجبين بالقدماء [1] .

بيد ان نموّ مذهب العقليين أعلى صوتهم آخر الأمر ومكّنهم في نهاية هذا القرن من تحطيم المثل الاعلى للاتباعيين ، في معركة عنيفة طويلة ، هي المعركة بين انصار الادب القديم وانصار الادب الحديث [1] .

• • •

لهذه المعركة اصول بعيدة ، نجد بعضها في تلك الحركة النقدية التي دارت حول رواية « السّيد » ما بين عامي ١٦٣٥ — ١٦٣٦ . ثم اخذ الأديب « دماري دي سان سورلان [2] » يدافع في مقدمات تآليفه عن الملاحم العصرية التي تستمد غذاءها من التقاليد الوطنية والعقلية المسيحية ؛ فنهدَ له بوالو في منظومته « فن الشعر » وأسقط مذهبه هذا واشعاره ١٦٧٤ . وفي الوقت نفسه جعل قوم يوازنون بين اللغتين : اللاتينية والفرنسية ليفضلوا هذه على تلك . وقد اعترضتهم عام ١٦٧٥ هذه المشكلة : ارادوا ان يكتبوا على احد اقواس النصر شيئاً ، فجعلوا يتساءلون : بأي لغة نتحدث عن نصر الملك ، أبالفرنسية ام باللاتينية ، وجرّهم ذلك الى تعميم المشكلة والغوص الى جذورها : أيها ارقى ، الآداب الحديثة ام القديمة ؟ وفي ذلك الحين ألف « شاربانتيه » كتابه : « امتياز اللغة الفرنسية [3] » .

على ان الخصومة لم تتجاوز بعض المناوشات الا عندما وقف الاديب « شارل پيرّو [4] » ، مؤلف : (قصص الجنّ [5]) ، يعلن على رءوس الاشهاد في المجمع العلمي تفوّق الشعراء المحدثين على شعراء اليونان والرومان :

ان الآداب القديمة لجديرة دائماً بالاحترام .
بيد أني لم اعتقد انها تستحق العبادة يوماً من الايام .

---

(١) L.T. 322 (٢) Desmarets de Saint-Sorlin
(٣) L'Excellence de la langue française (٤) Charles Perrault
(٥) Contes des fées



قاعة البلور في قصر فرساي

انا انظر الى الاقدمين من غير ان أحني ركبتي :
فهم في الحق عظام ، بيد انهم رجال مثلنا .
نستطيع ان نقابل ، من غير ان نتورط في ظلم ،
عصر لويس الكبير بعصر اوغسطوس الجميل .

ثم اتبع ذلك بكتابه : « الموازنة بين القدامى والمحدثين » وفيه يعرض التدليل التالي : ان قانون العقل الانساني هو التطور : في العلوم نحن اعلى كعباً من الأقدمين ، فيجب ان نتفوق عليهم في الآداب ايضاً . كان الاقدمون اطفالاً في كل شيء ، اما المحدثون فهم يمثلون الفكر الانساني في طريقه الى النضوج . مصداق ذلك الآثار الادبية نفسها من قديمة وحديثة : فبسكال اعظم من افلاطون ، وبوالو يبرع هوراس ، وفي رواية « كورش » من الابتداع اضعاف ما في الألياذة . . .

هنالك اسباب كثيرة تفسّر تفوّق المحدثين : تأخرهم في الزمان ، طول باعهم في دراسة النفس ، اسلوبهم الأكمل في التفكير ، الطباعة ، المسيحية (١) . . .

وانحاز الى برّو أديب آخر هو « فونتونيل » في كتابه « إلماح الي القدماء والمحدثين (٢) » ، وهو يرى ان الطبيعة هي هي في كل زمان ، لا ينضب معينها ولا تتغير حقيقتها ؛ ففي عصرنا من العقول النيّرة مثل ما كان في اي عصر مضى . هذا الى ان كل جيل يرث معارف الاجيال قبله ، فنحن نملك علوم الماضي وتجاربه ، بالاضافة الى علومنا وتجاربنا . لقد جثم المحدثون على اكتاف القدامى فرأوا أبعد مما رأى هؤلاء ، ووضعوا المكبرات على عيونهم فرأوا اوضح مما رأى السلف (١) .

وظاهر أن انصار الحديث هم من العقليين ، تلاميذ ديكارت ، الذين كانوا يؤمنون بتدرج الآداب نحو الكمال ، اسوة بالمعارف الانسانية الاخرى . على ان تاريخ الآداب يشهد بان العصور الادبية ليست سواءً كما يزعم فونتونيل ، وبان تطور الآداب لا يلازم الصعود دائماً ، بل انه كثيراً ما يسير في انحدار وانحدار ؛ فلئن كان العصر السابع عشر يوازي عصر أوغسطوس او يقدّمه (٣)، فان القرون العشر التي تقدمته لا تساوي مجتمعةً احد هذين العصرين ولا تقاربه .

وظاهر كذلك ان هؤلاء العقليين ما فضّلوا ادباء القرن العظيم على ادباء اليونان

---

(١) L.T. 323—324 ثم L.F.U. 39—40

(٢) Digression sur les anciens et les modernes (٣) يفوقه

والرومان إلاليؤيدوا رأيهم في اضطراد رقيّ الآداب ، وليحطموا بعدئذ مُثُلَ الاتباعيين مع المثل القديمة ، وليرفعوا انفسهم على كل من تقدمهم . ولقد فازوا آخر الأمر بما أمّلوا ، فحرروا الادب من احتذاء القدامى وصرفوا الناس عن احترامهم ؛ ولكنهم في الوقت نفسه كانوا السبب في تدهور الآداب الفرلسية كما يشهد بذلك جهابذة النقد الى هذا اليوم .

رجحت كفة انصار الحديث اذاً وما كان لها إلا أن ترجح ، اذ انها لم تكن تدعو إلا لتقديم خصومها انصار الآداب اليونانية والرومانية على الاقدمين ؛ واعترف انصار القديم بأنهم لم يقصّروا في حق الادب ولم يُخملوا العصر الذي عاشوا فيه ، وما لهم ألا يعترفوا وفيهم بسكال وكورني وبوالو ولافونتين وبوسويه وفينيلون وراسين ولاروشفوكو ولا برويار . . . وغني عن البيان ان نصر دعاة المذهب الحديث هو في الحقيقة نصر لخصومهم وهم تلامذة الآداب القديمة واساطين البيان في هذا العصر الذهبي كما قدّمنا ؛ وغني عن البيان كذلك ان انتصار هؤلاء للقدامى هو نوع من الاعتراف بالجميل والتواضع النبيل اللذين ألهموهما كما أُلهموا عبقرياتهم وزادتها المرقة تمكيناً في صدورهم ؛ اما انصار الحديث فانهم لم يعترفوا للقدماء بالجميل لأنهم في الواقع لم يقرءوهم ولم يُيسروا بهم الى آثار خالدة ؛ كلا ، ولم يتواضعوا لانهم لم يرتفعوا كثيراً فيشعروا بفضل التواضع !



فينيلون

١٦٥١ — ١٧١٥

نحن الآن في الدور الأخير من القرن العظيم ؛ بيد أن هذا القرن لا يزال غنياً بفحول الادباء . ولو شئنا ان نوردك مناهل ادبهم جميعاً لتشعّب بنا القول واتسع . فلنكتف اذاً بثلاثة منهم ، هم أنبههم وأبعدهم أثراً .

• • •



فينيلون

ولد فينيلون في السادس من شهر اب « اغسطس » عام ١٦٥١ ، في مقاطعـــة « بريجور [١] » ، من ابوين نبيلين ولكنها فقيران . وقد أعدّاه لخدمة الكنيسة التي كان يميل اليها بما جبل عليه من ورع وحرارة ايمـــان . كان يحلم ان ينضم الى احدى الارساليات ، فحال ضعف بنيته دون ذلك ، واكتفى بادارة بعض المنظات الدينيـة بحذق واخلاص كسباه صداقة « بوسويه » الذي كان يكبره بأربعة وعشرين عاما ، والذي مهد له دخول القصر مربياً لولي العهد ١٦٨٩ ؛ وكان فينيلون إذ ذاك يرقى درجات الشهـرة بتآليفه ، ولاسيا كتابه في « تثقيف البنات [٢] » ، وكان ولي العهد هذا طفلا شكساً [٣] عصياً ؛ فاستطاع فينيلون بما أوتي من كياسة وحلم عظيمين ان يذلّل من طباعه ويجعله طوع ارادته ، حتى انه كان يأمل ان يلعب ذات يوم دور ريشيليـو او مازاران ، حين يتاح لولي العهد أن يملك . لقد فتحت له استاذيته لولي العهد ابواب المجد . فهو الآن رئيس فريق من اتقياء القصر تحوطه السيدة دي مانتونون ، زوجة الملك غير المتوجة ، وترعاه . ولقد استقبله المجمع العلمي بين اعضائه ، ووُجهت اليه مطرانية « كامبري » ١٦٩٥ . وانه في حظوته لقوي مكين ، وان آمالاً رحيبة ليدنو قطافها منه ، اذ بهذه الحظوة تضيع ، واذ بتلك الآمال تنهار في بضعة أشهر :

ذلك انه كان قد تعرف بالمتصوفة الشهيرة : مدام جيون [٤] فصادفت دعوتهـا من قلبه المتعبّد الحالم قبولاً حسناً ، وجرّد قلمه للدفاع عنها في كتاب دعاه : « تأويل حكم القديسين [٥] » ، فتهدّد له « بوسويه » ، كما سلف عليك في ترجمته ، وكان عقليـاً يكره البدع في الدين والجري فيه على سنن الحالمين ؛ وشريت الخصومة بين الاديبين الصديقين وامتدت زهاء خمس سنين ؛ وعلم الملك بدعوة فينيلون هذه وهاله ان تكون السيدة جيون معلمة في مدرسة « سان سير » التي تديرها زوجة الملك ، تبشر فيها علانية بمذهبها الجديد ، وأن يعتنق فينيلون هذا المذهب وينشّئ ولي العهد عليه ، فأقال المربي وفرض عليه ان يلزم اسقفيته ، وظاهره البابا عليه ، فقضى ببطلان مذهبه . ثم كان ان الف قصته العظيمة « تيليماك » ، يعرّض فيها من طرف خفي بحكم لويس الرابع عشر ، ويرسم لولي العهد خطة أمثل في الحكم ، ووقع المؤلف في يد احد الناشرين فطبعه على غير علم فينيلـون ؛ فانقطع بذلك آخر امل في عودة الصفاء بين الملك والمربي . بيد أن نشاط الرجل لم يفتر أبداً .

---

(١) Périgord (٢) L'Education des Filles (٣) صعب الخلق

(٤) Mme Guyon (٥) Explication des maximes des saints

يقول سان سيمون : « ان اعمال البر وموالاة الزيارات التي كان يتعرف فيها بنفسه اجزاء اسقفيته كلها ، والحكمة واللطف في ادارته ، ومواعظه الكثيرة في المدينة والقرى، وسهولة طبعه ، وحدبه على الصغار وادبه مع الآخرين ، وظرفه الطبيعي الذي كان يملي من شأن ما يقول او يفعل ، كل أولئك حببه الى رعيته وأحلّه عندها اعلى مقام . » كذلك كان نشاطه في الاكاديمية ، وأهم ما قدم اليها رسالة عن شواغل المجمع العلمي الفرنسي (١) ١٧١٤ ؛ اما صلته بتلميذه الدوق دي بورجون فقد تجددت واستمر تأثيره عليه ؛ وكان فينيلون يمنّي النفس بان عهد الملك الشيخ قد شارف نهايته ، وان تسنم الدوق عرش المملكة اصبح وشيكا ، واذا بالمنيّة تعاجل ولي العهد ، فتقضي بذلك على آخر امل له . ومات فينيلون بعد ذلك بثلاثة اعوام ، ومات لويس الرابع عشر بعد بضعة اشهر (٢) ١٧١٥ .

* * *

المتحدثون عن فينيلون هم بين محب غالٍ في محبته ومبغض مسرف في ضغينته . كيف الحياد تلقاء هذه النفس البعيدة الغور ، المعقدة ، الشديدة الغموض ؟

فارع القامة الى نحافة ، وارد الشعر (٣) ، شاحب الوجه أنافيّه (٤) ، بعينين تومضان ناراً وتتدفقان ذكاء ، لا يكاد يراه الناظر حتى تنطبع صورته في مخيلته لتميزها ووضوح قسماتها . اما شخصيته فملتقى الاضداد حقاً ، تتلاقى فيها لتصطلح وتأتلف : وقار في ظرف ، وجد في دعابة ؛ روح العالم الى روح الكاهن الى روح السيد الماجد ؛ كل ذلك في ذكاء لماح وجاذبية آسرة وحشمة ونبالة ؛ وكل ذلك الى بلاغة عفوية سمحة مزهرة ، وادب جم واتزان . . . ابغض الاشياء اليه أن يبدو لمحدثه اكثر منه ذكاء ، واحبها اليه ان يدنو من متناول كل انسان من غير ان يشعره بتواضعه (٥) . على ان وراء هذا التواضع قدرة على الاغراء لا تقهر ، تسيطر على الناس وتربطهم الى عجلتها ، وطموحا شريفاً الى عظائم الأمور ومعاليها ، يمدّها خيال نافذ لا يعنى بمنطق الحوادث وامكانياتها . يقول لويس الرابع عشر : « إن فينيلون اذكى اذكياء مملكتي ،

---

(١) Lettre à M. Dacier sur les occupations de l'Académie française

(٢) رجعنا فيما تقدّم عن هذا الاديب الى L.T. 330—332 والى L.F.U. 47—48

(٣) الشعر الوارد : الطويل المسترسل (٤) الأنافيّ : الكبير الأنف

(٥) Mémoires de Saint-Simon : 63

غير انه أجراهم مع الاوهـام . » وعلى الجملة فهو رجل سلطة ، روحاني ، فنان معاً ، او بتعبير اوضح : انه اديب شخصي ، لا يصدر عن غـير طبيعته وميله ، انه اديب حديث (١) .

• • •

ادبه : — ترك فينيلون آثاراً كثيرة اهمها : « تثقيف البـنات » و « تيلماك » و « رسالة في شواغل المجمع العلمي » و « القصص الخرافية . »

« تثقيف البنات » : — الّف هذه الرسالة تلبية لرغبة صديقيه دوق ودوقة دي بوفيليه اللذين كان لهما ثماني بنات ؛ غير انه لم يفكر فيما سيكتب لها من رواج كبير حين وافق على طبعها (١٦٨٧) . كان هذا اول أثر له ، ومع ذلك فانت ترى فيه براعة فائقة في دراسة نفسية الطفل وفهما عميقاً لمهمة المربي ، اكتسبها من طول ممارسة التعليم في المنظمات الدينية ثم في القصر الملكي :

لم يكن الآباء والمربون يعنون بثقافة الفتاة في القرن السابع عشر الا قليـلا . واذا نحن وضعنا جانباً طائفة المتأنقات من نساء الصالات وعدداً ضئيلا من ذوات الثقافة الصحيحة من امثال السيدتين دي سيفنيه ودي لا فاييت والسيدة دي مانتونون ، زوجة الملك ، فان المرأة كانت على وجه العموم تمعه في ظلام الجهل (٢) . ولعلك تذكر الآن « ارنولف » ، الذي جعله موليير نموذجاً لكثرة الرجال في عصره ممن لا يرون للمرأة حق التعلم ويحرصون على بقائها جاهلة ليتصرفوا بها كيفما شاءوا . ففينيلون يبيّن لنا دور المرأة الخطير في المجتمع ويؤكد ضرورة العناية بتعليمها اولاً ، وبتوجيه هذا التعليم ثانياً الى ما يتفق مع طبيعتها ومهمتها في الحياة . لقد سخر قبله موليير بالآباء الذين يريدون ان يتركوا فتياتهم في ظلمات الجهالة ؛ ولكنه لم يعف من سخريته اولئك المتأنقات السخيفات اللاتي لم يشعرن بواقعهن ورحن يجارين الرجال في علومهم ، فاذا علمهن حذلقة بغيضة واذا ظرفهن بلهٌ وسماجة! كلا ، يقول فينيلون : «فللنساء بيت يتولّين ادارته ، وزوج عليهن اسعاده ، وابناء عليهن تربيتهم على خير وجه (٣) ؛ فينبغي لهن ان يتزودن من المعرفة بما يعين على النهوض بهـذه الوجائب ، ليكون العلم لهن زينة ، لا ليكنّ به متحذلقات خرقاوات . فهو يتلاقى مـع موليير في ضرورة اعتدال المرأة في تعلمها ، وفي وجوب تزويدها للحياة العملية التي خلقت

P ; 13 (٣) L'Education des filles : 8 (٢) L.T. 332 (١)

لها : عليها ان تتعلم القراءة والكتابة والحساب وان تشدو شيئاً من علم الحقوق لتستطيع ان تضبط نفقة بيتها وان تحسن التصرّف باملاكها ، وعليها ان ترقّي ذوقها بالرسم اذا استطاعت . ومن الغريب حقاً انه يحظر على المرأة أن تتعلم لغات حية ، وهو في الوقت نفسه يندبها الى تعلم اللاتينية ! وهذا ولا ريب راجع الى تعلق الرجل بهذه اللغة كأكثر رجال عصره . ولا ننسى فينيلون ، وهو احد كبار رجال الدين ، ان يطلب للمرأة علماً آخر لم يفكر به موليير من قبله ، فيوجب عليها ان تتفقه في الدين ؛ اما الموسيقا ، فهي كالشعر ، يخشى ان تحرّك الغرائز الخبيثة ؛ فهو ينصح بالاقلال منها ما امكن (١) !

وليس هذا حظّ المرأة كله من الكتاب ؛ فالمؤلف يعقد كذلك فصلين ممتعين يصف فيها المرأة وصفاً لاذعاً دقيقاً ، وينعى عليها فيهما بعض نقائصها ، ولا سيما حرصها الشديد على عرض مفاتنها ، وانهماكها في إحكام زينتها ، ورغبتها في اثبات ذكائها ، وانسياقها مع العاطفة ، ومخاوفها الصغيرة التي لا اساس لها ، ودموعها الرخيصة لأقل حادث يعرض لها (٢) . . .

غير ان اروع ما في الرسالة تلك الدعوة الى العناية بصحة الاطفال عامة ، ذكوراً كانوا ام اناثاً ، والى الرفق البالغ في تربيتهم ؛ انه عدو القهر والشدة والتضييق ، وصديق الحلم والوداعة والتشجيع . يدعو الى اقناع الولد والى اثارة الدوافع الشريفة في نفسه . يرى من واجب المربي ان يعوّد الولد ، كما تقول الآنسة آ . بيرّيه ، على ان يقرن فكرة اللذة بفكرة العمل ، فيبدو له الخير جميلا والدين جذاباً ؛ وتنقطع الصلة بين الدراسة والخوف والملل (٣) . من واجبه ان يحبب الجدّ الى طفله ، فلا يُكرهه على عمل ، ولا يوالي عليه العقوبة ، ولا يشعره الرهبة ؛ بل يدفعه الى العمل باثارة نخوته وحبه للاستطلاع ورغبته في التفوّق وحرصه على المكافأة ؛ فيصل باللين والمحاسنة الى ما يعجز عن الوصول اليه بالبطش والمخاشنة . ان فينيلون ليصدر في كل ذلك عن مبدأ عام الا وهو : الجري مع طبيعة الولد وتمهيد الطريق امامها لتنمو وتقويم ما عسى ان يكون فيها من اعوجاج اولاً ، ثم الملاءمة بين رغبة الطفل واتجاهه واهدافه وبين ما يجب ان يلقّن من علوم . الطفل في بداية امره خيالي واكثر ما يناسبه حكايات الجن وخرافات الحيوان ؛ فاذا تقدم

---

(١) الفصول : الاول والثاني والحادي عشر والثاني عشر من الكتاب السابق (٢) الفصلين التاسع والعاشر . (٣) المصدر السابق ، المقدمة ص : 6

به السن شيئاً مال الى التاريخ واحب ان يتعرّف سير الابطال وان يتشبه بمشاهير الرجال. ثم هو ينفر من المجرّدات ويأنس بالمحسوسات ، فدروس الاشياء هي اقرب الدروس الى عقليته واجلبها نفعاً له . و كذلك المحاورات فهي توقظ نفسه وتنقلها من عالمها الخيالي الى عالم الواقع ، وهي أجدى عليه من السرود الطويلة المملة . ان هذا الكاهن الاديب ليؤمن بسلامة الفطرة وطيبها ويحبذ العودة الى الطبيعة . انه كما يقول احد النقاد يحمل في نفسه بذور المستقبل ، ويمهّد الطريق لجان جاك روسو من بعده (١) . اما مستقبل الطفل فقد رأيت كيف يعيره فينيلون الاهمية البالغة حين حدثناك عن رأيه في ثقافة البنات وحرصه على ان تنمّى فيهم المعلومات الضرورية لادارة المنزل واسعاد الزوج وتربية البنين ، وعلى ان يجتنّبن الفنون المثيرة والمعارف النظرية التي لا تمت الى مستقبلهن بصلة . كذلك كان همه في تربية ولي العهد ، فقد كان يقصد دائماً الى الملاءمة بين الجهد المبذول والهدف المنشود . ومن اجل ذلك كان يرى ان اهمّ ما يجب ان يحيط به ولي العهد هو « التاريخ والسياسة وفنون الحرب ومبادئ الأخلاق (٢) » .

لعلك تسأل الآن : هل وفق فينيلون في اداء مهمته التربوية في القصر كما وفق في آرائه ؟ فنجيب بالايجاب ، وبان الاجماع منعقد على ان هذا التوفيق تجاوز المأمول . فقد استطاع الكاتب المربي بنظراته الحصيفة وصبره العجيب ان يخلق من هذا التلميذ النافر الصعب المراس أميراً مثقفاً مستقيم النهج متمسكا باهداب الواجب ، بل سيداً وديعاً حيياً. ولو قدّر لهذا السيد ألا يموت في سنه المبكرة ، وان يرقى ذات يوم عرش بلاده ، اذن لمرّت فرنسا في عهد من الامن والرفاهية ولتجنبت ويلات حكم بغيض ، هو حكم الملك لويس الخامس عشر (٣) .

• • •

تيليماك (٤) : — ظهر في نيسان (ابريل) ١٦٩٩ الجزء الاول من قصة مجهولة المؤلف ، بعنوان : « تابع للكتاب الرابع من الأوديسة ، او : مخاطرات تيليماك بن ايليس » فما لبث الناس ان عرفوا انها من تأليف فينيلون ، مطران كمبري ، ومؤدب ولي العهد . كانت خصومته مع بوسويه قد اثارت عليه لاول مرّة سخط الملك ؛ ثم كان ان أبطل البابا كتابه « حكم القديسين» ١٦٩٩ ؛ فلما ظهرت تيليماك ، هذه القصة التي تتصدى لنقد

(١) L.T. 338 (٢) L.F.U. 50 (٣) L.F.U. 50, Des Granges 168
(٤) Télémaque .

الوضع السياسي حين ذاك ، "فقد" فيليلون آخر امل له في الحظوة ثانية في البلاط . وقد نحا المؤلف باللائمة على الناشر الذي اختلس النسخة وأذاعها ؛ بيد أنه لم يستطع احد ان يمنع بيعها في الخفاء . ثم ظهرت الاجزاء الأخرى غير حاملة اسم المؤلف ولا اسم الناشر ؛ وتتابعت الطبعات بعدئذ خارج فرنسا ، واستقبلت بحماسة بالغة ، ولا سيما في انجلترا وهولاندا (١) .

كانت تيليماك نقطة البداية ضد" حكومة لويس الرابع عشر الذي أبغضه فينيلون حقاً : ابغضه منه الرجل المؤمن الذي يكره الحروب لارضاء شهوة السيطرة والتوسع ، وابغضه منه الرجل النبيل لما انه حط" من مكانة النبلاء وقدم عليهم وزراء من الدهماء ، وابغضه منه الفيلسوف الذي ساءه فقر الشعب وشقاؤه في عهده . لقد حاول فينيلون ان يتبرأ من كل ميل الى النقد (٢) : « ألّفت هذا الكتاب في وقت كان فيه المليك يغمرني بدلائل طيبه وحسن ثقته ؛ فان انا قصدت الى تقديم صور هجائيـــة وقاح فلأكونن اجحد الناس للجميل وابعدهم عن الصواب (٣) » ، غير ان هنالك دلائل قاطعة ، برغم هذا الانكار ، على ان الرجل كان يكره سياسة الملك ويوحي الى تلميذه ألا يسير على غرار جده ؛ وما من ملك او امير غمز المؤلف جانبه في قصته هذه الا وفيه مشابه من لويس الكبير ، وخصوصاً الملك « ايدومينيه » ، فهو على ذكائه اقرب مايكون الى الملك الشمس (٤) في شغفه بالحروب وميله الى الابهة واللذة (٥) .

ان اهمية هذه القصة السياسية واتجاهها الانتقادي ليتوضحان اذا قرنت بمؤلفات فينيلون الاصلاحية الأخرى من امثال : « الرسالة الى لويس الرابع عشر » او : الرسالة السرية» ١٦٩٤ ، وفيها يبين لزوجة الملك السيدة دي مانتونون وصديقها السيد بوفيليار ما يمكن ان يراجعا فيه الملك ؛ ثم « المقالة عن الحكومة المدنية » « والتحري عن وجدان ملك » و « رسالة ٤ آب ١٧١٠ الى السيدين شيفروز وبوفيليار » تلك الرسالة المنيفة التي كان يود" فينيلون نفسه لو طوي خبرها عن ولي العهد ؛ واخيراً ما يدعونه « بلوحات شولن (٦) » وهي مخطط لبعض الاصلاحات التي كان يحلم بها الكاهن الاديب (٧) .

• • •

(١) Télé : 5 (٢) L.T. 334 (٣) Télé 100 (٤) لقب لويس الرابع عشر
(٥) L.T. 335 (٦) Les Tables de Chaulnes (٧) L.F.U. 50

تيلماك هذه هي قصة تربوية رمى فيها المؤلف الى تهذيب تلميذه دوق دي بورجونى والى استعراض تاريخ اليونان الادبي معه . وليس غريباً ان يستوحي فينيلون موضوعه هذا من الآداب القديمة ، فقد أحبها وترجم عنها الكثير .

اخذ فينيلون من النشيد الرابع من « الاوديسة » لهومير فكرة الرحلات التي قام بها « تيلماك » للبحث عن ابيه « ايليس » . بيد ان الشاعر اليوناني يقود بطله الى بلدين فحسب ، اما فينيلون فقد مدّ من اسباب هذه الرحلات كثيراً ، بحيث اصبحت اشبه بملحمة نثرية تتضمن آراء سياسية وتربوية قيمة :

خرج تيلماك من وطنه « إثاك (١) » باحثاً عن أبيه ، يقوده ويسدّد خطاه الآلهة « مينرفا » المستخفية في شخصية الرجل الحكيم « مانتور » انه لينجو بنفسه من مآزق ومهالك تهدّد حياته وتمتحن فضائله ؛ فتتكامل شخصيته بمخالطة الناس ، ويتدرب على حمل السلاح وقيادة الجيوش ، ويطلع على اصول مختلفة من الحكم ويقارن بينها ، ويمرّ بتجارب عاطفية أليمة ؛ فتهذبه التجارب وتخلقه المحن خلقاً آخر ، حتى اذا عادا لى وطنه كان ارقى الرجال واحبّ الامراء الى الرعية (٢) .

خرج الرجلان من « اثاك » وطوّفا في الآفاق ثم هبّت عليها عاصفة الجأت سفينتها الى جزيرة الآلهة « كاليبو » التي احسنت لقاءهما وضيّفتها في احد قصورها الفخمة ، وسألت تيلماك ان يروي لها ما زار من حواضر وما عرض له من حوادث ، فجعل يروي لها طرائف الاخبار ، ويحدثها عن شبه جزيرة البيلوبونيز وصقليا : فاعطانا ملكها سفينة فينيقية لنبحر فيها الى وطننا ، فاعترض طريقنا اسطول مصري فخيل اليه اننا من الفينيقيين وهم يومئذ عدوّ للمصريين ، فأسرونا ؛ وبذلك اتيحت لنا الفرصة لزيارة مصر ، والاطلاع على ما فيها من خصب وثراء وأمن بفضل اميرها الشفوق العاقل ، وقال لي مانتور : « سعيد هو الشعب الذي يقوده ملك حكيم ! انه لينعم في بحبوحة من العيش سعيداً محباً لمن هو مدين له بهناءته . » واضاف قائلا : « كذا فلتحكم يا تيلماك ، ولتحرص على سعادة رعيتك اذا قدّرت لك الآلهة ان تجلس على عرش ابيك . أحبّ شعبك كما تحب ابناءك ؛ تذوّق حلاوة حبهم لك ؛ اعمل على ألا يستطيعوا ابداً ان يتذوقوا الامن والسرور من غير ان يتذكروا ان ملكاً برّاً رحيماً هو الذي نفحهم بهذه الهبات الثمينة . فالملوك

Télémaque مادة Laroursse du xxème siècle «٢» Ithaque «١»
· L.F.U. 50

الذين لا يفكرون الا في ارهاب رعيتهم وسومها الهوان لحملها على الطاعة ما هم الا نقمة وشؤم على الجنس الانساني . ستخشاهم الرعية كما ارادوا ؛ بيد أنها ستبغضهم أعما بغضاء ؛ وان عليهم أن يخافوا من رعيتهم اكثر مما تخافهم [1] . »

وألقوا بنا في غياهب السجن اذ افترى علينا احد اعوان الملك وزعم له اننا من الاعداء ؛ فلما تبيّن له كذبه عزله وأغرمه مالاً وسجنه وادنانا منه وقال معتذراً : «آه ! ما أشقى من يكون اعلى من بقية الناس ! انه لا يستطيع في الغالب ان يرى الحقيقة بعينيه: فهو محاط بأناس يحجبونها عن صاحب الأمر والنهي ؛ كل قد صرف همّه الى خداعه : كل قد أخفى مطامعه وراء ظاهر من المناصحة . يوهمون أنهم يحبون الملك وهم لا يحبون إلا الثراء الذي يمنح : إن حبهم من الضآلة بحيث أنهم ينافقون له ويخادعونه ليحظوا باحسانه » [2] .

ومن اسف ان هذا الملك الطيب الراشد قد هلك ، وخلفه على الملك رجل بدّد المال وقارب الآثام ؛ وقد حدّثت يومئذ نفسي فقلت : «اذ شاءت لي الآلهة يوماً ان املك ، فلن انسى قط ، بعد هذه الامثولة السيئة ، ان الملك انما يكون جديراً ان يحكم وان يسعد بما لديه من قوة ، بقدر ما يصغي الى العقل . وما اشقى ذلك الرجل الذي سخّره القدر ليحقّق للناس الامن والرخاء ، فلا يسود هذه الكثرة الكثيرة من الناس الا ليشقيها ويضنيها ! [2] »

فلما اطلق الملك سراح الرجلين ابحرا حتى استويا على شاطىء «صور» ثم ابحرا الى قبرص وكريت التي احبها شعبها وعرض التاج على تيليماك فأبى وتوجّه نحو وطنه ؛ غير ان العاصفة ألجأتها الى جزيرة الآلهة «كاليبسو» كما قدّمنا . وهنا احبته الآلهة وعرضت عليه الزواج وضمنت له الخلود فأبى وهام حباً بوصيفة لها . على ان «مانتور» نجا به من هذه المخاطر كلها وفرّا نحو الوطن . وهنا جارت بهما الريح مرة اخرى عن القصد ، فوصلا «سالانت» وهي مدينة ايطالية اتخذها «ايدومينيه» عاصمة له . كانت المملكة في حرب وفوضى فهدّأ مانتور الامور وخضد شوكة العدو ، ثم وضع للدولة دستوراً عادلاً ضمّنه المؤلف مثله الاعلى في اصول الحكم ، على النحو الذي كان يحلم ان يحققه لفرنسا لو ان تلميذه جلس ذات يوم على العرش : كان يحلم بمملكة يدعمها النبلاء وتعمل

(١) Télé. 18

(٢) Des granges 168 -170 ، L. T. 334—335، L. F. U. 50—51

لسعادة شعب مجدٍّ من التجار والزراع . ليس في هذه المملكة ابهة وتبذير ، بل ضرائب توزع بالتساوي ، ووظائف يتوصل اليها بالاخلاص والكفاية لا بالشراء ، اما المرابون فلا وجود لهم البتة . ثم ان على الدولة ان تضع قوانين صارمة تحدّ فيها من البهارج الكاذبة والتأنق الوقح المكلاف . وعليها ان تتجنب الحروب ولو ايقنت بالنصر ، لان نفقات الحروب باهظة جداً ، ولان المنتصر ليس اسعد حظاً بكثير من المتكسر . ومع ان المؤلف يحترم الحكم الملكي ويدعو الى توطيده ، فانه يرى ان « الملك اذا أطلقت يده لعمل الخير ينبغي ان يؤخذ فوق يده حالما يريد الشر .» عليه ان يخضع كغيره للقوانين ، وان يجعل نصب عينه الخير العام . هذا هو الدستور الذي وضعه مانتور ؛ او بالحري فينيلون «اذكى اذكياء عصر لويس الكبير وأجرام مع الاوهام !» وهو كما نرى دستور يتضمن اشياء اصلاحية جديدة بالاضافة الى ذلك العهد ، غير انها لا تدعو الى الثورة ابداً (١) .

ونعود الى تيليماك فنراه يخوض اثناء ذلك بعض الحروب الى جانب « ايدومينيه » ثم ينزل الى العالم الثاني باحثاً عن ابيه ، ويدخل الجنة ليرى الملوك المصلحين المسالمين في اجمل قصورها ، اما الملوك المحاربون ففي المحل الثاني . هنالك ينبئه احد اجداده الأعلّين بان اباه لا يزال على قيد الحياة ، فيقفل راجعاً الى استاذه ، ويغادر الرجلان البلاد بعد ان تمّت خطوبة تيليماك على ابنة ايدومينيه . وهنا يفرغ المؤلف من افكاره فيسرع بالقارئ الى نهاية القصة ، حيث يكشف مانتور عن حقيقته : انه مينرفا ، آلهة الحكمة ؛ ويعود تيليماك الى وطنه ، ويلتقي اباه ، بعد ان يصغي الى آخر نصيحة من استاذه (١) :

« أصغ اليّ يا ابن ايليس للمرة الاخيرة . ما من حيٍّ عنيتُ بتعليمه مثلك ؛ فقدتك من يدك خلال حوادث الغرق ، وفي مجاهل الأرض ، وخضت معك المعارك الدامية ، وكنت الى جانبك وانت تعاني كل ما يمكن ان يعرض لقلب البشر من آلام . لقد اريتك بتجاريب حسية قاطعة المثُل الصحيحة والزائفة في الحُكم . لم تكن اخطاؤك اقل نفعاً لك من مصائبك ؛ فمن ذا الذي يستطيع ان يدبّر الامور بحكمة اذا هو لم يألم قط ولم يفد من الآلام التي تردّى فيها باخطائه ؟

---

(١) Des granges 168—170, L.T. 334—335, L.F.U. 50—51

ملأت الثرى والبحار كأبيك بمخاطراتك الرهيبة . هيا ، فانت الآن جدير بان تسير على آثاره . لم يبق لوصولك الى «ايثاك»(١) التي يصلها هو الآن الا مسافة سهلة يسيرة . قاتل معه ؛ أطعه كأدنى رعاياه ؛ أعط في ذلك الآخرين قدوة صالحـــة . سيزوجك من آنتروب وستكون سعيداً معهـــا ، لانك كنت اطلب للحكمة والفضيلة منك للجمال .

اذا اعتليت العرش سخّر امجادك لتجديد العصر الذهبي . استمع الى الناس جميعاً ؛ صدّق نفراً قليلاً منهم ، وحذار ان تركن الى كل ما تهجس به نفسك . حذار ان تخدع ، ولكن لا تهيب ابداً ان تصارح الناس بانك قد خدعت .

احب جماهير الشعب ؛ لا تدخر وسعاً لتحظى بحبهم . الخوف ضروري حين لا يكون الحب ؛ على انه يجب الا تشعرهم الخوف الا آسفاً مغلوباً على امرك ، كما يقدم الدواء الخطر الحاد .

انظر من بعيد الى عواقب ما تصنع دائماً ؛ تدارك العقبى الوخيمة ، واعـــلم ان الشجاعة الحق في مواجهة الاخطار واحتقارهـا اذا اصبحت قدراً مقدوراً . فالرجل الذي لا يريد ان يراها تعوزه الشجـاعة للنظر اليها في هدوء ؛ اما الذي يراها جميعاً ويتجنب كل ما يمكن تجنبه منها ، ويعالج الباقي من غير اضطراب ، فهو وحده عالي الهمة حكيم .

اخشوشن وابتعد عن البهرج والسرف . اعتز بالبساطة . لتكن فضائلك واعمالك الطيبة زينة شخصك وقصرك ؛ لتكن حرسك الذي يحف بك ، واتعلم الناس جميعاً مم تكون السعادة الحق .

لا يغيبن عنك ابداً ان الملوك انما يحكمون لخير شعوبهم لا لتوطيد امجادهم . ما يفعلوا من خير الا كان له تأثير في ابعد العصور ، وما يفعلوا من شر الا نما وتكاثر وأضر بالناس جيلاً بعد جيل . فملوك السوء هم نقمة وبلاء على مر العصور .

ضيّق الخلق فاحترز منه : انه عدو تحمله معك اني ذهبت حتى يوافيك الأجل ؛ يرافقك في المجالس ويخدعك ان انت أعرته سمعك . انه يضيع عليك الفرص الغالية ؛ انه يميل بك الى امور وينفرك من غيرها ميل الاطفال ونفارهم ، بالغاً ما بلغت الخسائر ؛

---

(١) وطنه

انه يفصل في اعظم الامور بأصغر العقول ؛ به تخبو القرائح وتكبو الشجاعة ويختـــل توازن المرء ويذهب ريحه ويفسد معدنه ويثقل على من حوله. الا فلتحذر هذا العدو [1].

أشعر قلبك، اي تيلياك ، مخافة الآلهة ! فخوفهم كنز القلوب الاكبر ؛ به تأتيك الحكمة والعدالة والأمن والمسرّة، به تعرف اللذائذ الصافية والحرية الصحيحة والخير العميم والمجد الخالص من كل شَوْب .

اني مفارقك يا ابن ابليس ؛ غير ان حكمتي لن تتخلّى عنك ما شعرتَ بانك عاجز عن كل شيء بدونها . آن لك ان تتعلم السير وحدك . انا لم ابتعد عنك في سالانت وفينيقيا الا لاعوّدك الحرمان من هذه النعمة ، كما يفصلون الطفل اذا حان فطامه عن ابن امه ليقدّموا اليه غذاء اقوى . »

• • •

ما كادت الآلهة تنهي خطابها هذا حتى ارتفعت في الهواء وتغشّاها سحـاب من لازورد وذهب توارت في احشائه ؛ اما تيلياك فخرّ ساجداً في حسرة ودهشة وذهول؛ انه ليرفع يديه الى السماء ؛ ثم يذهب الى رفاقه فيوقظهم ، ويسرع في الرحيل ؛ حتى اذا وصل «ايتاك» عثر على ابيه عند احد الرعاة .

• • •

فنه واسلوبه : ـ كتب فينيلون في رسالته الى الاكاديمية : « انا لا انشد الصعب ولا النادر ولا الغريب فيما اكتب ؛ جمال البسيط المستأنس هو الذي اتذوقه [2] . »
هذه هي نقطة الارتـكاز في فنّ الرجل واسلوبه .

ففي «تيلياك» مثلاً نرى فينيلون لا يطيل التفكير في مخطط الرواية ، وقد يتورّط بسبب ذلك في الاطالة والاستطراد والايجاز المخلّ .

ثم انه لا يحاول في تصوره الاغرابَ ، وكثيراً ما يؤدي به التساهل كذلك الى العجز عن تمثيل الحقيقة او الى تشويهها .

واذا كان فينيلون قد استطاع ان يُحيي في هذه الرواية الاجواء القديمة ، فمن

(١) تذكر انّ ضيق الخلق كان اعيب ما في تلميذ المؤلف اول امره . (٢) Télé. 8

المحقق انه لم يبذل في ذلك جهداً ولم يسع سعي العالم الباحث . فهو على ما يظهر يسير الى غاته في سهولة وعدم كلفة . وعلى الجملة فان فينيلون من احسن الامثلة على الكاتب الذي يُعفي طبعه ولا يتكلّف جهداً فنياً او غير فني .

وما قلناه عن فنه التأليفي نستطيع ان نقوله عن اسلوبه : فانت تشعر لدى قراءته بتلك السهولة الارستوقراطية التي لا تجهد نفسها لتُعجب وتطرب ؛ انها سهولة الحديث الطلي ، متأثرة بمذهب الاتباعيين في الايجاز . في كتاباته صــور شعرية حلوة ، لا بالغريبة ولا بالمتكلفة . ان انفاس هومير لتعبق هنا بعطر الخيال وجماله . اما النغم فمتوازن ابداً والعبارة منسجمة في استواء . هنالك جاذبية على شيء من الرخاوة تسود آثار المربي الاديب (١) .

• • •

اما بعد ، ففينيلون وجه بالغ التعقيد . ان صلته لوثيقة بالماضي والمستقبل معاً . يربطه بالقرن السابع عشر سببان : الايمان ، والاعجاب باليونان والرومان . وفيما عدا ذلك فهو قريب من رجال القرن الثامن عشر ومن جان جاك روسو على الخصوص . وذلك بطرافة فكره ، وباستقلال نظراته وعفويتها ، واخيراً بكل ما فيه من غرائز ودوافع . انه فيلسوف بحبه للسلام وبدعوته الى الادارة الحسنة ، وبجريه وراء المعرفة . وان فيه ميلاً الى التفكير السياسي قلما عرفه ادباء العصر العظـيم . وهو مرهف الشعور ؛ ينبعث حب الانسانية من قرارة نفسه ، ويدفعه الشعور الاجتماعي الى العطف واسداء الجميل : هذا ما اقامت الدليل عليه اعماله في «كامبري» في أمرّ سني الحرب . انه ليطمح الى تحقيق الامن والرفاهية للشعب والى اعفائه من كل عبء ثقيل . والجديد عنده حقاً انه يؤمن بسلامة الفطرة كما ذكرنا ويدعو الى العودة الى الطبيعة ، على نحو ما فعل روسو من بعده .

نماذج اخرى من نثر فينيلون

اليمامة اللجوج

يمامتان كانتا تعيشان معاً في محضنة على أتم ما يكون السلام . كانتا تشقان الهواء

(١) Des granges 171, L.T. 337, Télé. 8—9

باجنحتها التي كانت تبدو لسرعتها جامدة. انها لتسرحان وتمرحان، فتفر احداهما من الأخرى ثم تعود فتشتد في اثرها . فاذا فرغتا من لهوهما نشطتا لجمع الحب من بيادر المزارع او البراري المجاورة ؛ ثم لا تلبثان ان تشرفا على ماء ساقية نمير لترويا ظمأهما به وهو يجري وسط المروج المزهرة ؛ ومن ثم كانتا تعودان ادراجهما لتريا عشيهما في المحضنة البيضاء الكثيرة الثقوب ، فتمضيان الوقت في عشرة حلوة مع رفيقاتهما الوفيات . كان قلباهما رقيقين ، وكان ريش رقبتيهما ذا الوان شتى كالوان قوس السحاب . وكنت تسمع صوت هاتين اليمامتين السعيدتين حلواً خفيضاً . ألا ما كان اهنأ حياتهما !

بيد أن احداهما بدأت تمل لذات عيشهما المادي ، واستغواهـا طمع أهوج ، فاستسلمت لخطط المغامرة . ها هي ذي قد هجرت صديقتها القديمة ، رحلت ، اتجهت نحو الشرق . مرت فوق البحر الابيض المتوسط ، وضربت بجناحيها اطباق الهواء ، كسفينة ذات اشرعة تمخر عباب البحر . وصلت الاسكندرون ؛ ومنها تابعت طريقها وطوت الارض الى «حلب» . فلما وصلتها بعثت بتحيتها الى حمائم تلك المدينة ، وكن عاملات بريد رسميات ، وغبطتهن على سعادتهن . فذاع بينهن في الحال خبر مؤداه ان غريبة جاءت تقطع البلاد البعيدة . فسلكتها بين البريديات ؛ وجعلت تحمل كل اسبوع رسائل احد «الباشاوات» مربوطة الى رجلها ؛ كانت تقطع ثمانية وعشرين فرسخاً في اقل من نهار . انها لتزهو بما تحمل من اسرار الدولة ، وانها لترثي لحال رفيقتها التي تحيا بغير مجد في اوكار محضنتها .

على انها كانت تحمل ذات يوم رسائل الباشا ، وكانت شكوك سيده السلطان بدأت تحوم حوله ؛ فاراد القوم ان يزيحوا النقاب برسائل هذا الباشا عما اذا كان حقاً بينه وبين موظفي ملك الفرس مفاوضات في الخفاء ، فأنفذوا سهماً الى جسم اليمامـة المسكينة ، فتماسكت بادئ الأمر قليلاً بجناح مهيض ، بينما كان دمها يجري . واخيراً سقطت ، وجعلت ظلمات الموت تغشى عينيها ؛ وكانوا عند ذلك ينزعون منها الرسائل ليقرءوها . ثم لفظت آخر انفاسها تحت وطأة الألم ، لاعنة طمعها الذي لا نفع فيه ، آسفة على تلك الراحة الرغيدة التي كانت تنعم بها في محضنتها ، حيث كان في وسعها ان تعيش مع صديقتها في أمان .

« من الحكايات الخرافية لفينيلون »

الارنب المتظاهر بالشجاعة

كان ارنب يستحي من جبنه ، فهو ينتهز الفرص ليعوّد نفسه الشجاعة . فاحياناً كان ينفذ من ثغرة سياج ، بين الملفوف في بستان احد الفلاحين ، ليألف ضوضاء القرية . ويا طالما مرّ بجانب بعض الكلاب فتقتصر على النباح وراءه .

فاذا قفل من غزواته خيّل اليه انه أهيب من «آسيد [1]» على جليل اعماله . ويقال كذلك انه لم يكن يعود الى مأواه الا حاملاً اوراق الغار ، مكرّماً نفسه ، مشيداً بعناقيه . كان يتمدّح بتفوّقه على لداته من الارانب المجاورة ، ويمثّل المخاطر التي خاضها والمخاوف التي بعثها في نفوس العدى ، والخدائع الحربية التي قام بها ، كضابط مجرّب ، وبخاصة جرأته العظيمة في ميادين القتال . وكان في كل صباح يحمد آلهيْ الوغى : مارس وبيلّون [2] على ما منحاه من مواهب وشجاعة يتغلب بها على الامم ذوات الآذان الطويلة .

قال له الأرنب «جان» ذات يوم وهو يحاوره : « لو َددتُ ان اراك يا صديقي ، انت وخيلاءك ، وسط سرب من كلاب الصيد . اذن لهرب «هركول» نفسه على اسوأ حال . » فاجاب فارسنا الشجاع : «انا ! ما كنت لارجع القهقرى ولو تألّب عليّ كل ما نسلَت امّة الكلاب.»

ما كاد يفرغ من مقاله حتى سمع كُليْبَ مُزارع مجاور ينبح في الادغال البعيدة ؛ فارتعدت فرائصه لساعته وركبته الحمّى . اما عيناه فكانتا في اضطراب عينيْ «باريس» عندما ابصر «مينيلاس» يشتدّ نحوه . لقد تهافت على صخرة منحدرة في واد سحيق ، حيث تراءى له انه غارق في ساقية . واذ رآه الارنب جان واثباً صاح من جحره : ها هوذا صاعقة الحرب ! ها هوذا هركول الذي يجب ان يطهّر الارض مما فيها من اوغاد ! »

« من الحكايات الخرافية »

واجبات السادة نحو خدمهم

حاولوا ان تنالوا محبة اتباعكم من غير اطراح حشمة : فلا تتبسطوا معهم في حديث،

---

(١) بطل اليونان (٢) Mars, Bellone : الاول آله الحرب عند اليونان والآخر عند الرومان .

ولكن لا تخشوا ان تحدثوهم غالباً عن شئونهم في مودة ومن غير تعالٍ . ليثقوا بأنهم لا بدّ واجدون عندكم النصح والحدب . لا تؤاخذوهم بشدة ابداً بما اخطئـــوا ؛ ولا تدهشوا لذلك ولا تضق صدوركم ما دمتم ترجون لهم صلاحاً . أسمعوهم صوت العقل في رفق ؛ وتحملوهم لتكونوا في حالة تمكنكم من اقناعهم بهدوء بانكم تخاطبونهم ، من غير أسف ولا نفاد صبر ، طلباً لفائدتهم اكثر مما تخاطبونهم ليقوموا بخدمتكم . لن يكون سهلاً تعويد الاشراف من الشباب هذا الخلق الطيب الوطيء ، لأن فراغ الصبر وحميّا الشباب وما لقنوا من فكرة خاطئة عن كرم محتدهم ، كل اولئك يحملهم على النظر الى خدمهم بما يقارب نظرهم الى الخيل : يظنون انهم من غير طينة الخدم ؛ فهؤلاء لم يُخلقوا الا لرفاهية الاسياد. إجهدوا ان تبينوا لهم منافاة هذه المبادئ للاحتشام والعطف على ابناء جلدتهم . افهموهم ان الناس لم يُخلقوا ليُخدموا ؛ وأن من الضلال ان يعتقدوا ان هنالك رجالاً ولدوا ليعينوا الآخرين في كبريائهم وخمولهم ؛ وأن الخدمة قد شُرعت على ما فيها من مناقضة لمبدأ التساوي ، فيجب ان يخففوا ما استطاعوا من حدتها ؛ وان الاسياد قد اصابوا من حسن التهذيب ما لم يتيسر لخولهم، وهم مع ذلك يزخرون بالاخطاء، فينبغي لهم الا ينتظروا العصمة منهم، وهم الذين فاتهم التعليم ولم تيسّر لهم القدوة الصالحة.

« الفصل الثاني عشر من كتاب : تثقيف البنات »

رسالة الى الدوق دي بورجوني

ذكرنا ما كان عليه الدوق دي بورجوني من طيش ونزق ، وما آل اليه على يد المربي العظيم من وداعة وتعقل .

وجه فينيلون هذه الرسالة الى تلميذه إثر جواب وقح تفوّه به نحوه ، فكان لها وقع كبير في نفسه ، ولم يلبث ان عاد الى استاذه معتـــذراً :

لا اعرف يا سيدي ما اذا كنت تذكر ما قلت لي بالأمس : من انك تعرف مـــا انت وما انا . فمن واجبي ان أعلمك بانك تجهل الأمرين معاً . واذن فأنت تحسب انك اعظم مني ! لقد يحدّثك بذلك بعض الخدم ولا شك . اما انا فلا أجبُن ان اقول لك ، ما دمت تضطرّني الى ذلك ، إنني اعظم منك . انت تفهم بما فيه الكفاية أنني لا أعني هنا الحسَب والنسب . لعلك ان تستحق ذلك المفاخرَ بالمطر يخصب أرضه ويتخطّى أرض

جاره . الا فلتعلم انك لن تكون اعقل منه إن اردت ان تزهو بمولدك الذي لا يضيف شيئاً الى مناقبك .

لن تستطيع الشك في انني اعظم منك بالعقل والمعرفة . انت لا تعلم الا ما علّمتك ، وما علّمتك لا شيء في جانب ما بقي عليّ ان اعلمك اياه . اما السلطة فلا تملك منها عليّ شيئاً ، على حين ان سلطتي عليك عامة كاملة. لقد حدثك بذلك الملك وابوك (١) مرّات. ربما خيّل اليك انني أعدّ نفسي جدّ سعيد بما آل اليّ من امر تربيتك . تخلّ عن هذا الوهم كذلك يا سيدي ، فانا لم انهض بهذه المهمة الا استجابة لامر الملك والتماساً لسرور ابيك ، لا لتلك الحظوة الشاقة بان اكون مهذبك . ولئلا يخالجك الشك في ذلك فسأقودك الي جلالته ، لألتمس منها ان تسمّي لك مهذباً آخر ، واني لاتمنى له ان تصادف جهوده توفيقاً اكبر من جهودي (٢) .

نصيحة من ماتنور الى تيليماك

تذكّر ، اي تيلياك ، ان هناك في حكم الشعوب شيئين مضرين لا دواء لهما : سلطة عنيفة ظلوم في الملوك ؛ واسراف في المأكل والملبس والمظاهر الفخمة يفسد العادات.

اذا ألِف الملوك ان يتنكّروا للقوانين ويفرضوا مشيئتهم ، وأبوا ان يكبحوا اهواءهم فانهم سيقدرون على كل شيء ؛ بيد أنهم بذلك سينقُضون دعائم سلطانهم . ذلك بانهم لا يحكمون وَفق قاعدة او مبدأ ؛ كل يسابق الى تملّقهم ؛ فقدوا شعوبهم ، فلم يبق في حوزتهم إلا عُبدان يتضاءل عددهم كل يوم .

من الذي يصارحهم بالحقيقة ؟ من ذا الذي يضع لهذا السيل حدوداً ؟ الجميع يذعنون ؛ العقلاء يهربون ، يتوارون ، يتحسّرون . الثورة الفاجئة العاصفة وحدها هي التي تعيد هذه القوة الى مجراها الطبيعي وتلزمها جانب الاعتدال؛ ويا طالما لم تكفكف من غَرْبها (٣) فحسب ، بل قوّضت دعائمها وتركتها من غير ظهير كذلك . لا شيء يهدد بوقعة ناحسة نكداء مثل الافراط في سوء استغلال السلطة . انها أشبه بقوس بالغتَ في شدّه، فهو عرضة للانقطاع ان لم يُرخَ آخر الامر: ولكن من الذي سيجرؤ على إرخائه؟

---

(١) كتبت الرسالة قبل وفاة أبي الدوق ، اي قبل ان يصبح الدوق ، وهو حفيد لويس الرابع عشر ، ولياً للعهد . (٢) من كتاب Chevaillier 344 - 345

(٣) لم تكفكف من غربها : لم تخفف من شدتها

اما الآفة الثانية التي يوشك ألاّ يكون لها دواء فهي السرَف . اذا تجــاوزت السلطة حدودها كانت على الملوك وبالا ، واذا طغى السرف على امة عاد عليها شراً ونكالا. يزعم قوم ان السرف حقيق ان يغذو الفقراء على حساب الاغنياء ، كأن الفقراء ليسوا أهلاً لأن يربحوا معاشهم بطريقة اجدى نفعاً ، فيضاعفون ثمر الأرض ، من دون ان يعدّوا الاغنياء في الاسترسال الى الشهوات . لقد درجت الأمة جمعاء على اعتبار الكماليات ضرورات لا بد منها : انهم في كل يوم يبتدعون ضرورات جديدة ، وهم يعجزون عن الاستغناء عن الاشياء التي لم يكن لأحد بها علم قبل ثلاثين عاما ! هـــذا الاسراف يدعى تارة ذوقاً ، واخرى فناً ، وثالثة آداب الامة . هذه المفسدة التي تجرّ وراءهـا مفاسد كثيرة اصبحت كالفضيلة موضعَ الثناء ! وانها لتنشر عدواها بين الناس من الملوك الى احقر الرعاع .

« تيليماك : الكتاب الثاني عشر »

• • •

بعد ان رحبت الآلهة « كاليسو » بتيليماك واستاذه
وأصغت في شوق الى مغامراتهما، ورأت دلائل التعب بادية
عليهما، وقد اخذ الكرى بمعاقد اجفانهما، فجعلت تقول :

آن لك ، ايها العزيز تيليماك ، ان تتذوق حلاوة النوم بعد متاعبك الجمّة . لا تخفْ ان ينالك هنا مكروه : فكل شيء على ما يرام . استسلم اذن للافراح ؛ تمتع بالأمن وبما سيغمرك به الآلهة من هبات . غداً ، عندما يفتح الفجر باصابعه الوردية ابواب المشرق المذهبة ، وتبرز خيل الشمس من مُرّ الامواج اتنفث لهيبَ النهار تطرد به نجوم السماء ، سنعود الى قصة آلامك . ابداً لم يبلغ ابوك ما بلغتَه من حكمة وشجاعة : فلا آشيل الظافر بهكتور ، ولا تيزيه العائد من العـــالم الثاني ، كلا ولا السيد الذي طهّر الارض من كل وحش مسيخ ، باكفاء لك في القوة والفضيلة . اتمنى ان يجعل النوم العميق ليلتك هذه قصيرة . ولكن واأسفاه ! ما اكثر ما ستطول ليلتي ! ما اشد ما يبطئ بي نومك عن رؤيتك ، عن تكليفك ان تعيد لي ما انا به عارفة وان تقصّ علي ما لا أزال أجهله ! هلم يا عزيزي تيليماك صحبة الحكيم مانتور الذي وهبه لك الآلهة ، هلم إلى ذلك الكهف النائي حيث أعد كل شيء لراحتك . وإني لأسأل

«مورفيه»(١) ان تذرّ اعذب سحرها على اجفانك التي أثقلها النعاس ، وان تُسيل بخاراً آلهياً في جوارحك التعبة ، وان تبعث اليك رؤى خفاف تحوّم حولك وتداعب حواسك بضاحك الصور وتدفع عنك كل ما عساه ان يعجّل في ايقاظك .

« تيليماك : الكتاب الرابع »

الحكيم مانتور يبين لتيليماك حدود اللذة الصحيحة

ما من احد قطّ يتمنى لك اكثر مني ان تستمتع باللذات ، على ألاّ تملك عليك قلبك ولا تُلينَ من عزيمتك . انت في حاجة الى لذات تروّح عنك العناء ، وتتذوقها وانت تملك نفسك ، لا لذات تملك قيادك وتجرك وراءها جراً . اريد لك لذات هادئة معتدلة لا تذهب بعقلك وتتركك كالبهيمة النافر ... استمتع بمباهج الحياة ؛ فما كان للحكمة ان تقسو ولا ان تموّه الحقائق ؛ هي التي تمنح اللذاذات الصحيحة ؛ هي وحدها التي تهذبها وتجمّلها لتردها صافية دائمة ؛ انها تعرف كيف تمزج المرح واللعب بالمشاغل الجدية الخطرة ؛ تهيئ السرور بالعمل ، وتروّح من العمل بالسرور . وما كان للحكمة ان تستحي من ان تأخذ نصيبها من المسرة اذا وجبت .

« تيليماك : الكتاب السابع »

رسالة الى لويس الرابع عشر

في الفترة الاخيرة من حكم لويس الرابع عشر توالت اخطاؤه وعمّ البؤس طبقات الشعب ؛ فبعث فينيلون بهذه الرسالة الى السيدة دي مانتونون والدوق دي بوفيليه على الارجح ، ليتحدثا الى الملك عن آلام الشعب ويمحّضاه النصح في ضرورة الاصلاح . ويشك الباحثون ان تكون الرسالة وجهت مباشرة الى الملك ، على ما فيها من صراحة جارحة :

ان رعيتك التي يجب ان تحبها كأبنائك ، والتي كانت الى اليوم مشغوفة بك ، لتموت جوعاً . فحراثة الارض تكاد تهمل ، والمدن والارياف يجلو عنها السكان ؛

(١) آلهة الاحلام

والصناعات كلها يفتر نشاطها وتقصر عن تغذية العمال . كل تجارة الى اضمحلال . فانت بالتالي قد هدمت نصف القوى الحقيقية في دولتك لتكر وتفر في فتوحات لا طائل وراءها . كان عليك الا تبتز اموال هذا الشعب الفقير ، بل ان تتصدق عليه وتلتمس له الغذاء . اصبحت فرنسا بكاملها مستشفى كبيراً ينقصه الغذاء والدواء وتخيم عليه الاحزان . الحكام ذلوا ونفدت قواهم . والنبلاء اصبحت اموالهم كلها مهددة فلا تؤمن حياتهم الا باوامر الدولة التي تدفع عنهم كيد الدائنين . اذا ضقت ذرعاً بجموع الشعب تطالب وتشكو ، فانت الذي جررت على نفسك يا سيدي هذه المتاعب ؛ لان المملكة كلها قد تخربت ، وفي يدك مقاليد الامور جميعاً ، وما من احد يستطيع ان يعيش الا من هباتك . تلك هي المملكة العامرة تحت مليكها الذي يصفونه لنا على الدوام بانه نعمة وبركة على الشعب ! الحق انه كذلك لو لم تزغه نصائح المنافقين .

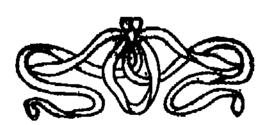
بل ان الشعب الذي كان يوليك اخلص الحب ويضع فيك كل الثقة بدأ يفقد محبته وثقته واحترامه كذلك . انتصاراتك وفتوحاتك لا تسره ابداً ؛ انه ناقم قانط . الفتنة تذر قرنها في كل مكان . انهم (١) يعتقدون بانك لا تشعر بآلامهم ابداً وبانك لا تحب غير سلطانك ومجدك . يقولون اذا كان للملك على شعبه قلب اب فما باله لا يرى المجد في منحه الغذاء والراحة بعد ما عاني من آلام ، وما باله لا يصرف النظر عن رعاية الجبهات التي تسبب الحرب ؟ اي جواب على هذا يا مولاي ؟ اصبحت الثورات يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكانت مجهولة الى عهد بعيد . حتى باريس ، وهي منك جد قريب ، ليست بمعزل عن هذه الثورات . لقد اضطر الحاكمون ان يسامحوا العاصين على وقاحتهم ، وان يجروا عليهم بعض المال لتهدئتهم : وهكذا فهم يكافئون من يستحق الجزاء ! انت الآن مضطر الى ركوب احد الشرين : ان تذر الفتنة بلا عقاب فتنميها ، او ان تذبح بلا رحمة شعباً دفعته الى اليأس بما انتزعت منه ضرائبك في سبيل هذه الحرب خبزه الذي بذل لكسبه عرق جبينه .

على انه عندما يعوزه الخبز ، يعوزك انت المال ، ثم لا تريد ان ترى النهاية السيئة التي وصلت اليها . لقد حالفك التوفيق على الدوام ، فانت لا تستطيع ان تتصور ان يفارقك ابداً . انت تخاف ان تفتح عينيك ، وتخاف ان يفتحهما لك الناس ، تخاف

---

(١) رعيتك

ان يئول الامر الى انتقاص شيء من مجدك . هذا المجد الذي يقسي قلبك لهو اعز مكاناً في صدرك من العدل ، من راحة البال ، من المحافظة على الشعب الذي تبيده كل يوم امراض الجوع ، واخيراً من سلامتك الأبدية التي لا تتفق ووثن المجد هذا . تلك هي يا سيدي الحال التي انت عليها (١) .



(١) من كتاب Chevailllier 345– 347 ـ يجدر بالقارئ الكريم ان يقارن بين رسالة بوسويه التي وجهها الى لويس الرابع عشر عام ١٦٧٥ يعرض عليه باسلوبه الرفيق آلام الشعب ويرسم له الخطة الناجحة ، ورسالة فينيلون هذه التي يعرض له فيها الحقائق بشجاعة وقساوة . لقد كتب فينيلون رسالته هذه في اواخر اعوام الملك . ولا شك ان الفرق بين تاريخ الرسالتين يوضح الاختلاف في اللهجتين ، فقد ساءت الحال كثيراً في المدة الاخيرة من عهد هذا الملك .

سان سيمون SAINT SIMON

١٦٧٥ — ١٧٥٥

عاصر هذا الاديب لويس الرابع عشر اربعين عاماً وعاش بعده اربعين عاماً ؛ وخلّد في مذكراته ألواناً من الحياة في القرن العظيم . ان الذي يقرأ سيرة هذا الدوق المزهوّ بأصله ، الحريص على حقوقه الطبقية وافكاره الاقطاعية ، ليعجب من انه كان في الوقت نفسه معاصراً لرسل الحرية : فولتير ورسّو ومونتسكيو ! فان نحن سلكناه في ادباء القرن السابع عشر فلأنه عاش نصف عمره في هذا القرن ، ولأنه كان صورة حيّة عنه ، ولانه أرصد إنتاجه لتخليده .

ولد لويس دي روفروي ، دوق دي سان سيمون عام ١٦٧٥ في فرساي ؛ من أب طاعن في الشيخوخة كان مقرّباً الى لويس الثالث عشر ؛ فورث عنه حبه للملك الراحل « ملك النبلاء » ومقته للويس الكبير « ملك العمال » الذي انتقص من مكانة النبلاء واختار عليهم جماعة من الدهماء وثق بهم واستوزرهم . ولما بلغ الدوق السادسة عشرة انتظم في الجيش وخاض بعض الحروب ؛ ثم تزوّج ١٦٩٥ ، وفي ١٧٠٢ لم يكن بعد قد جاوز رتبة الكولونيل ، فساءه إبطاء الرتب عليه واستقال (١) .

انه يعيش الآن في القصر ؛ بيد أنه لم يكن يحب الملك كما ذكرنا ؛ ولم يكن الملك يحبه كذلك ، لأنه نقم منه استقالته وكبرياءه وتعلّقه بامتيازات لقبه ، كما انه كان يحسّ منه النظر الناقد والاستعداد للتآمر . غير ان مقرّ امثاله من كبار النبلاء هو القصر ، فهو يقيم فيه ، لينحاز الى فريق الساخطين . انه ليعقد الآمال الجسام على صديقه ولي العهد دوق دي بورجوني ؛ وإن هذه الآمال لتنهار بموت هذا الامير ، كما انهارت بذلك آمال فينيلون . ثم يموت العاهل العظيم ويئول الحكم الى صديق حميم هو الوصيّ الدوق دورليان ، فتتجدّد الحظوة لأديبنا وتحيا الآمال ، اذ يسمّى عضواً في مجلس الوصاية . غير أنه لا يلعب الدور الذي كان منتظراً منه . هذا الرجل الماضي العزيمة في صغيرات الامور لم يُخلق فيما يظهر للعظائم ! لقد ترك منصبه

(١) L.T. 372—373 .



سان سيمون

هذا ليسفر لبلاده عند عاهل الاسبان سفارة كل مهمتها ان يخطب ابنة هذا العاهل على لويس الخامس عشر ! وبعد قليل يتوفى الوصي ويعتزل المترجَم في منزله بباريس حيناً وفي قصره الريفي حيناً آخر، حيث يفقد زوجته الحبيبة وابناءه الاعزاء وهم في مقتبل العمر؛ فيعمد الى مذكراته يتسلّى بها عن همومه حتى يدركه الاجل ١٧٥٥ [١] .

• • •

اظهر ما في شخصية هذا الاديب : حرارة الطبع . انه ليندفع في صداقاته الى ابعد الحدود . هذا رجل يحظى باعجابه فلا يقنع من صداقته بغير صك الوفاء ! ويرضى عن ولي العهد ، الدوق دي بورجوني فيرفعه على ذوي التيجان وينظمه في عداد الابطال! اما الاخيار من الناس فقد كان يأنس بهم ويسترسل اليهم ويحظى باحترامهم ، كما كان يأنف من الخادعين والمنافقين ويدمغهم بسخريته . انه ليتعشق الفضائل ويبلغ في سلوكه وفي محاسبة نفسه مبلغ المهوّسين . وهو ، على قوة اعتقاده بمذهبه الكاثوليكي وورعه ، ينفر من تعصّب الملك وظلمه لرعيته من البروتستان والجانسنيين ، غير انه لا يسمو الى احترام الضمير الانساني المطلق . انه في سهولة تأثره وتوتّر مشاعره قريب من المرأة . لا لشيء ادعى الى العطف من حبه لزوجه : فقد تحدّث في وصيته ، بعد احد عشر عاماً من وفاتها عن « تلك الوحدة الروحية الكاملة » واصرّ على ان يُشدّ نعشاهما باحكام بحيث يتعذّر فصل احدهما عن الآخر بغير كسر الاثنين معاً ! »

والرجل في عداواته اشد اندفاعاً وأضرى مخلباً ، بل أقرب الى الهذيان : أصغ اليه يستشيط وتغلي اوداجه اذ يرى الملك « غريقاً في موحل السيدة اسكارّون ، في في حمأتها [٢] ، في دمنتها [٣] . » والسيدة هذه هي ارملة الشاعر اسكارّون ، وقد تزوجها الملك سراً ، باسم « مدام دي مانتونون » . وأصغ اليه يسلق بحدّ لسانه احد الدوقات ويكيل له أوابد التهم . ولا سيما سخطه على الدوق دي نوّاي : « انا لا اخفي ان اجمل ايام حياتي وألذّها هو يوم يتاح لي ان اسحق هذا الرجل وان اسير برجليّ على بطنه . » انه الى ذلك عدوّ الوزراء والقوّاد العظام ، لا لذنب اقترفوه ولا لأذيّة نالوه بها ، بل لانهم ارتفعوا من غمار الناس الى الوزارة والقيادة . ثم هو لا يعفي من بغضائه رجال البرلمان والحكام والنابهين من رجال المال ، لانهم يزاحمون النبلاء من حيث ينبغي

---

(١) L.T. 372—374 ثم L F.U. T: 2 P: 51—52 ثم Des Granges 159

(٢) الحمأة : الطين الاسود المنتن (٣) الدمنة : المزبلة .

ان يكونوا تبعاً لهم(١) . لم يكن الرجـــل ذلك القلبَ الكبير الذي لا يضيق بالناس ويستبشر بما يرى عليهم من يمنٍ واقبال . وله في حديث الاصلاح آراء كثيرة كيفما قلّبتها وجدتها تئول آخر الامر الى تقديم طائفة النبلاء والحدّ من حظوة الطبقات الأخرى !

* * *

«مذكراته» : ـ بدأ سان سيمون جمع مذكراته وهو في التاسعة عشرة من عمره (١٦٩٤) . منذ ذلك التاريخ تمشّق كتابة هذه المذكرات واصبح في حاجة ماسّة « الى هذا النوع من الغذاء الذي لا يسعه بدونه الا ان يصير الى ذبول.» وقد بدأها بحوادث عام ١٦٩١ وختمها بحوادث ١٧٢٣ ، وهو تاريخ وفاة الوصيّ . والمذكرات مقدمـــة أوضح فيها رغبته بالنفاذ الى البواعث الخفية للاعمال ، وانه لم يفسح المجال كثيراً للحوادث والاشخاص ، ليتوفّر على ازاحة النقاب عن الدوافع النفسية التي كانت تعمـــل وراء الستار . ولها كذلك خاتمة أكّد فيها توخّيه الصدق ، لا الحياد ، لان هذا امر «يستحيل على رجل يتحدّث بما رأى وما صنع . » ثم يعتذر عـــن شواهد الاهمال في اسلوبه بقوله : « احسستُ بهذه العيوب ، ولم يكن في ميسوري ان اتجنبها وانا أسير المادة على الدوام وقليل الالتفات الى طريقة عرضها إلا اذا توقف على ذلك ايضاحها. »

والحق ان سان سيمون لم يُغفل مصدراً يمكن ان يقفه على بواطن الامور : كان يسأل بالحاف ويغير انقطاع الوزراء والقادة والنساء والاطباء والخدم ... وكان لا يزهد في نتف الاخبار بله السرور المطوّلة . بيد انه لم يكن يعرف كيف تنقد هذه الاخبار وتحقق ، وان شئت قلت انه لا يحب ذلك ولا يرتضيه . لم يكن له روح العالم واسلوبه. انه ليتقبل كل ما يقع من نفسه موقعاً حسناً ، فهو في ادبه اسير الاهواء الجامحة التي كانت تسير به في طرائق الحب والكراهية. هذه المذكرات ينقصها الدقة وتكتظ بالاخطاء والاكاذيب ، الاكاذيب المغرضة التي يترفع عنها كرام الناس . فلننفض ايدينا اذاً ممـا فيها من حقائق تاريخية كان بالامكان ان نأخذها من رجل وقف على منبـــع الحوادث واستقى منها ؛ ولنصرف النظر كذلك عن الحقائق الاخلاقية فيها ، لان الهوى يتحكم فيها ويعصف بها في كل مهبّ ، ولنكتف بما فيها من الحقائق التصويرية الفريدة الأخاذة. ان سان سيمون على قصر نظره وضيق مضطربه فنان لا يشقّ له غبار . انه عاجز عن ان يفلسف الامور ويستخلص العبر ؛ ولكن له عينين حادتين تحيطـــان بجملة الشيء

(١) L.T. 374, L.F.U. 52—53, Mémoires 7

ودقائقه ، ونفاذاً الى اعماق النفس ومقدرة على استجلاء حقائقها ، وذاكرة عجيبة تستحضر المناظر بأشكالها والوانها ، وقدرة على الملاحظة لا تفلت منها نبرة ولا حركة . انه اديب مصور ذو مزاج خاص . انه اعصاب تهيجها الاهواء ونفس لا تنفك في ثورة وغليان . ان عوامل النقمة في نفسه لتُحِدّ بصره وتذكي قوة ملاحظته . بهذا عُدّ سان سيمون اكبر اديب صور الحياة في فرساي على عهد لويس الكبير ، مع انك لا تطمئن الى آرائه وتكاد تفنّد له في كل صحيفة خبراً ! . فما كان في مذكراته من حوادث وافكار فهو في الغالب على ضلال ، وما كان فيها من مناظر وصور فهو دائماً صحيح . لقد صوّر القصور الملكية بريشة فنان تذوّق آياتها بفهم وعمق . اما الاناسيّ فله فيهم صور لا تبلى جدّتها على الزمان . فمذكراته معرض الرسوم الانسانية المتنوّعة المتحرّكة الناطقة . كان يحتذي الطبيعة في تصاويره ، على نحو ما فعل لابرويار ولوساج ؛ غير انه لم يرَ حاجة مثلهما الى الرمز والتلميح ، بل وضع تحت كل صورة اسمها . انك لتقرأ هذه المذكرات فتحسب انك ترى بعينك هؤلاء المعاصرين من رجال القصر ، من الملك الى الامراء الى الوزراء الى النساء الى الاطباء الى الحجّاب ؛ تراهم فرادى ومجتمعين ، فليس يراع الرجل في تصوير الجماعات بأقلّ منه في تصوير الافراد . هذه كلمة تستحضر لك وجه « هارلي » مطران باريس : « بوجهه المهينّ » ، اودوقة اورليان « الأميرة حتى على كرسيّها المثقوب » ، او « ريون » « ذلك الغلام الضخم القصير المطّهم (١) الشاحب الذي يشبه الدمّل . » وهذان خطان او ثلاثة خطوط تحيي في خيالك صورة لن تنساها ما حييت : « مخلوقة كبيرة نحيفة صفراء ، تضحك في بلاهة ، وتكشف عن اسنان طويلة بشعة ، مغالية في ورعها ، معقدة في سحنتها ، لا ينقصها غير عصا لتكون ساحرة كاملة » : تلك هي السيدة دي مونشيفروي . وهاك صورة المشيرة دي فيلروي : « بالغة الصغر ، عديمة العنق ، الى ضخامة من التنافر بحيث تكاد تمنعها من الحركة ؛ اما ذراعاها فاغلظ من فخذين عاديين ، تنتهي كل منهما بقبضة صغيرة وبيد دقيقة ظريفة ، كأجمل يد في الدنيا . واما الوجه فلا يختلف عن وجه ببغاء سمينة بعينين جاحظتين لا تريان شيئاً . انها لتمشي كذلك كالببغاء . »

واحياناً نرى سان سيمون اشبه بأولئك المصورين الذين يحرصون على ان يأخذوا للشخص اوضاعاً مختلفة ، ليسجلوا مختلف المعاني التعبيرية في وجهه وهيأته ، وليخلصوا

(١) المنتفخ الوجه .

من ذلك الى شخصيته والكشف عن طويته ؛ فنراه يعاود تصوير الوزير دي بوا والاديب فينيلون والملك لويس الرابع عشر على الخصوص ، فهو حاضر في مذكراته على الدوام ، نبيلاً رشيقاً دقيقاً رفيع التهذيب ، مشغوفاً بالمجد والعظمة ، ولكنه صغير العقل والقلب ، متعلق بالجزئيات مهمل للكليات ، متكتم الى درجة المكر ، في انانية تحمل على الابتسام حيناً وعلى القشعريرة حيناً آخر (١) .

نموذجان من نثره

لويس الرابع عشر والصراف

لم تكن الحاجة الى المال لتدفع النبلاء وحدهم الى تملق رجال المال من الشعب ؛ فسنرى في القطعة التالية من مذكرات سان سيمون ان الملك نفسه كان يضطر احياناً الى سلوك هذه الطريق للحصول على بعض القروض . اما النزهة الملكية الى « مارلي » التي يتحدث المؤلف عنها فقد كانت في السادس من شهر مايس ١٧٠٨ ، في وقت كانت فيه خزينة الدولة في عجز كبير بسبب الحروب المتوالية التي خاضتها فرنسا :

خرج الملك ماشياً في الساعة الخامسة ومرّ امام السرادقات من جهة « مارلي » . وخرج « برجيك » (٢) من سرادق « شاماييار (٣) » ليسير في ركابه . ثم توقف الملك عند الباب التالي ، حيث كان « ديماريه (٤) » الذي تقدم مع الصراف الشهير « صامويل برنارد » ، وكان قد دعاه للغداء والعمل معه . انه أغنى أغنياء أوربا وله أضخم وأضمن تجارة ؛ كان يشعر بقوته ويطمع الى ما يناسبها من مكانة ؛ وكان آمرو المالية يشعرون بحاجتهم اليه فيعاملونه بإكرام واحترام بالغين . قال الملك لديماريه انه جد مرتاح لرؤيته مع السيد برنارد ، ثم ما لبث ان خاطب هذا قائلاً : « لم يسبق لك ان رأيت مارلي . تعال تعرّف عليها في هذه النزهة التي اقوم بها ، وسأردك بعدئذ الى ديماريه . » فسار برنارد وراءه ، ولم يكن الملك طول هذه النزهة يتحدث إلا الى برجيك وإليه على حد سواء ، وقد طاف به كل مكان ، وأطلعه على ما هنالك بلطفه وحسن إيناسه اللذين كان يجيد اظهارهما عندما يريد تحقيق فكرة ما .

---

(١) اعتمدنا في دراسة هذه المذكرات على : L.F.U. 53 ، L.T. 376 ، المذكرات نفسها ، تراجم بعض الاسماء من Laroursse du xxème siècle (٢) الكونت دي برجيك ، من بطانة وزير الحرب (٣) وزير الحرب يومئذ (٤) وزير المال .

عجبت — ولم أكن وحدي في ذلك ـ لهـــذا النوع من مهانة الملك الضنين عادة بكلماته ، امام رجل من طراز برنارد . على انني سرعان ما تبيّنت السبب ، وعجبت حينئذ مما يضطرّ اليه الملوك العظام احياناً . لقد عجز دماريه عن الاحتيال للمال . انه لفي حاجة الى كل شيء وقد نفدت لديه كل ذخيرة . كان يقرع الأبواب في باريس ؛ لقد طالما نكث عهوده المختلفة وأخلّ بوعوده الصريحة ، حتى لم يجد امامـــه إلا ابواباً موصدة ومعاذير . كان برنارد ، كغيره ، لا يريد ان يُسلف الدولة شيئاً ، فقد كانت مدينة له بالكثير . عبثاً بيّن له دماريه إلحاف الحاجة وضخامـــة الربح الذي يجنيه من الملك ، فقد بقي برنارد ثابتاً لا يتزحزح . ها هما الملك والوزير في حيرة قاسية من امرهما. وقال دماريه للملك إنه نظر في الامور جيداً فلم يجد غير برنارد من يستطيع ان يخرجه من مأزقه ، لأنه مما لا شك فيه انه يملك اكبر رءوس الاموال ، ولذلك فما عليهما إلا ان يتغلبا على ارادته واصراره اللذين لم يخلُ من توقّح في اظهارهما ؛ وقال انـــه رجل مفتون بزهوه وجدير ان يفتح كيسه اذا تنازل الملك فلاطفه . وكان الملك في حاجة ماسة فوافق على ذلك ؛ واراد دماريه ان يحـاول التماس هذه النجدة من غير تبذّل ولا تعرّض للرفض فاقترح الحيلة التي ذكرتها لك . لقد خُدع بها برنارد ؛ وعاد من نزهة الملك الى سرادق دماريه وهو جدّ مسرور ، وقال له من غير تلبّث ولا تمهيد انه يفضل ان يتعرّض للخراب على ان يترك في القلق أميراً غمره بلطفه ، فهو شاكر له في حماسة واندفاع . لقد استغلّ دماريه ذلك الظرف واستفاد منه اكثر مما انتوى (١) .

فينيلون في كمبري

هذا الحَبْر كان رجلاً كبيراً نحيفاً حسن الهندام شاحب الوجه ، ذا أنف كبير وعينين يتدفق منها نار وذكاء كالسيل ، ووجه لم أرَ له شبيهاً ولا يمّحي من الذاكرة ، ولو لم تقع العين سوى مرة واحدة عليه ، يضمّ شتّى المعـاني ولا تتنافر فيه الاضداد ؛ ففيه الوقار والرقة ، والجدّ والدّعابة ؛ تتلمّس فيه رجل العلم ورجل الدين ورجـــل الوجاهة والنبل ؛ يطغو على ذلك كله ، بل على جماع شخصيته ، دهاء وفطنة وحشمة وفيض من نبل . ان صرف النظر عن تأمله امر غـــير يسير . كل صوره معبّرة ، ولكنها عاجزة عن ابراز الانسجام الدقيق الذي يأسرك به الاصل ، واللطافة في كل صفة

---

(١) Chevaillier: 323 – 325

من اوصاف هذا الوجه . اما عاداته وحركاته فتأتلف على النسبة نفسها ، في سماحة تفيض على الآخرين ، وهيئة وذوق سليم لا يتوصّل المرء اليهما الا بمخالطة كرام الناس والاحتكاك بالمجتمع الكبير ؛ أمور تظهر من تلقاء نفسها في احاديثه البليغة المرسلة العذبة المزهرة ؛ ثم أدب فاتن ، بيد أنه نبيل يقدّر لكل انسان قدراً ، وبلاغة سهلة أنيقة مستحبة ، يعبّر بها في جلاء ووضاءة عن أعقد الاشياء وأصعبها ؛ هذا الى انه رجل يأبى كل الاباء ان يبدي من الذكاء أكثر مما لدى الذين يخاطبهم ، وينزل الى متناول كل منهم من غير ان يُشعره ، ويدخل الى قلبهم الطمأنينة والسرور ، بحيث لا يستطيعون مفارقته او مقاومته او الامتناع عن السعي اليه . هذه الموهبة النادرة التي أوتيها في أعلى درجاتها هي التي ربطت به اصدقاءه ربطاً وثيقاً طول حياته ، برغم زوال حظوته ، وهي التي كانت تجمع شتاتهم ليتبادلوا الحديث عنه ، والاسفَ عليه ، والتعلّق به على نحو ما يفعل اليهود بمدينة القدس ، والتلهّف لعودته ، والامل فيه كما ينتظر هذا الشعب الشقي مجيء المسيح في لهفة وشوق . بهذا السلطان النبوي الذي كان له على مريديه اعتاد نوعاً من السيطرة الكاملة ، على لطفها وايناسها . من اجل ذلك فانه ما كان ليتحمل طويلاً من يعارضه لو قدّر له ان يعود الى القصر ويدخل مجلس الدولة الذي كان بغيته الكبرى .

فلما انسحب الى اسقفيته أخذ يعيش في ورع الكاهن واجتهاده ، مع فنّ الرجل الذي لم يزهد في شيء وأبهته وحرصه على تألّف الناس أجمعين . أبداً لم يبذّه أحد في الولوع بنيل الاعجاب ، من الخدم والسادة على حدّ سواء ، ولم يكن في مثل جدّه ومثابرته وعموم نظرته ومقدرته على تحقيق الأغراض . وكانت مدينة كمبري قبلة الزوار وطريق السفّار ، فلم يكن احد يبرعه في التهذيب ونفاذ البصيرة ولا في البشاشة والظرف اللذين يستقبل بهما الناس . كانوا يتحامونه في السنوات الأولى ، ولم يكن هو ليجري وراء أحد ؛ ثم قرّب اليه الناسَ حلاوةُ معشره وكرم شمائله . ومن حسن حظ هذه القلة من معارفه أن الكثيرين ممن ابعدهم الخوف عنه ولكنهم أحبّوا ان يبذروا عنده بذورهم ليجنوا ثمرها فيما بعد ، كانوا يغتنمون فرصة زيارته مغتبطين . كان الناس يبادرون اليه بين معجب وطامع . وكان قصر الكاهن يعجّ بالقاصدين كما لم نجم تلميذه الدوق دي بورجوني ؛ ثم ما لبث ان اصبح قوة فعالة لما آلت ولاية العهد الى الدوق . فالعديد من الناس الذين استقبلهم او أنزلهم في ضيافته لدن مرورهم بكامبري ، والعناية

التي بذلها للمرضى والجرحى الذين جيء بهم اليها في شتى المناسبات ، كل هذا مكّن له في قلوب رعاياه . كان يواصـــل عيادة المرضى في المصحات ، يقظان للصغير والكبير ، وكثيراً ما كان يؤوي لديه عدداً منهم بضعة أشهر حتى يتماثلوا نحو العافية ، وهو في ذلك حريص على سلامـــة نفوسهم ، مزوّد بتلك المعرفة للناس التي تستطيع ان تكسب ودهم وتشعرهم بالحاجة اليها ؛ ولم يكن يرى غضاضة في زيارة أحقر المصحّات اذا استزاروه ، وكان يتوفّر على العناية بهم كما لو لم يكن له شاغل غيرهم ؛ هـــذا من دون ان يُغفل مواساةَ اجسامهم : فالمرَق والأغذية وتفريج الكروب والادوية غالباً كانت تخرج من عنده بكثرة ، وهـــذا على غزارته في اعتناء وانتظام بالغين . وكان يهيّئ الاجتماعات للاستشارات الطبية الدقيقة . فلعلك لا تعجب بعد هذا كله اذا علمت انه كان معبود رجال الحرب ، وان اسمه يدوّي حتى في أرجاء البلاط (١) .



(١) Memoires 63 64, Chevaillier : 330—333

LA BRUYÈRE لا برويار

لما ظهر كتاب « الطبائع » ، عام ١٦٨٨ ، كان القرن العظيم يهدف الى (١) ما دعوناه « بالدور الثالث » . لقد فرغ الادباء الذين تألقوا في سمائه من كتابة آثارهم . ان اكثرهم لا يزال حياً ، بيد أنهم الآن يستريحون . ثم التمعت انجم فينيلون ولا برويار وسان سيمون ، فأكمل هؤلاء النوابغ بنفائس اصباغهم تلك اللوحة الادبية الرائعة (٢) ؛ وأغنوا بطريف انغامهم تلك المعزوفة الفنية الفريدة . وما كان لأحد ان يضيف الى تلك اللوحة ولا الى هذه المعزوفة شيئاً إلا أن يكون بارع الريشة رائع النفس .

• • •

حياة « لا برويار » مؤلف « الطبائع والصور (٣) » يكتنفها غموض كبير . ولد في باريس ١٦٤٥ . وكان ابوه مأمور الواردات في العاصمة ، وكان معسراً يجد مشقة كبيرة في السعي على اولاده الثمانية ؛ ومعنى ذلك ان كاتبنا نشأ فقـــيراً . وفي عام ١٦٦٦ فاز لا برويار باجازة الحقوق من جامعة « اورليان » ، ولكنه لم يرافع قط فيما يظهر ؛ بل اشترى منصباً في مديرية المال بمدينة « كان » بهبة أوصى بها اليه احد اقربائه وعاش منه زمناً ، من دون ان يضطر الى مفارقة باريس والقيام فعلاً باعباء منصبه . وفي اثناء ذلك كان الرجل يقسم وقته بين المطالعة والنزهة ودور التمثيل ، كما كان يتردد الى الكنيسة ليصغي الى روائع الخطب ؛ حيث التقى الاديب العظيم بوسويه ، وتوثقت بينهما الصداقة ؛ فأدخله في خدمة الامير كوندي مربياً لحيفده « دوق دي بوربون » . وكان لا برويار حينئذ في الاربعين من عمره . وبعد عامين فرغ من عمله ؛ غير انه لم يبرح القصر ، بل انضم فيه الى حاشية الأمـــير ، بعد ان نهض بعمله الذي لم يثمر ، كما لم يثمر قبله جهد بوسويه نفسه ، خير نهوض ، واستحق بذلك رضى الاديب الكاهن ورضى الأسرة . أما إن كوندي وابناءه لقوم غلاظ جفاة ؛ ان الحياة معهم لراعبة مبتسرة . كان لكوندي هذا وجه كواسر الطير وتفس لصوص الاقطـاع ، الى ضيق خلق وضراوة يفرق منهما

---

(١) هدَفَ الى الشيء : قاربه (٢) Portraits lit. 389-390
(٤) Caractères et Portraits



لابرويار

كل من حوله . لم يكن يجهل كيف يكون الانس وحلاوة المعشر اذا اراد ، ولكن ما اقل ما كان يريد ! اما ابنه ، دوق انجين ، فهو في الحق « بليّة خدمه وهولهم » ؟ واما التلميذ الحفيد فكان ، كما يقول سان سيمون في مذكراته ، جامحاً بادي الشر ، بل وحشاً ضارياً قريباً من « اولئك الحيوانات التي لم تخلق الا لتفترس . . . » وغني عن البيان ان لا برويار لم يكن سعيداً في هـذا الوسط الذي كان عليه ان ينتبه فيه ويحتاط لنفسه ابداً ؛ وآية ذلك تلك المرارة المعتمة التي بثها بين صفحات كتابه . ومع ذلك فقد عاش هناك عشر سنوات ، الى ايام قريب من وفاته ؛ لم يكن في ميسوره ان يتخلى عن حقل تجاربه هذا . كل امر ذي خطر في فرنسا كان يمرّ على فيلسوفنا الاديب المصور في ذلك القصر ؛ ولولا حظه السعيد الذي اتاح له ان يخبر النـاس ويطلع على كبريات الحوادث عن كثب لما ألّف لا برويار كتابه ولا شك .

قصد لا برويار ذات يوم الكتبي « ميشاليه » واطلعه على مخطوط من تأليفه وقال له : « أتريد ان تتولى امر هذا الكتاب ؟ لا اعرف ما عساك ان تفيد منه ؛ ولكن اذا كتب له النجاح فسيكون ربحه لصديقتي الصغيرة . » يريد ابنة الكتبي . اما المخطوط فهو كتاب « الطبائع لتيوفرست (١) ، مترجمة عن اليونانية ، مع طبائع هذا القرن وعاداته . » قبل الرجل ذلك العرض وكوفئ عليه خير مكافأة ، فتهيأ للآنسة الصغيرة مهرٌ حسن من ارباح هذا الكتاب التي تخلى لها اديبنا الطيّب عنها ؛ اذ نفدت الطبعات الثلاث الاولى في سنة واحدة ، وتوالت بعدها ست اخرى في سبع سنوات ، كان المؤلف اثناءها لا يني يهذّب كتابه ويزيد عليه حتى بلغ ثلاثة امثال حجمه الاول (٢) ؛ اما القسم المترجم فقد لمس لا برويار ان الجمهور لا يحفله كثيراً فحذفه وسمى الكتـاب « طبائع وصوراً . » وفي عام ١٦٩٣ انتخب لا برويار عضواً في المجمع العلمي ، واعتبر انتخابه فـوزاً لانصار القديم . وفي عام ١٦٩٦ كان يعدّ كتابه للطبعة التاسعة فوافاه الأجل في فرساي عن واحد وخمسين ربيعاً (٣) .

• • •

(١) فيلسوف يوناني عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ؛ وترك مجموعة من ثلاثين «صورة او طبيعة»، فنقلها لا برويار الى الفرنسية ونشرها في صدر كتابه ؛ ثم بدا له فحذفها من الطبعات الاخيرة .

(٢) ارتفع عدد القطع التي الفها لا برويار من (٤٢٠) الى (١١٣٠)

(٣) اخذنا ما يتعلق بحياة هذا الاديب من : Des Granges 145—146 ، ومن : L.T. 325—326 ومن L.F.U. Tome 2 (45—46)، ومن : Les Contemporains: 296-297 ومن مقدمة كتابه .

عاش لا برويار حياة عزّب وادع يحب العزلة ويفضل قراءة الكتب على عشرة الناس. ويلهو بمتع العقل عن حسرة الفشل . هكذا امضى في باريس الشطر الاكبر من حياته . فكرٌ حرٌ يسمو على الاوهام ، ينتقد ولكن لا يثور ؛ ونفس طامحة ، تشعر بفضلها وتأسف لحرمانها ، ولكنها لا تعمل شيئاً لتحقيق آمالها ، أنفةً من الوسائل الدنيئة التي يمكن بها الوصول الى كل شيء . ثم يتدخل بوسويه فيخرجه من عزلته ويلقي به في احضان العالم المضطرب السادر في غوايته وضراوته واباطيله ، في قصور السادة الاشراف . لا يسكن لا برويار الى هذا الوسط الجديد ؛ بيد أنه يبقى فيه على مضض ، مفتوناً بهذا المجتمع النابض بالحياة ، مشغوفاً بتلك الصور الآدمية المتحركة ، يرقبها في روية ويسجلها في اتقان ، ويضيف اليها افكاره عن المجتمع والانسان ؛ ويتحمل في سبيل فنه صلف « ابناء الآلهة » ونذالة بطانتهم ، ويألم من ظلم الهيئة الاجتماعية وغفلتها عن النابهين امثاله : ذلك هو جرح لا برويار الذي لا يندمل ، ومنبع حزنه الخفي وحسرته وتشاؤمه الذي نستشفّه في كتابه ، ولا سيما فصل : الكفاية الشخصية . على انه كان يحرص على إخفاء حسرته وغمّه ، فلا يبديهما في حديثه ولا نلمحهما في غير كتابه ؛ وعلى اننا نتبيّن الي جانب ذلك ، في سيرته وكتابه نفساً كريمة رقيقة الحاشية تأنف من الصغائر وتترفّع عن الضغائن وتألم لما يحلّ بالانسانية من احزان (١) . يقول سان سيمون : « انه رجل نبيل جداً حسن المعشر ، بسيط ، غير متعالم ، في منتهى التجرّد والنزاهة (١) . »

• • •

تتضمّن « الطبائع والصور » ستة عشر فصلاً : ١ — في الآثار العقلية : وفيه يبسط لا برويار مذهبه ويناصر القدامى ؛ غير أنه يعجب بكورني وراسين وموليير ولافونتين . . . ، وهو يوجه اللوم الى انصار الحديث ويشبههم بأولئك الاطفال الذين يوسعون مرضعتهم ضرباً بعدما تغذّوا وتقووا بلبنها . ٢ — في الكفاية الشخصية : وفيه يأسف من ان المجتمع لا يوقّر غير النبلاء وذوي الثراء ؛ ثم يعرّف الفضل والكفاية الصحيحين ، وهما مع ذلك لا يصلان آخر الامر الى اكثر مما وصل اليه بليدغني او نبيل . ٣ — في النساء : انهن كواذب طائشات خوادع متأنقات ، ألقين زمامهن الى الغريزة ؛ وهن خيرٌ أو شرٌ من الرجال . ٤ — في القلب . ٥ — في المجتمع وخلطة

(١) المصادر السابقة نفسها .

النـاس . ٦ — في الثروة : نقد لاذع للمتمولين والوصوليين « تلك الانفس الدنسة ، المعجونة من وحل وقذر ، بغير رحمة وبغير ضمير ؛ تقيء المالّ والناس من حولها جياع عراة تنقبض لرؤيتهم النفوس . ٧ — في المدينة : تصوير للمجتمع البورجوازي ، مرابيه وتجاره وقضاته ، الذين بدءوا يفقدون فضائلهم ويتشبّهون برجال القصر . ٨ — في القصر : حيث الحقارة والدناءة والغطرسة والضراوة والتقاليد . المصلحة الخاصة هي الدافع الوحيد الى كل عمل ، والنفاق هو السبيل الوحيد اليها . ٩ — في العظماء : وهم اغبياء أثرون فاسدون غلاظ الأكباد معجبون بأنفسهم ، متكبرون على الشعب وهو اسمى منهم . ١٠ — في المليك والحكومـــة : صورة للملك الامثل : لويس الرابع عشر . ١١ — في الانسان : وهنا يبين شقاء الفـــلاح وسوء حاله . ١٢ — في الحكم على الاشياء : ضعف تفكيرنا وبلاهة رغبتنا في الحروب . ١٣ — في سلطان الاذواق والازياء الدارجة . ١٤ — في بعض العوائد : نقد للعادات الاجتماعية السيئة . ١٥— في الوعظ : نقد للبلاغة الزائفة . ١٦ — في الملاحدة : تفنيد لآراء المتشككين من مدعي المعرفة (١) .

يدعي لا برويار انه لم يؤلف كتابه إلا ليحضّر الاذهان الى هذه النتيجة : دحض مزاعم الملحدين . والحقيقة ان هذا الفصل الأخير والفصل الذي جاء فيمنتصفالكتاب عن : المليك والحكومة ، اراد بهما المؤلف ان يذرّ الرماد في عيون السلطتين المدنية والدينية لئلا تجرحهما الصراحة واستقلال التفكير اللذانيسودان بقية اجزاء الكتاب(١).

واذا تأملت هذه الفصول لحظت ما يشبه ان يكون خطة مرسومة لترتيبها . غير انه لا ينبغي لك ان تتشدد كثيراً في التماس الصلات بين الفصل وأخيه ؛ إذ « الطبائع والصور » ما هي إلا ملاحظات وخواطر سجلهـا المؤلف من يوم الى آخر وهو يحتك بالمجتمع ويرقب الناس ؛ حتى اذا امتلأت وفاضه جعل يصنفها وينظمها في فصول ، وربما تردد اين يضع فكرته ، فاذا هي تتغير بين طبعة واخرى . هذا التساهل في ربط اجزاء الكتاب كان لا برويار فيما يظهر يرتاح له : إذ أتاح له ان يعبّر عن كل ما رأى ، فالمناقضات والفروق الدقيقة كلها ماثلة في كتابه من غـــير ان تتنافر ، وذلك لانها تتجاور ولا تختلط (١) . ثم أتاح له ذلك ان يتجنب الاسلوب التعليمي الرتيب ليجول في مدى من الحرية اوسع . فالطبائع والصور هي من الكتب التي يمكن ان نفتحها حسبما اتفـــق ،

L.T. 327 –328 (١)

فنقرأ ، ونمضي الى بعض شأننا ، ثم نعود الى القراءة ، ونستفيد من تلك الحصص القصيرة ونستمتع بقراءتها من غير كلفة ولا جهد (١) . يقول سانت بوف : « القارئ لهذا الكتاب يمرّ في متاهة علمية متصلة الحبل ، تهذّب فيها الافكار شيئاً فشيئاً وتنمو ويوضّح بعضها بعضاً (٢) » .

مذهبه الاخلاقي : — الانسان في نظر لا برويار لا يختلف عنه في نظر المفكرين في عصره : انانيّ مختال طائش مفرط او مفرّط ، لا يلزم جادّة الاعتدال ، متخذ من اهوائه وعاداته ومصالحه قوانين وحججاً ، وعاجز عن ان يستقر على عاطفة عميقة (٣) .

اما تصوره للمجتمع فأقوى حبكاً وأوثق اتصالاً بنفسه . يراه قائمـــاً على الحسب والنسب ، تتعبده المناصب ويستبد به حب المال . لا يكتم لا برويار نقمته على النظـام الاجتماعي ، بل كثيراً ما يعلي صوته بالنقد اللاذع والاحتجاج الصارخ . كيفما التفتّ اليه وجدته ساخطاً على الاوضاع في عصره : فالنبالة سلعة تشترى ويقصد بهـا التخفف من الضرائب ، والدين العوبة يستغلها المنافقون ، وموظفو المال ينهبون الدولة ويثقلون كاهل الشعب ، وسادة الاقطاع ظلمة كسالى مفسدون ، والقضاء بطيء الأحكام كثير النفقات بعيد عن العدالة ، والحياة العائلية مضطربة يستهان فيها برغبات البنين والبنات وتستبدّ بها شهوات الآباء ، والفلاحون والعمال والكادحون لا يقطفون ثمرة اتعابهم ... هـــذه الامور نفسها اصبحت فيما بعد ثغرات قوض منها ادباء القرن الثامن عشر اركان النظم القديمة ؛ كذلك حدة اللهجة فهي اشبه بلهجة الادباء في هذا القرن . « اذا وجب ان اختار بين الكبراء والشعب فانا لا اتردد : اريد ان اكون الى الشعب (٣) » .

صوره : — هذا النـاقد الاخلاقي اديب مفتن قبل كل شيء . انه لا يُعالى ولا يداني في القدرة على ملاحظة الحركات والسكنات التي تتجلى بها الطبائع والاهواء . هذا هو ميدانه يجول فيه ويصول . لقد جمع في حذاقة ودقة وصبر كل ما تقع عليه العين في الانسان مما يهتك الستار عما لا تقع العين عليه : مشيته ، نظرته ، حركته ، لباسه ، اسلوبه في الكلام ، وعلى الجملة : كل شيء يفضح المضاحك والمخازي فيه . تفكير منوع دقيق ينبض بالحركة والحياة ؛ فهـــذه صور طريفة غنية بالالوان والخطوط الموضّحة ،

(١) Des Granges 147 (٢) Portraits littéraires 409
(٣) Les Caractères I (5-8), Des Granges 147, L.T. 238—239 ،
، Les Contemporains : 297 -299, L.F.U. Tome 2, P : 47

تكتسي فيها الفكرة ثوباً مادياً وتتجسّد . تارة تهبط عليه الفكرة المجردة ، فيتذكّر ما يصادفه في الحياة من اشخاص ، فاذا هو يعمل على ان يستبدل المعاني الخافتة بما يقابلها من شارات محسوسة . واخرى يستعير من هنا حركة ومن هناك اشارة ويؤلف صورة مركبة لا يُستبعد ان تكون في الحياة . وثالثة تتناول الصورة انساناً بذاته تعرضه بكل صفاته وشواذّه ومناقضاته عرضاً اميناً لا توجهه فكرة خاصة ولا تحاول ان تغير فيه شيئاً . ورابعة يبدو له فيدسّ في هذه الصورة الواقعية خطاً او خطين ليُزيغ عنها عيونَ الناظرين ويصرف عنها تفكير المعترضين (١) . وهو في كل ذلك لا يخرج عن واقع الحياة وان خرج عن واقع المثال الذي يحتذيه . ومن هنا جمعت « صوره » بين امرين عظيمين قلّما يُيسّر اديب اليهما معاً وهما : طرافـــة الواقعية وعمومية الصورة ، يجمع بينهما في تآلف عجيب . فالصورة تُبرز لك خطوطاً مادية ومعنوية تمثل صنفاً من الناس على وجه العموم ، ولكنها في الوقت نفسه تشعرك بخصوصيتها وذلك بما تختار من عناصر طريفة تضمها الى جانب العناصر العامة الثابتة . ومعنى ذلك ان لابرويار يرى الانسانية من خلال الاشخاص ، فاذا قرأت « صوره » عرفت انه لا يسير وراء المعـاني المجرّدة التي لا حياة فيها ، بل وراء المعاني متلبسة اشخاصاً لهم فرديّتهم او طابعهم الخاص ؛ هذه الفردية في ادب الصور تشابه الألوان المحلية في ادب المسرح ؛ وما كان لهذه او لتلك ان تخرج الانتاج الفني عن عموميته ، ولكنها تقوّيه وتنفخ فيه الحياة .

اسلوبه : — لهـــذه النظرات السديدة والصور البارعة سخّر المؤلف اسلوبه العبقري العجيب . انه ليولي التعبير المحكم الرشيق اقصى عنايته . فاذا كان رأس ما يعنى به الاتباعيون سلامة الفكـرة وجلاؤها ، لاعتقادهم بأن جودة التعبير تأتي بعدئذ من تلقاء نفسها ، فان لابرويار يجد المتعة الكبرى في قوة السبك واشراق الأداء ؛ الاسلوب للاسلوب : هذا هو شعاره ، وهذا هو الجديد الآخر في ادبه . انه لينتفع بسعة اطلاعه اللغوي حقّ انتفاع ؛ فمأنوس الكلم واوابده ومصطلحه ، كل اولئك يتجاور ويتآلف ويملك الالباب . اما العبارة فمرنة طيّعة منوّعة الى غير نهـاية : من سرد الى عرض الى استفهام الى تعجب الى إنكار الى حذف الى ايماء الى التفات الى حوار الى إخبار . ومن حكمة الى صورة الى نقد الى رأي الى أمنية ، فعل الاديب الصنّتع الذي يحيي بريشته

(١) Les Caractères I (5-8), Dds Granges 147, L.T. 238–239 ، Les Contemporains : 297—299, L.F.U. Tome 2, P : 47 ،

البارعة جميل المعاني فلا يجري وراءه قارئ الا مأخوذاً مبهور النفس . تارة تنطلق العبارة وتتسع فتملك اعجابك بنصاعة مدخلها وبراعة مقطعها ، واحياناً تنكمش لتتواثب الى فهمك تعبيراً شارداً وقولاً مأثوراً جديراً ان ينقر على المرمر والرخام : انه ادب : الأحسن في الاقصر ، كما يقول سانت بوف هنالك صفحات كل كلمة فيها نزلت في مكانها بعد لأي وطول نظر ؛ وانما لنقرأها فنتردد بين الاعجاب لهذا الفن الرفيع والاحتجاج لما يبدو لنا احياناً من أثر الجهد والكلفة . ذلك بأن النقاد اذا اجمعوا على طرافة هذا الاسلوب ورشاقته وحياته ، فقد أجمعوا كذلك على ان هنالك فقرات واحياناً مقاطع ظهر فيها اثر الكلفة والعناء . ومهما دار الأمر فكثيراً ما يتغلب لابروبار المفتن الصناع على لابروبار المتأمل المفكر ؛ وعلينا نحن ان نميز ما يكون منه نفحة من نفحات الالهام او حسبة من وقفات الفن ؛ كما ان علينا ألا نؤخذ بسحر هذا الفن وذلك الالهام فننسى القيمة الانسانية الكبرى لافكار هذا الاديب العظيم وصوره (1) .

نماذج من كتاب الطبائع

ان صنع الكتاب لحرفة ، مثل صنع الساعة ؛ ان تصديك للتأليف يقتضيك حظاً أوفر من الذكاء . لقد بلغ احد الحكام بألمعيته أعلى المناصب ؛ كان رجلاً حاذقاً دربا حسن التأتي للأمور . ثم طبع كتاباً يصور فيه الاخلاق والعادات فكان في السخافة منقطع النظير .

. . .

لأسهل عليك ان تنتزع الثناء على كتاب حقير بشهرة اكتسبتها من ان تنال الشهرة بكتاب بلغ حد الكمال .

. . .

هنالك اشياء لا يطاق التوسط فيها : كالشعر والموسيقا والرسم والخطابة .

. . .

للفن ذروة من الكمال ، كما للطبيعة ذروة من العطف والنضج ؛ فمن عرفها وأحبها

---

(1) Des Granges 147—148, L.F.U. Tome 2, P : 47, L.T. 330 ، Les Caractères Tome 1 P : 9, Portraits littéraires 411 ، Les Contemporains : 299

فهو صاحب الذوق الكامل ؛ ومن لم يعرفها واحب ما دونها او ما فوقها فهو صاحب الذوق الفاسد . هنالك اذن ذوق رهيف وآخر سخيف ، وهنالك اساس لمناقشة الاذواق .

• • •

ركام النعوت اماديح رديئة : هي اعمالك تثني عليك ، ثم طريقة عرضها .

• • •

بين مختلف الطرائق التي في قدرتها ان تؤدي فكرة واحدة لا نرى غير واحدة مثلى . اننا لا نعثر عليها دائماً حين نتحدث او نكتب : بيد أنها في الحق موجودة ، وان كل ما عداها ضعيف لا يرضي رجلاً اريباً يحاول التعبير عن نفسه .

المؤلف البارع الذي يكتب في عناية يشعر غالباً بأن التعبير الذي يبحث عنه منذ طويل من دون ان يجده ثم يجده آخر الأمر : هو التعبير الابسط والاجرى مع الطبع ، الذي يبدو اول الرأي انه كان ينبغي ان يسهل علينا وان يتسابق الينا .

• • •

لذة النقد تحول بيننا وبين الاستمتاع بأجمل الاشياء .

• • •

كثيرون يبلغون ان يقدروا افضل مخطوط يتلى عليهم ؛ بيد أنهم لا يستطيعون ان يجهروا بالثناء عليه ، حتى يروا ما سيناله بين الناس من رواج بعد الطبع ، او ما سيكون حظه بين العارفين : انهم لا يخاطرون برأيهم ، ويريدون ان تدعّهم اليه الجماهير دعّاً[1] وان تحملهم عليه حملاً . عندئذ يقولون انهم اول من استحسنوا هذا الكتاب ، وان الجمهور قد رأى رأيهم .

هؤلاء الناس يفيتون اجمل الفرص لاقناعنا بفضلهم وعلمهم وبأنهم يسددون الحكم ، فيرون الجيد جيداً والرائع رائعاً . يقع بين ايديهم مؤلَّف جيد لم يشتهر واضعه بعد وليس هناك ما يتنبأ له بالحظوة ؛ هذا الى ان استحسانه لا يقربهم في القصر ولا يعطف عليهم الكبراء : لسنا نسألك يا زيلوت[2] ان تهتف : هذه تحفة الذكاء الانسانية ما إن تجاوز هذا ، الى هنا فقط يسمو اللفظ الانساني ، لن يُحكم بذوق احد الا بنسبة ما يسيغ هذه القطعة : عبارات مستكرهة ، مبالغ فيها ، تفوح بالاجر ، ولضر

---

(١) الدعّ : الدفع العنيف (٢) هذا الاسم من كلمة يونانية معناها : المنافس الحسود .

حتى بالجيّد الذي يراد توجيه الثناء اليه . لماذا لا تكتفي بالقول : « هذا كتاب حسن » ؟ ألحق انك قلت ذلك مع فرنسا كلها ، مع الاجانب والمواطنين ، حين طبعته اوربا كلها وحين تُرجم الى عدد من اللغات . لقد فات الأوان .

• • •

— ماذا تقول في كتاب « هيرومودور » ؟ أجاب « أنتيم » : انه رديء — رديء ؟
— من الرداءة بحيث لا يكون كتاباً ، أو أنه لا يستحق ان يتحدث الناس عنه .
— ولكن هل قرأته ؟ — كلا .
لماذا لا يضيف أنتيم أن ف.و.ل. أسقطاه من دون ان يقرأاه ، وأنه صديق لهما[1] ؟

• • •

« أرسان » يتأمل الناس من أعلى ذروات فطنته ؛ وهو في ذلك البعد الذي يطلّ منه عليهم يكاد يساوره الخوف من صغارتهم ؛ ان نفراً ممن تواعدوا بتقارض الاعجاب ليمدحونه ويمجدونه ويرفعونه الى السموات ؛ فهو يحسب بماله من فضل زهيد أنه قد امتلك كل ما يدخل في الطوق امتلاكه وما لن يفوز به ابداً ؛ استغرقته افكاره العظيمة فما إن يجد الفراغ ليفوه ببعض الآيات ؛ وهو اذ سما بطبعه على الاحكام البشرية فقد ترك لسواد الناس فضيلة عيش مستوٍ رتيب ، وما كان ليتحمل تبعة حماقاته الا امام تلك الحلقة من الاصدقاء الذين يعجبون بها ويقدسونها ؛ هم وحدهم يحسنون الحكم ، يحسنون الكتابة ويجب عليهم ان يكتبوا ؛ ليس من مؤلَّف حصيف يلاقي من احتفال الناس ويُجمع الثقات على تذوقه الا أنِفَ من قراءته ، ولا اقول انه ابى ان يستحسنه[2] : انه اذن غير أهل ليصلح نفسه بهذه الصورة التي نقدمها بين يديه ، لأنه لن يقرأها ابداً .

• • •

يعرف « تيوكرين » أشياء لا فائدة منها ؛ افكاره غريبة على الدوام ؛ يجنح الى النظام ولا يطيل التعمق ؛ وهـــو لا يدرّب غير ذاكرته . لقد شغلته افكاره وأضمر الاحتقار للنـــاس ؛ ويظهر انه لا يفتأ يضحك في نفسه من اولئك الذين يعتقد انهم لا يساوونه . اتفق لي ان قرأت عليه كتابي ؛ فأصغى اليه . ما كدت انتهي حتى حدثني عن كتابه . ستقول لي : « وما رأيه في كتابك ؟ » — لقد ذكرته لك ، فهو انمـــا حدثني عن كتابه .

• • •

(١) الخط الصغير اشارة الى تغير المتكلم (٢) لاحظ دقيق التهكم .

ما من مؤلَّف مهما تمَّ واكتمل إلا ويزول عن آخره امام النقد ، اذا صدَّق صاحبه فيه جميع اللائمين الذين يريد كل منهم ان يحذف منه موضعاً لا يروقه .

• • •

ما ابعد الشقة بين كتاب جميل وآخر صحيح . ترى هل لهـــذا النوع الاخير وجود ؟ لعل اسهل على العبقريات الفذة ان تــــأتي بالعظيم الجليل من ان تتحامى انواع الخطأ . لم يرتفع مع « السيد » حين ولادتها غير صوت واحد ، صوت الاعجاب ؛ لقد بدت أقوى من السلطة والسياسة (١) اللتين جَهِدَتا ان تقضيا عليها من غير جدوى (٢) ؛ فاجتمع على اكبارها عقولٌ شتّى واهواء متباينة ، العظماء والشعب : اتفقوا جميعاً على استظهارها وسابقوا الممثلين على المسرح في تلاوتها . جملة القول ان السيد هي احدى انفس المنظومات التي يمكن ان تجود بها قريحة ؛ ومع ذلك فان من اشد المعارك النقدية التي دارت رحاها حول موضوع ادبي : معركةَ السيد .

• • •

عندما يسمو كتاب بعقلك ويلهمك نبيل العواطف وجريئها ، فلا تلتمس قاعدة اخرى للحكم عليه ؛ انه جيِّد انتجته يدٌ صنّاع .

• • •

ينفق الفيلسوف (٣) عمره في ملاحظة الناس ، ويستنفد مواهبه في تمييز عيوبهم ومضاحكهم ؛ إن يحرص على حسن اداء افكاره فليُبرز ما يرى من حقيقة بجلاء يكفي لايجاد التأثير الذي يحقق رغبته ، لا لارضاء زهو المؤلِّف فيه . ان بعض القرّاء يحسبون انهم يُثملون أجرَه اذا قالوا متعالمين انهم قرءوا كتابه وانهم وجدوا فيه فطنة ؛ بيد أنه يردّ عليهم كل اماديحهم التي لم يسع اليها مرة بجدّه وسهره . انه ليذهب بامانيه الى اعلى من ذلك وانه ليعمل لغاية اسمى : فهو يطلب من الناس نجاحاً اكبر واندر من الثناء ، بل ومن حسن الجزاء ، الا وهو اصلاح امرهم .

• • •

لا يكفي الاّ تكون تصرّفات الابطال على المسرح رديئة ، بل يجب كذلك ان تحتشم وتفيد . قد تَعرِضُ أضحوكةٌ وضيعة غليظة تافهة بحيث لا يسمح للشاعر ان

(١) اولى مآسي كورني العظيمة ؛ تقدم تحليلها . (٢) يشير الى موقف العداء الذي وقفه منها الوزير ريشليو والمجمع العلمي من ورائه . (٣) يقول الشارح الاستاذ « رونيه تيرنوا » : ان المؤلف يعني نفسه ولا شك .

يعيرها التفاتا ولا يمكن للنظارة ان يجدوا فيها استمتاعا . الفــــلاح او السكير يلهم المهرج بعض المشاهد ؛ غير انه لا يكاد يدخل في الملهاة الحق : وإلا فأنّى له ان يكون ركناً وعملاً اساسياً في الملهاة ؟ يقولون ان هؤلاء الاشخاص طبيعيون . على هـــذه القاعدة فسيملأ المسرح بخادم يصفير ، وبمريض يشخير [1] ، وبشمل ينام او يقيء : أهناك شيء اكثر طبيعية من هذا ؟

• • •

يتمجّد بعض الناس بالكتابة الجيدة ، ويمجد آخرون بألا يكتبوا شيئاً.

• • •

— هوراس [2] او ديسبريو [3] سبقك الى هذا . — اصدّق ما تقول . على اني ذكرته كقول لي . أتراني لا استطيع ان افكر بعدهما في شيء صحيح سيفكر به آخرون بعدي ؟

• • •

كثير من الناس ليس فيهم ما يجدر بالتقدمة غير الاسماء : فان انت رأيتهم من قرب فهم اقل من الهباء ؛ اما عن بعد فيوحون اليك الرهبة والاجلال .

• • •

على اعتقادي بان الذين اختيروا لمختلف الاعمال ، كل حسب قابليته ومهنته ، قد احسنوا عملاً ، فانني اجرؤ على القول بانه ربما كان في العالم عدد كبير من الرجال ، بين معروف ومجهول ، لم يعهد اليهم عمل ، وهم مع ذلك أحقاء ان يكونوا احسن عملاً من اولئك . يحملني على هذا الرأي ذلك النجاح الباهر الذي اصابه اناس قدّمتهم الصدفة وحدها ولم نسمع عنهم من ذي قبل اشياء كبيرة .

كم من رجال افذاذ نوابغ قد ماتوا من دون ان يتحدّث عنهم احد ! وكم منهم من لا يزال على قيد الحياة ولا يجري ذكرهم على لسان ولن يجري أبد الآبدين !

• • •

---

(١) حذفنا في هذا الفعل عن الاصل (٢) الناقد الروماني الشهير (٣) بوالو ، كبير النقاد في هذا القرن .

ماذا نصنع بـ« المجيريب » الذي يطلب عملا ؟ أنضمه في المالية ام في الجيش ؟ سيان، يجب ان تبتّ المصلحة وحدها بذلك : لأنه قادر على تدبير المال وإعداد الحساب قدرته على قيادة الكتائب . « انه اهل لكل شيء » ، كذلك يقول اصحابه ؛ الامر الذي يعني دائماً أنه ليس أقبل لشيء منه لغيره . او بتعبير آخر : أنه لا يصلح لشيء . كذلك شأن الكثرة من الناس الذين تشغلهم انفسهم في شبابهم وتفسدهم اللذة او الكسل ، فهم يظنون خطأ حين تتقدّم بهم السنّ أنه يكفي ان يكونوا عاطلين معوزين حتى ترى الحكومة لزاماً عليها ان تبادر الى تعيينهم او بجدتهم ؛ وقلما استفادوا من هذا الدرس العظيم الاهمية : وهو ان الناس ينبغي لهم ان يبذلوا سني حياتهم الاولى ليكونوا بالدراسة والجدّ بحيث تحتاج الدولة الى نشاطهم ومعارفهم ، وبحيث يكونون اشبه بقطعة ضرورية لبنيانها ، وبحيث تجد أنها محمولة بمحض منافعها على إغنائهم واسعادهم .

علينا ان نعمل على ان نصبح جديرين حقاً بعمل ما ؛ اما ما سوى ذلك فلا يعنينا ، انه عمل الآخرين .

• • •

ما كان لرجل ذي كفاية ومنصب ان يثقل علينا بصلّفه ؛ انه اقرب الى الخجل المنصب الذي لا يحتله والذي يعتقد انه به جدير ، منه الى الزهو بما يشغله من عمل : لهو أجدر بالقلق منه بالاعتزاز او باحتقار الآخرين ، فهو لا يثقل الا على نفسه .

• • •

التواضع من الكفاية والفضل كالظلال من الصور في اللوحة : تعطيها قوة ورواء . المظهر البسيط هو ثوب الرجال العاديين ، فُصّل من اجلهم وعلى قياسهم ؛ لكنه زينة لأولئك الذين ملأوا حياتهم بجلائل الاعمال : انني اشبهها بجمال زاده الاهمال روعة .

هنالك فئة اعجبتهم انفسهم ورضوا عن عمل قاموا به او كتاب الفوه وصادف بعض الرواج ، ثم سمعوا بان التواضع يناسب عظماء الرجال ، فتجرّءوا على ان يكونوا متواضعين وقلدوا البسيط والطبيعي : هم أشبه بذوي القامات القميئة (١) الذين ينحنون امام الابواب لئلا يصطدموا بها .

• • •

ـــ تقول ان الذهب يتوهج على ثياب « فيليمون » ؛ انه ليتوهج كذلك عنــــد

(١) الصغيرة الحقيرة .

التجار . — لقد ارتدى اجمل الأثواب . — افتكون اقل جمالا حـين تعرض في الحوانيت ؟ — بيد أن الوشي والتطريز يزيدانها بهاءً . — فانا اثني على عمل الصانع . — ان يُسأل عن الوقت يخرج ساعة هي احدى التحف ؛ مقبض سيفه عقيق يمان ؛ على اصبعه ماسة رائعـة تلمع للعيون ؛ لا ينقصه شيء من تلك الزينات الثمينة التي تُحمل للافتخار بها والاستفادة منها معاً ؛ ثم هو لا يأبى على نفسه كل حلية يتقلدها شاب تزوج عجوزاً من ذوات الثراء . — اما انك لتوحي اليّ بحب الاستطلاع ؛ يجب ان ارى على الاقل اشياء بهذه النفاسة : ارسل الي ثوب فيليمون هذا وجواهره ، واما أعفيك من شخصه .

تخطىء يا فيليمون اذا كنت بهذه العربة اللامعة وهذا العدد الضخم من الصعاليك الذين يسيرون في ركابك ، وهـؤلاء البهائم الست التي تجرك ، تعتقد بأنك اكثر حرمة بين الناس : انهم يتخطون كل هـذا المتاع الغريب عنك لينفذوا الى شخصك التافه البليد .

ليس معنى ذلك انه يجب ألا نسامح الرجل الذي يظن لنفسه اصلاً انبل وعقلاً ارجح ، لما يرتدي من حرّ اللباس ولمـا له من موكب وتبع : انه يقرأ هذا في وجوه المتحدثين اليه وفي عيونهم .

• • •

« سيلس » رجل من سواد الشعب ، غير ان الكبراء يوسعون له ؛ ما هو بعالم ، بل تصله بذوي العلم أواصر ؛ ضئيل الفضل ، غير انه يعرف اناساً جد فضلاء ؛ ما هو بذكي ، غير أن له لساناً معبراً ورجلين تحملانه من مكان الى آخر ؛ لقد خلق ليغدو ويروح ، ليستمع الى عروض وينقلها ويتكرم بها ، ليجاوز مهمته ويجرّ على نفسه اللوم ، ليصلح بين جماعة تناكروا من اول لقاء ، ليفوز في مسعى ويخيب في الف ، ليعزو الى نفسه مجد الفوز كله ، وليصرف الى الآخرين سخط الخيبة . يعرف الاخبار الشائعة ، وحُكَيّات المدينة ؛ لا يقوم بعمل ، بل يحدّث بما فعل الآخرون او يصغي الى الحديث عنه ؛ انه إخباري ، يحيط حتى باسرار العـائلات ؛ ويخوض في اعمق الخصوصيات : يقول لك لماذا نُفي هذا الرجل ، ولماذا استدعي هذا الآخر ؛ لا تخفى عليه اسباب النفرة بين الاخوين والقطيعة بين الوزيرين : ألم يتنبأ للأولين بعواقب الشقاق الوخيمة ؟ ألم يقل عن هؤلاء ان وحدتهم لن تطول ؟ ألم يحضر بعض ما قيل من كلام ؟ ألم يدخل

في نوع من المفاوضة ؟ هل ارادوا ان يصدقوه ؟ هل استمعوا له ؟ ألا من تخاطب في هـــذه الامور ؟ من شارك بنصيب اوفى من « سيلدس » في كل ما دار في البلاد من مؤامرات ؟ ولو لم يكن دلك ، لو لم يحلم به على الاقل او يتخيله ، أكان يفكر باقناعك به ؟ أكان يبدو فيما يبدو فيه الرجل العائد من سفارته من هيئة خطيرة غامضة ؟

• • •

اعرف «موبس» من زيارة قام بها لي من غير ان يعرفني . انه ليرجو نفراً لا تصله بهم صلة ان يزيروه (١) آخرين هم له منكرون ؛ يكتب الى نساء يعرفهن بالنظر ؛ يندس في حلقة من رجال محترمين لا يعلمون من هو ؛ وهناك ، من غير ان ينتظر منهم سؤالاً ومن غير ان يشعر بانه يقاطع ، يتكلم ، فيُفيض ويسف . يدخل مرة اخرى في محفل فيجلس حيثما كان ، غير ملتفت الى احد او الى نفسه ؛ ازاحوه عن مكان حُجز لوزير فجلس في آخر للدوق الكبير ؛ انه هناك على التحقيق الرجل الذي يضحك منه الجمع والذي يحافظ وحـــده على وقاره فلا يبتسم . اطرد كلباً من عرش الملك يتسلق منبر الواعظ ؛ ينظر الى الناس من غير مبالاة ولا حيرة ولا حياء : ليس عنده ولا عند الابله ما يُستحى منه .

• • •

العظمة الزائفة حقود وعرة الجانب : انهـا تشعر بضعفها ، فهي تتوارى او على الاقل لا تظهر وجهاً لوجه ، ولا تبدو إلا بالقدر اللازم لتغر ولئلا تظهر على حقيقتها ، اعني على صغارتها . العظمة الحق حرة وديعة ألوف شعبية لينة العريكة والجانب ، لا تفقد شيئاً بقربها من الانظار ؛ كلما زدت بها معرفة زدت بها اعجابا . يعطفها الرفق على من دونها ، ثم تعود من غير جهد الى طبيعتها ؛ تستسلم احيانا وتتراخى وتتهاون بميزاتها وهي قادرة دائماً على استعادتها واظهار قيمتها ؛ تضحك ، تلعب ، تمزح ، ولكن في وقار ؛ نقترب منها بحرية واحتشام معاً ؛ ذات طبـــع نبيل حبيب ، يوحي بالاحترام والثقة ، ويُظهر لنا الامراء حق عظماء من دون ان يشعرنا باننا صغار .

• • •

اذا بنينا حكمنا على هذه المرأة بما لها من جمال وشباب وزهـــو واحتقار ، فما من

(١) من أزاره : جعله يزور

احد منا يساوره الشك في ان الذي سيحظى باعجابها هو بطل مغوار . لقد فرغت من اختيارها : فكان مسخاً عديم الذكاء .

• • •

انا يا « هيرماس » إن اتزوج بخيلة فلن افتقر ، او مقامرة فقد اغتني ، او عالمة فربما تثقفني ، او عاقلة فلن تغضب ، او غضوباً فسأمرن على الحلم ، او متظرفة فربما أعجبتني او مجاملة فربما احبتني ؛ اما المنافقة ، فأجبني يا هيرماس : ماعسى ان انتظر من التي تخادع ربها وتخادع نفسها ؟

• • •

المرأة البليدة الشعور هي التي لم تر بعد الرجل الذي يجب ان تحبه :

كان في ازمير فتاة بارعة الجمال تدعى « اميرة » ، وكانت أقل شهرة بجمالها منها بجفاء عاداتها ، ولا سيما بفتور موقفها من الرجال ، الذين كانت تراهم ، على حد قولها ، بشعور الاخت والصديقة . هي لا تؤمن بجزء يسير من كل تلك الحماقات التي يقولون ان الحب دفع اليها على مر العصور ؛ اما تلك التي رأتها بنفسها فانها تعجز عن فهمها : لم تكن تعرف غير الصداقة . انها مدينة بهذا الشعور لفتاة صبية كعاب ، زينته لها وحببته الى قلبها ، حتى اصبحت لا تفكر الا بالعمل على استبقائه ، ولا تتصور شعوراً غيره يستطيع ان يثنيها عما اكتفت به من شعور الثقة والاحترام . لم تكن تلهج الا بذكر « اوفروسين » : ذلك هو اسم هذه الصديقة الوفية ؛ ولم تكن ازمير لتتحدث إلا عنها وعن اوفروسين ، فقد اصبحت صداقتها مضرب الامثال . كان لاميرة اخوان شابان في منتهى الوسامة (١) حتى هامت حباً بهما نساء المدينة جميعاً . ومن الحق انها احبتهما دائماً حب الاخت لاخوتها . هناك قس كان له في بيت ابيها حظوة ، فأعجبته وباح لها بذلك ، فلم يجر على نفسه غير الاحتقار . وهناك عجوز يعتز بحسبه ونسبه ، كانت له الجرأة نفسها ، فجرى له الحادث نفسه . على انها اذا انتصرت ، اذا كانت حتى آنئذ تقول انها عديمة الاحساس فلأنها كانت بين اخويها وقس وشيخ فان . وقد كان يخيل ان السماء ارادت ان تعرضها لتجارب اشد ؛ بيد أن هذه التجارب لم تنفع غير ان زادتها غطرسة وثبتتها على ما اشتهرت به من امتناع على سلطان الحب . من العشاق الثلاثة الذين اكتسبتهم على التوالي بفتنتها ، والذين لم تكن تخشى ان ترى هواهم كله ، طعن الاول

(١) الجمال

صدره على قدميها ، في احدى فورات الحب ؛ والثاني رآهـــا في صمم عنه ، فاستبدّ به اليأس وانطلق ينشد الموت في حرب « كريت » ؛ والثالث قضى نحبه ذاوياً مسهّداً . ان الذي يجب ان ينتقم لهم لم يكن بعد قد ظهر . غير أن ذلك العجوز الذي كان جدّ تاعس في هواه شفي منه حين اخذ يفكر في عمره وفي خلق المرأة التي اراد ان يفوز باعجابها ؛ وقد ابدى رغبته في مداومة رؤيتها فسمحت بذلك . صحب اليها ذات يوم ابنه، وكان شاباً حسن الطلعة نبيل القامة . نظرت اليه باهتمام ؛ وبما انه لازم السكوت في حضور ابيه ، فقد وجدت انه لم يكن على ماتروم من الذكاء وتمنت له منه المزيد . ثم رآها وحده ، وتكلم بما فيه الغناء والذكاء ؛ على انه أقلّ النظر اليها ، وأوجز الحديث عنها وعن جمالها ، فدهشت لذلك وكأنها غضبت من ان رجلا مهذباً ذكياً لم يلاطفها . لقد تحدّثت عنه الى صديقتها فرغبت في ان تراه. انه لم يصوب نظره إلاّ شطر اوفروسين وقال لها انها حسناء ؛ اما اميرة التي كانت خالية الفؤاد ثم اصبحت غيوراً ، فقد فهمت ان «استيزيفون» مقتنع فيما يقول، وانه لم يكن مجاملاً فحسب، بل انه كان عطوفاً كذلك. منذ ذلك الحين جعلت تضيق بعشرة صديقتها . كانت ترغب ان تراهما معـــاً مرة اخرى لتكون على بيّنة أكبر من امرها ؛ وقد أرتها المقابلة الثانية فوق ما خشيت ان تراه ، وبدّلتها من شكها يقيناً . ابتعدت عن اوفروسين ، ولم تعترف لهـــا بعد ذلك بالفضل الذي كان يسحرها ، وفقدت الميل الى عشرتها ؛ انها لاتحبها ؛ وقد اشعرها هـــذا التحوّل بان الحب في قلبها اخذ مكان الصداقة . ان « استيزيفون » و « اوفروسين » ليتقابلان على الدوام ، ويتحابان ، ويفكران في الزواج ، ثم يتزوّجان . انتشر الخبر في المدينة ؛ وذاع بين الناس ان اثنين حظيا اخيراً بتلك السعادة النادرة فتزوجا من احبّا . وعلمت « اميرة » بذلك فاستولى عليها اليأس . انها لتشعر بحبها حقّ الشعور . ثم هاهي ذي تسعى الى اوفروسين لمجرّد المتعة برؤية استيزيفون ؛ بيد ان هـــذا الزوج الشاب لا يزال يهيم بامرأته ، فيرى الحبيبة العزيزة في الزوج الجديدة ؛ انه لا يرى في اميرة الا صديقة لشخص اثير عنده . هذه الفتاة التاعسة فقدت النوم وزهدت في الطعام؛ انحطت قواها وضاع لبها ؛ فهي تحسب اخاها استيزيفون ، وتخاطبه كحبيب ؛ ثم تصحو لأمرها وتحمرّ من شرودها ؛ ثم جعلت تزلّ في ذهول أكبر ولا تستحي منه ؛ انها لا تعي من ذلك شيئاً . عندئذ اصبحت تخاف الرجال ، ولكن بعد فوات الاوان : لقد جنّت . بين فترة واخرى كان يعود اليها صوابها ، وكانت تنتحب لعودته . ان شبيبة ازمير

الذين رأوها ذات يوم فخوراً جافية يجدون ان الآلهة افرطوا في عقابها .

• • •

للصداقة الخالصة لذة لا يدركها اولئك الذين ولدوا صغار النفوس .

• • •

يلد الحب بغتة ، من غير تفكير ، لضعف او لاستعداد طبيعي . والصداقة ، على النقيض من ذلك ، تتكون شيئاً فشيئاً ، مع الوقت ، بالمراس وطول العشرة . كم من الذكاء ، من طيب القلب ، من المثابرة ، من الخدمات ، ومن المراعاة في الاصدقاء ، لتنشيء في عدة اعوام اقلّ مما يصنع احياناً في لحظة واحدة وجه جميل أو يد بضّة !

• • •

الزمن الذي يقوّي الصداقة يضعف الحب .

• • •

الحب البالغ اكثر شيوعاً من الصداقة الكاملة .

• • •

مخالطة الذين نحبهم تكفينا ؛ وسواء علينا بعدئذ ان نحلم ، او نتحدّث اليهم ، او لا نتحدّث ، او نفكّر فيهم ، او نفكر في اشياء لا اهمية لها ، على ان نكون بقربهم.

• • •

من اللذة ان نلتقي عيني من احسنّا اليه .

• • •

اذا صحّ ان الرحمة هي رجعة الى انفسنا تضعنا موضع التعساء ، فلماذا لا يحظون منا الا باقلّ من القليل في آلامهم (١) ؟

• • •

الاشياء المتمناة كثيراً لا تأتي ، واذا اتت ، فلا يكون ذلك في الاوقات والظروف التي تُحدث لنا فيها اقصى السرور .

• • •

الحياة قصيرة ، إن هي لم تستحق هذا الاسم الا عندما تلطف وتصفو ؛ وذلك

---

(١) كأنه يردّ على لاروشفوكو ، راجع حكمه .

لاننا اذا خططّنا (١) معاً كل الساعات التي نمضيها على ما نشتهي ، فما نكاد نصنع من عدد السنين الضخم حياةً من بضعة اشهر .

• • •

يبدأ الناس بالحب ، وينتهون بالطمع ، ولا يجدون انفسهم في الغالب قد استقرّوا على حال الا عندما يموتون .

• • •

ذكاء الحديث يقوم على الاخذ بيد الآخرين لاظهاره عندهم اكثر ممـــا يقوم على عرض ما عندك منه : ان الذي يخرج من تحدّثه اليك راضياً عن نفسه وعن عقله ، فهو لابدّ كامل الرضا عنك . الناس لا يحبون ان يَعجبوا بك ، بل يريدون ان يُعجبوك ؛ وحرصهم على ان يتعلموا ، بل على ان يغتبطوا اقلّ من حرصهم على ان ينالوا الاستحسان والهتاف ؛ وان من الطف المسرّات ان تبعث المسرة في قلب غيرك .

• • •

داخل الاسَر في الغالب مضطرب بما فيه من ضعف الثقـة والغيرة والكراهية ؛ على حين ان مظاهر راضية هادئة باشة تخدعنا وتجعلنا نتوهم الطمأنينة التي لا وجود لها : قليلون هم الذين يربحون اذا تعمقت في حياتهم . هذه الزيارة التي قمتَ بها منعتْ خصومة بيتية لا تنتظر غير ذهابك لتعود .

• • •

لقد شختَ يا « تيوبالد » ، أعرف ذلك ؛ ولكن أتأذن لي ان اعتقد انك قـــد هبطت ، وانك لم تبق شاعراً ولا رجلاً لامعاً ، وانك في الحاضر حكَم سيىء على انواع الكتب بقدر ما انت مؤلف غثّ ، وانه ليس في حديثك شيء على طبيعته وعذوبته ؟ مظهرك الطلق المختال يطمئنني ويوحي الي بخلاف ذلك . فانت اليوم اذن كما كنت او اكثر من ذلك : لانه اذا كنت في هذه السن عنيفاً متجبراً ، فأي اسم يا تيوبالد يجب ان نعطيك في شبابك ، عندما كنت ظل بعض النساء ومثار أهوائهن ، وعندما كنّ لا يحلفن إلا بك وعلى قولك ، وكنّ يقلن : « هذا ممتع ؛ ماذا قال ؟ (٢) »

• • •

على الارض بؤس تنقبض له القلوب؛ فثمة من يفتقرون حتى الى القوت، ويرهبون

(١) من خاط يخيط (٢) اي انهن يستحسن اقواله قبل ان يسمعنها او يفهمنها .

الشتاء ، ويخافون الحياة . وفي اماكن اخرى يأكلون الفواكه قبل أوانها ، يقسرون الارض والفصول ان تؤمّن لهم رغد العيش ؛ بعض المواطنين العاديين تجرّوا ، لمجرّد غنائم ، على ان يبتلعوا في لقمة واحدة غذاء مئة أسرة . من يستطع فليتحمل هذه الحالات المتطرفة ؛ لا اريد ان اكون ، لو قدرت ، شقياً ولا سعيداً : انا القي بنفسي والتجيء الى الحالة الوسطى .

• • •

يدّخر المرء من شبابه لهرمه ، ومن هرمــــه لموته . فالوارث المتلاف ينفق على جنازة حافلة ويفترس الباقي .

• • •

لا القلاقل التي تزعزع امبراطوريتك ، يازنوبيا ، ولا الحرب التي نهضت بها في شجاعة ضدّ امّة ذات بأس شديد ، منذ وفاة زوجك الملك ، بقادرة على ان تنتقص شيئاً من ابهتك وجلالك . فضّلت شواطىء الفرات على كل بقعة لتشيّدي فيها قصرك المنيف ؛ الهواء صاف عليل والمكان باسم بهيج ، تظلله غابة مقدّسة من جهة الغرب . آلهة سوريا الذين يسكنون الارض احياناً ما كانوا ليختاروا سكناً اجمل ؛ البرية حوله مسجّاة برجال يفصّلون ويقطعون ، يذهبون ويجيئون ، يدحرجون خشب لبنان او ينقلونه على عربات ، مع القلز والرّخام الاحمر ؛ رافعات الاثقال والآلات تئنّ في الهواء وتحمل الذين يسافرون الى الجزيرة العربية على الامل في ان يروا عند اوبتهم الى مساكنهم هذا القصر قد أشرف على التمام وهو في تلك الروعة التي تريدين ان تحمليها اليـه قبل ان تسكنيه انت وابناؤك الأمراء . لا تدّخري عنه شيئاً ، ايتها الملكة العظيمة ؛ استعملي فيه الذهب وكل ماعند جهابذة الفن من ابداع ؛ ليُظهرْ اساطين النحت والتصوير في عصرك كل علمهم على سقوفك وجدرانك المصفحة بالخشب ؛ خطّي فيه حدائق رحيبة غنّاء ، تخيّل الى الملأ بسحرهـــا انها ليست من صنع البشر ؛ استنفدي كنوزك واستفرغي مجهودك على هذا العمل المنقطع النظير ؛ وبعد ان تضعي فيه يا زنوبيا آخر يدء سيتقدّم احد هؤلاء الرعاة من سكان الرمال في جوار تدمر ، وقد اغتنى بجباية الضرائب على حفاف انهارك ، ليشتري ذات يوم بدنانيره هذه الدار الملكية ، وليجمّلها ويجعلها أجدر به وبثروته (١) .

• • •

(١) يشير الكاتب بهذه القطعة الى تبذير الملك والامراء في عصره ، والى استغلال الجباة وموظفي المال وظائفهم لجمع المال ثم لمساومة الكبراء المبذرين على املاكهم .

هذا القصر ، هذا الاثاث ، اولئك الحدائـــق والامواه ، تسحركَ ، وتملي صوتك لاول نظرة اعجاباً بدار جدّ ظريفة وبسعادة مالكها القصوى . لقد فارق الحياة، من غير ان يستمتع بها مثلك في صفاء وهدوء ؛ لم يمرّ بها نهار رائق ولا ليل مطمئنّ ؛ غرقَ في الديون ليصل بها الى هذه الدرجة من الجمال الذي يملك لبّك . ان دائنيه ليطردونه منها ، وانه ليلتفت ليلقي عليهـــا من بعيد نظرة أخيرة ؛ ثم يلفظ انفاسه همّاً وكمَداً .

• • •

الكبراء يُعنون بشق طريق في غابة ، بحماية ارض باسوار طويـــلة ، بتذهيب السقوف ، باجراء المياه ، بانشاء الحدائق ؛ أما إفراح قلب ، وإفاضة السرور على نفس ، واستدراك حاجات بالغة ومعالجتها ، فان عنايتهم لا تمتدّ الى هذا .

• • •

يعتقد الكبراء انهم وحدهم كاملون ، ولا يكادون يعترفون للاخرين باستقامـــة التفكير وبالمهارة والرّهافة ؛ بل يستولون على هذه المناقب الخصيبة على انها اشياء تابعة لكرم منبتهم . انه لضلال مبين مع ذلك ان يغذو المرء في نفسه مزاعم خطأ كهذه ؛ ان روائع الفِكَر ، وشوارد الكلم ، ونفائس المكتوب ، بل لعلّ اجمل ما في حسن التصرّف من فطنة ودقة ، لم تأتنا دائماً من قبلهم : ان لهم لأملاكا عريضة وسلاسل نسب رفيعة هذا ما لا يُنازَعون فيه .

• • •

اذا كان عدد الخطباء البارعين قليلاً ، فهل هناك عدد كبير من الناس يستطيعون ان يفهموهم ؟ اذا لم يكن عدد الكتاب الفحول كافياً ، فأين هم اولئك الذين يعرفون ان يقرءوهم ؟ الناس يشتكون كذلك من ضآلة عدد الذين هم اهل لنصح الملوك ومدّ يد المعونة اليهم في ادارة الاعمال ؛ ولكن اذا ولد اخيراً هؤلاء الرجال المهرَة الاذكياء ، ادا تصرفوا وفق نظراتهم ومعارفهم ، أيحظون بالمحبـــة والاحترام بقدر ما يستحقّون ؟ أيُحمدون على تفكيرهم بالوطن وعملهم لاجله ؟

• • •

اذا وازنت بين صنفين من الناس مختلفين ، اريد ان اقول : بين الكبراء والشعب، فان هذا الاخير يبدو لي مكتفياً بالضروري ، والآخرون مضطربون فقراء على ما في

ايديهم من وفر . رجل الشعب قد لا يستطيع ان يقارب اية اذية ، والكبير يأبى ان يفعل اي جميل ، وهو قادر على ان يمعن في الادى : الواحد لا يتخرج الا بين الاشياء النافعة ولا يمارس غيرها ، والآخر يضيف اليها المضرات ؛ هناك تبدو الغلظة والصراحة واضحتين ، وهنا تتوارى فعالية خبيثة فاسدة تحت قشرة من آداب المجتمع ؛ الشعب لا عقل له ، والكبراء لا روح لهم ، لذلك الخبز الطيب من غير مظهر ، وليس لهؤلاء الا المظهر . افيجب ان اختار ؟ لن اتردد : اريد ان اكون من الشعب .

• • •

ينبغي لنا ألا نخوض في حديث ذوي السلطان : فغالباً ما يكون الملق في الكلام عنهم بالخير ، ومن الخطر ان نتكلم عنهم بالسوء ما داموا احياء ، ومن اللؤم ان نغتابهم امواتاً .

• • •

عندما ترى احياناً قطيعاً ضخماً قد انتثر على هضبة في اصيل يوم جميل واخذ يرتعي في هدوء السعتر والنمام ، او يقطم في احد المروج حشيشاً ناعماً غضاً قد أفلت من منجل الحاصد ، فانك ترى الراعي واقفاً قرب هذه النعاج في عناية وانتباه ، لا تفارق عينه ، بل يتبعها حيناً ويقودها حينا ، ويغيّر لها المرعى ؛ ان تفرقت جمعها ، وان عرض لها ذئب شره أفلت كلبه فطرده ؛ يطعمها ويدفع الادى عنها ؛ يدركه الفجر وسط البراري ولا يعود الا مع الشمس الغاربة . ياللعناية ! ياليقظة ! يا للتفاني ! أي الطرفين احب واكثر انطلاقا ، آلراعي ام الغنم ؟ ترى أخلق القطيع للراعي ام الراعي للقطيع ؟ صورة صادقة للشعوب والامير الحاكم عليها ، اذا كان اميراً صالحاً .

البهرج والبذخ في المليك اشبه بالراعي يرتدي الذهب والجواهر ، ويمسك بيده عصا ذهبية ، لكلبه طوق من ذهب ، مربوط برسن من ذهب وحرير : ماذا يجدي كل هذا الذهب على القطيع او امام الذئاب .

• • •

اكرم بمنزلة تتيح للرجل في كل اللحظات ان يفعل الخير لآلاف من الناس ! ويا له من مقام خطير ذلك الذي يعرض صاحبه في كل آن لأذى مليون من الرجال !

• • •

لا ينبغي لنا ان ننقم على الناس قساوتهم ونكرانهم وظلمهم وكبرياءهم وحبهم

لا نفسهم ونسيانهم للاخرين: كذلك خلقوا، تلك هي طبيعتهم، وإلا، فكأننا لا نطيق ان يقع الحجر او ان ترتفع النار.

• • •

يتساءلون لماذا لا يؤلف الناس كلهم امة واحدة، ولا يريدون ان يتكلموا لغة واحدة، وان تظلّهم نفس القوانين، ولماذا لا يتفقون فيما بينهم على عادات مشتركة وعبادة واحدة. وانا افكرّ في اختلاف العقول والاذواق والمشاعر، فاعجب لرؤية سبعة اشخاص او ثمانية يجتمعون تحت سقف واحد، في بيت واحد، ويؤلفون أسرة واحدة.

• • •

« إرين » تنفق في رحلتها الى « ابيدور [1] » مالاً كثيراً، فترى « اسكيلاب [2] » في معبده، وتستشيره في اوجاعها. تشكو اليه اولاً ما يعتريها من ضعف وملال، فيعلن الآله ان ذلك يحدث لها بما قطعت من طريق طويل؛ تقول انها تفقد شهوة الطعام عند المساء، فيأمرها الهاتف ان تقلل وجبة الغداء؛ تضيف انها عرضة للقلق، فيصف لها الا تدخل سريرها الا ليلا؛ تسأله: لماذا يزداد وزنها، وما الدواء؟ فيجيب الهاتف بان عليها ان تستيقظ قبل الظهيرة، وان تستخدم بالمشي احياناً ساقيها؛ تصرح له بان الخمر تؤذيها، فيقول لها الهاتف: اشربي الماء؛ وتقول انها مصابة بسوء الهضم، فيضيف ان عليها ان تلازم الحمية. — بصري يضعف. — اتخذي نظارتين. — قواي تخور، ولست اليوم على ما كنت عليه من قوة وصحة. — ذلك بانك تشيخين. — ولكن ما السبيل الى الشفاء من هذا الخمول؟ — أقصر السبل، يا إرين، ان تموتي، كما فعلت امك وجدّتك. فصاحت إرين: يا ابن أبولون، اي نصيحة تعطيني؟ أفهذا هو كل العلم الذي يذيع به الناس والذي يُعلي قدرك على الثرى؟ ماذا لقّنتني من نادر او غامض؟ أفتراني لا اعلم كل هذه الادوية التي تعلمني اياها؟ — فلماذا لا تستعمليها اذن، من دون ان تسعي اليّ من مكان بعيد ومن دون ان تقصّري ايامك برحلة طويلة كهذه؟

• • •

(١) مدينة يونانية قديمة، اسمها اليوم: آغوليد (٢) الاله الشافي، ابن ابولون

ليس للاطفال ماضٍ ولا مستقبل ، ثم انهم يستمتعون بالحاضر ، الامر الذي لا يحدث لنا ابداً .

. . .

الرجل التافه يبتغي النفع في التحدث عن نفسه بالخير والشرّ ، والرجل الرزين لا يتحدث عن نفسه أبداً .

. . .

ما الدافع لِ « ألسيب » الى ان يبعث اليّ هذا اليوم بالتحية ، ويبتسم لي ، ويطلّ عليّ من نافذة عربته خشاة ان أفوته ؟ لست بغني ، وانا راجل : كان العرف والعادة يقضيان الا يراني ؛ اليس ذلك ليُرى هو نفسه في ركن عربة واحدة الى جانب رجل عظيم ؟

. . .

اننا نشعر بنوع من الخزي حينما نرفل في السعادة الى جانب بعض مشاهد البؤس .

. . .

ما اسرع ما نعرف أصغر محاسننا ، وما أبطأ ماتتبين نقائصنا : ما كان لانسان ان يجهل ان له حاجبين جميلين واظافر جيدة ، ولكنه لا يكاد يعرف انه اعور ، وهو حقّ جاهلٍ أنه غبي .

. . .

تنزع « آرجير » كفتها لتكشف عن يد جميلة ، ولا تسهو ان تبدي حذاءهـــا الصغير الذي يقضي ان يكون لها قدم صغير ؛ تضحك لهزل القول وجدّه لترينا اسنانها الجميلة ؛ إن تُبدِ أذنها فلأنها احسنت تجميلها ، وان احجمت عن الرقص فلأنها غير راضية عن قامتها الغليظة ؛ انها تفهم وجوه منافعها جميعاً ، ما خلا واحداً : انها تتكلم دائماً وليست على شيء من الذكاء

. . .

ليس لِ « كليتون » في حياته غير شاغلين : أن يفطر صباحـــاً وان يتعشى عند المساء . يخيّل انه لم يولد الا للهضم . وليس له كذلك غير حديث واحد : ان يذكر المأكولات التي قدمت في آخر مأدبة وُجد فيها ، وكمية الحساء ، وكم نوعاً منه ، ثم يضع الشواء والتوابل ، ويتذكر على الدقة كم طبقاً قـــدم في اول وجبة ، ولا ينسى المقبّلات والفاكهة والصحاف ، يسمي كل ما شرب من خمور وسوائل ، يملك لغة المطبخ على اتساعها ، ويغريني بالأكل من مائدة شهيّة لا يكون فيها ؛ ان له لذوقاً حسناً لا يُخدع ،

فلم يُرَ قط عرضة لحادث سوء فظيع كان يأكل مُقبلاً غثّاً او ان يشرب خمراً عادية . انه رجل نسيج وحده في هذا الباب ، اذ وصلت موهبة التغذية الحسنة عنده الى آخر ما يمكن ان تصل اليه ؛ لن يرى الناس رجلاً يبذّه في كثرة الاكل وجودته : من اجل ذلك كان الحكَم على القطع الطيبة ، ولم يُسمح لامرئٍ ان يسيغ ما لم يسغ . قضى نحبه ، بيد أنه أمر ان تُحمل الى المائدة حتى آخر رمق : فأولم حتى في يوم وفاته . كان يأكل حيثما كان ؛ وان قدّر له ان يعود الى الحياة فلاجل ان يأكل .

* * *

وَخطَ الشيبُ رأس « روفان » ، لكنه صحيح الجسم ، زاهي الوجه ، حديد البصر ، تبشر صحته بعشرين عاماً آخر من الحيــــاة . فرِحٌ ، مَرِح ، أليف ، بارد العاطفة ؛ يضحك ملء جوانحه ، ويضحك وحده ومن غير سبب ؛ راضٍ عن نفسه ، عن اصحابه ، عن ثروته الصغيرة ، وهو يقول انه سعيد . فَقد وحيده ، وهو شاب مفتّح الامل ، لوعاش لكان ذات يوم فخار اسرته ؛ ترك للاخرين أمر البكاء عليه وقال: « مات ابني ، هذا ما سيقضي على امه » ، ثم سلا . أغلف القلب ؛ لا صديق له ولا عدوٌ ؛ لا يَربكه أحد ، كل الناس يلائمونه ، كل شيء يرضيه : يتحدث الى ذلك الذي يراه لاول مرة بما يتحدّث فيه من حرية وثقة الى اولئك الذين يدعوهم اصدقاءه القدماء ويشركه بمد هنيهة بسخافاته وحكاياته ؛ لا يلقي بالاً الى من يدنو منه ولا الى من يبتعد عنه ؛ فالقصة التي بدأ يقصّها على رجل ما يكملها هي نفسها لمن يأخذ مكانه .

* * *

نرى بعض الحيوانات المتوحشة ، بين ذكور واناث ، منتشرة في البرية ، سوداء غبراء قد لفحتها الشمس ، وهي وثيقة الصلة بالارض تنبشها وتحركها في عناء ودءوب ؛ ينبعث منها ما يشبه ان يكون صوتاً ملفوظاً ، فاذا انتصبت على اقدامها أبدت وجوهـــاً بشرية ، والحقيقة انهم بشر ؛ ينسحبون الليل الى اجحار يعيشون فيها على الخبز الاسود القَفار والمـــاء والجذور ؛ انهم لَيُعفون الرجال الآخرين من مئونة الحرث والبذر والحصاد لتأمين الحياة ؛ وعلى هذا فهم يستحقون ألاّ تصفر أيديهم من هـــذا الخبز الذي زرعوه .

* * *

من العجيب اننا على ما ينفخنا من كبرياء واعتداد بحسن حكمنا على الاشياء ، فاننا نتهاون في استخدام هذه الموهبة حين نكشف عن رأينا في ما للاخرين من فضل . الشهرة ،

عطف الجماهير ، رعاية الامير ، كل اولئك يجرفنا امامه كالسيل : فنحن امدح للمدوح منا لمن يستحق المدح .

• • •

الناس قلما رضي بعضهم عن بعض ومالوا الى تقارض الاستحسان : فلا العمل ولا السلوك ولا الفكر ولا التعبير ولا غيره بدافع لهم الى الرضا وحسن القبول ؛ انهم يضعون مكان ما يحكى لهم وما يقال وما يتلى عليهم ما كان في ميسورهم ان يفعلوه هم في موقف مماثل ، او ما كانوا أحرياء ان يفكروا فيه او يكتبوه في موضوع مشابه ؛ وهم بعد مملوءون بأفكارهم بحيث لم يبق لافكار الآخرين مكان عندهم .

• • •

« إيفيز » يرى في الكنيسة حذاء جديد الزيّ ، فينظر الى حذائه ويحمرّ كما لو كان عاريا ؛ جاء الى الصلاة ليظهر ، وانه ليتوارى ؛ هاهوذا قد احتجزته قدمه في غرفته طول النهار . له يدٌ رخصة ، وهو يعالجها بمعجون معطّر ؛ يحرص على ان يضحك ليكشف عن اسنانه ؛ يقلّص فاه ، ومامن مرة ابي ان يبتسم ؛ ينظر الى ساقيه ، يرى نفسه في المرآة ، فما احدٌ أرضى عن احد منه عن نفسه ؛ لقد اكتسب صوتاً رخيما رقيقاً ، ومن حسن الحظ انه الثغ ؛ ان له حركة رأس ولا أعرف اية عذوبة في العينين لا يفوته ان يتجمل بها ؛ يسير في استرخاء بأجمل هيئة يستطيعها ، يضع الاحمر ، ولكن على قلة ، فلم يتخذ من ذلك عادة . الحق انه كذلك يرتدي ثياب الرجال ، وانه لا قرط له ولا عقد جمان : من اجل ذلك لم أنظمه في فصل النساء .

• • •

لم نر قط من ينذر لوليّ شيئاً ولا من يحجّ اليه ليحظى بذهن هادئ ، او نفس يزكو عندها الجميل ، ليكون اكثر انصافاً واقل ميلاً الى الاذى ، ليشفى من انانيته وضلاله ومجونه .

• • •

« شمبين » لدى خروجه من غداء تناول فيه الطعام على هيئته ونفخ به معدته ، وحينما انتشى ببخار الخمرة اللذة ، وقّع أمراً قدّم اليه ، يقضي بحرمان مقاطعة كاملة من الخبز ، اذا لم ينتدب احدٌ لتدارك الحال . اما انه لمعذور : أنّى له ان يفهم في ساعة الهضم الاولى ان في بعض النواحي من قد يقضي عليهم الجوع .

• • •

لقد حملوا « كريزوس » الى المقبرة : من كل امواله العريضة التي اقتناها بالسرقة والاختلاس ثم انفقها بالبذخ والاطعمة الشهية ، لم يبق معه ما يفي بدفنه . مات عاجزاً عن وفاء ديونه ، صفراً من جميع امواله ، محروماً لذلك من كل عون : لما أُرثي عنده شراب مسكّن او دواء مقوٍّ ؛ لا اطباء ولا كاهن يؤكد له خلاصه.

• • •

واجب القضاة ان يحققوا الحق ؛ ومهنتهم ان يؤخّروه : فبعضهم يعرف واجبه ويعمل وفق مهنته .

• • •

« هيريل » يعمد الى الرواية ، سواء أتكلم ام وعظ ام كتب : يقول على لسان امير الفلاسفة (١) : إن الخمر لسكر ، وعلى لسان الخطيب الروماني (٢) : ان الماء تعدلها: فان تكلم في الاخلاق فانما يتكلم افلاطون المقدس الذي يؤكد ان الفضيلة محبوبة والرذيلة كريهة ، او ان كليهما يتحولان الى عادة . مالوف الاشياء ، اتفهها ، تلك التي يمكنه هو نفسه ان يفكر فيها : يريد ان يرفعها للقدماء ، للاتين ، لليونان . وماذاك ليزيد في خطر اقواله ، وربما لم يكن كذلك ليزهو بمعرفته ، وانما هو حبّ الرواية .

• • •

ليس حب الاستطلاع ميلا الى النافع او الجميل ، ولكن الى النادر الفريد الذي يكون عند فريق ولا يكون عند غيرهم .

• • •

فلان (٣) ، فجأة ، ومن غير سابق تفكير ، يتناول ورقاً وريشة ، ويقول في نفسه : « سأؤلف كتابا » ، غيرَ معتمد على موهبة ، سوى انه في حاجـــة الى خمسين دينارا . عبثاً أصيح به : « خذ منشاراً ، يا ديوكور ، وانشر أو اخرط او اصنـــع جزءاً من دولاب ، فستنال اجرك . » انه لم يتقن كل هذه الحرف(٤) . « اذن فانسخ، انقل ، كن مصححاً في مطبعة ، ولكن لا تكتب . » بل يريد ان يكتب وان يطبع ؛ واذ كانوا لا يرسلون الى المطابع دفتراً ابيض ، فانه يسوّده كما يحـــلو له . سيكتب

---

(١) ارسطو . لاحظ ان من عادة الراوية ان يطنب في مدح المروي عنه « المعرب » .

(٢) سيشرون (٣) لم يذكر المؤلف لهذه الصورة اسماً اول الامر ، كعادته ، امعاناً في تنكير صاحبها « المعرب » (٤) هذا ما قد يجيب به « ديوكور » .

طوع خاطره ان « السَّين » يجري في باريس، وان في الاسبوع سبعة ايام ، وان الجو ممطر ؛ وبما ان هذا الكلام لا يتعرض بسوء للدين او الدولة ، وانه لا يزيد في الاذى على ان يفسد ذوق الجمهور وعلى ان يعوّدهم التفاهة والبلاهة ، فسيؤذن بطبعه ، وسيعاد طبعه ليكون خزياً للعصر ومهانة للنابهين من رجال التأليف .

• • •

اشعر بوجود الله ولا اشعر بعدم وجوده : بحسبي هذا ، ولا فائدة لي من كل ما عند الناس من حجج واقية ؛ اني لاختم بوجوده تعالى . هذه النتيجة هي في طبيعتي ، تلقيت مبادئها في منتهى اليسر في طفولتي ، واحتفظت بها مذ ذاك بصورة جدّ طبيعية في عمر جدّ متقدم فما ان يخالجني في صحتها شك .

— لكن هنالك عقولاً تتخلى عن هذه المبادئ .

— ان وجد امثال هؤلاء فانها لمشكلة كبرى ؛ واذا كان ذلك كذلك ، فان هذا لا يعدو ان يقيم الدليل على ان في هذه الدنيا من شاهت عقولهم (١) .

• • •

ليس الجحود بشيء . إن اكابر من اتهموا به لأكسل من ان يبتّوا في اذهانهم بان الله غير موجود ؛ وكسلهم يبلغ ان يبلّد شعورهم نحو هذه الاشياء ولا يقرّونها ، انهم لا يفكرون فيها البتة .

• • •

هل الناس من الطيب والامانة والعدالة بحيث يكونون اهلاً لكامل ثقتنا ولا يحيجوننا في الاقل الى تمني وجود آله نلتمس قضاءه فيهم ونفزع اليه من ظلمهم وغدرهم ؟

• • •

« أرياس » قرأ كل شيء ، رأى كل شيء : هكذا يريد ان يوحي الى الناس . انه رجل عالمي ، كذلك يعتبر نفسه . يفضّل ان يكذب على ان يسكت او ان يبدو جاهلاً لأمر ما .

يتحدّثون على مائدة عظيم عن بلاط ملك من ملوك الشمال ، فيتناول الحديث ،

---

(١) اعتمد المؤلف على الشعور في البرهنة على وجوده تعالى . وقريب منه قول باسكال : « القلب هو الذي يشعر بوجود الله ، لا العقل » وقول ديكارت : « يجب ان استنتج بالضرورة وجود الله بوضوح من مجرد انني موجود وان في نفسي فكرة كائن لانهاية لكماله ، اعني الله .

بل ينتزعه انتزاعاً من اولئك الذين كانوا سيتحدثون فيه بما يعرفون : انه ليتوجه الى تلك البلاد النائية كما لو كان احد ابنائها ، فيحاضر عن عادات ذلك البلاط ، عن سيدات ذلك القطر ، عن شرائعه وتقاليده ، ويروي حكايات جرت هناك ، فيراها مضحكة ، ويكون منها اول الضاحكين . . اتفق ان احد جلسائه عارضه ، وبرهن له بجلاء على انه يقول اشياء غير صحيحة . بيد أن أرياس لا يضطرب لذلك ابداً ، ويزيد فتأخذه العزة امام مقاطعه ، ويقول : « اني لا اتقدم خطوة على غير ثقة ولا انبس بكلمة لم تتحدر الي من مصدرها الاصيل . لقد بلغني انباء ذلك من فلان ، سفير فرنسا في هذا البلاط ، وقد عاد الى باريس منذ بضعة ايام ، وبيني وبينه معرفة لا كلفة فيها ، وقد اكثرت سؤاله ولم يطو عني شيئاً . » ثم يعاود سلسلة حديثه بثقة اكبر مما بدأ ، واذا باحد صاغيته يقول له : انه السفير نفسه ذاك الذي تخاطبه ، وقد عاد من سفارته .

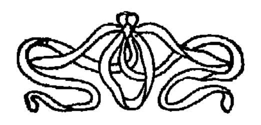
• • •

« لجيتون » لون نضير وخد لحيم ؛ وجنتاه متدليتان ، ونظرته ثابتة مطمئنة ؛ كتفاه عريضتان وصدره عال ومشيته رزينة جريئة . يتكلم في ثقة ، يستعيد الحديث من محدثه ، ولكنه لا يسيغ ما يقال له . يبسط منديلا واسعاً ، فيمخط بضجة كبيرة، يبصق الى بعيد ، ويعطس بصوت عال . ينام نهاره ، ينام ليله ، ينامها ملء عينيه . يشخر بين اصحابه ويتوسطهم . يشغل على المائدة وفي النزهة مكان اثنين . يقف فيقفون، يتابع سيره فيتابعون . الكل يعمل وفق هواه . يقاطع محدثه ثم يعود فيصل حديثه . ما من احد يقاطعه ، بل انهم يصغون اليه مهما اطال . الكل من رأيه ، الكل يصدقون ما يلفقه من اخبار . اذا جلس رأيته يغوص في اريكته ويضع احدى ساقيه على الاخرى ويقطب حاجبيه ، ثم يسدل قبعته على عينيه لئلا يرى احداً ، ثم يبدو له فيرفعها ليكشف عن جبين مزهو . فكه ، ساخر ، نزق ، مختال ، غضوب ، مفكر ، داهية ، كتوم ؛ يظن انه كتلة مواهب وشعلة ذكاء : انه غني .

• • •

ماذا تقول ؟ كيف ؟ لم افهم بعد . اتحب ان تعيد ؟ ما ازال غير فاهم ، حزرت أخيراً ! تريد يا « آسي » ان تقول لي ان الطقس بارد ، فلماذا لم تقل لي : الطقس بارد ؟ تريد ان تخبرني بان المطر ينهمر او بأن الثلج يتساقط ، قــل : المطر ينهمر او الثلج يتساقط ! تجد وجهي صافياً وتود ان تهنئني عليه ، قل : وجهك صاف ! غير انك قد

تجيبني بان هذا سهل وواضح وبان الناس جميعاً يستطيعون ان يقولوا مثله . ماذا يهمهم ياصديقي ؟ أهو مصاب عظيم ان يكون الانسان مفهوماً وان يتكلم مثل جميع الناس ؟ شيء واحد ينقصك يا آسي ، انت وامثــالك من المتكلفين ، لا لشك في ذلك ، واني لحاملك على الدهشة ، شيء واحد ينقصك هو : الذكاء ؛ وليس هــذا كل شيء : في رأسك رأي انت مغال به ، هو الاعتقاد بان حظك من الذكاء اوفر من حظ الآخرين . هذا هو مصدر تشدقك وتعيقدك وكلماتك الكبيرة التي لا تعني شيئاً . تقترب من هــذا الرجل ، او تدخل هذه الغرفة ، فانا أجرك من ثوبك وألقي في مسمعك : ألا تفكر أبداً بان تتظاهر بالذكاء ، هذا هو دورك الذي يجب ان تمثله . لتتخذ اذا استطعت لغة سهلة كتلك التي يتكلمها اولئك الذين لا تظــن فيهم أثارة من الذكاء : فلعلهم حينئذ يعتقدون فيك الذكاء (١) .



انتهى
بعون الله تعالى وفضله

(١) القطع السابقة عربناها عن بسحتي الاستاذ R. Radouant و René Ternois وعن Chevaillier 211

مصادر الكتاب

جمهورية افلاطون : نقلها الى العربية عن الترجمات الانكليزية : حنّا خباز ، هدية المقتطف السنوية ١٩٢٩ ، طبعت في مصر ١٩٢٩ م .

* * *

الادب المقارن : تأليف : فان تيجم ، استاذ الادب المقارن في السوربون ، نقلته عن الفرنسية : دائرة المعارف الادبية العالمية ، طبع في مصر .

* * *

قصه الأدب في العالم : الجزء الثاني ، القسم الاول ، تأليف : احمد أمين ، وزكي نجيب محمود . طبع في القاهرة ١٩٤٥ م .

* * *

في اصول الادب : لأحمد حسن الزيات ، طبع في مصر ١٩٣٥ م .

* * *

قصة الفلسفة الحديثة : الجزء الاول : تأليف احمد امين ، وزكي نجيب محمود — طبع في القاهرة ١٩٣٦ .

* * *

فنون الأدب : تأليف ه. ب. تشارلتن
تعريب زكي نجيب محمود
طبع في القاهرة ١٩٤٥

* * *

الياذة هوميروس : لسليمان البستاني ، طبعت في مصر ١٩٠٤

* * *

قواعد النقد الأدبي : تأليف : آسل آبر كرمبي :
Lascelles Abercrombie

نقله الى العربية الدكتور محمد عوض محمد
طبع في مصر

• • •

جان دارك : تأليف جورج برناردشو
نقله الى العربية مع مقدمته الهامة : الدكتور احمد زكي
طبع في مصر ١٩٣٨

• • •

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الاثير طبع في مصر ١٩٣٥

• • •

لويس الرابع عشر : الدكتور علي ابراهيم حسن وامين غالي
دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٤٧

• • •

هوراس ، فن الشعر : ترجمة لويس عوض مصر ١٩٤٧

• • •

XVII^e & XVIII^e siècles. Cours complet d'Histoire.

Par : A. Malet & J. ISAAC

Paris 1923

• • •

La littérature Expliquée.

Par : Ch. - M. Des Granges & Ch. - Charrier.

Quatorzième édition.

Paris 1933

اشرنا الى هذا الكتاب في الهوامش بكلمتي : Des Granges

• • •

Petite Histoire des grandes doctrines littéraires en France
De la Pléiade au Surréalisme.

Par : Philippe Van Tieghem.

Paris 1946

اشرنا اليه في الهوامش بكلمتي Van Tieghem

• • •

Histoire de la Littérature Française illustrée.
Publiée sous la direction de:
M, M. Joseph Bédier et Paul Hazard
Deux tomes
Paris 1923 - 1924
L. F. U. اشرنا اليه بـ

ملاحظة : كل صفحة تجاوزت الرقم ١٠٠ فهي من الجزء الاول
كل صفحة دون هذا الرقم فهي من الجزء الثاني .

• • •

Larousse Universel
L. U. اشرنا اليه بـ

• • •

Manuel Illustré d'Histoire de la littérature Française
Par : G. Lanson et P. Tuffrau
Paris 1936
L. T. اشرنا اليه بـ

• • •

Les nouveaux textes Français
Classe de cinquième
Par J-R. Chevaillier, P. Audiat, E. Aumeunier
Classiques Hachette 1941
Chevaillier : اشرنا اليه بـ

• • •

Pascal
Pensées et opuscules philosophiques
Extraits
Par : Fernand Flutre
Paris 1935
• • •

La Bruyère
Les Caractères, Deux volumes
Classiques Larousse
Paris 44e Edition

• • •

Idées et doctrines littéraires
Du XIXè siècle
Par Vial et Denise
Paris

• • •

Boileau
Le Lutrin et l'Art Paétique
Classique Larousse
Paris 19e Edition

• • •

Introduction à la lecture des poètes français
Par ; René - Albert Gutmann
Paris 1940
Gutmann : اشرنا اليه باسم
Introduction : او باسم

• • •

Aristote
Poétique
Texte Traduit
Par
J. Hardy
Paris 1932

• • •

Histoire de la littérature française
Par Gustave Lanson
Paris
Librairie Hachette
Lanson اشرنا اليه بـ

• • •

Dix-Septième siècle
Par :
Emile Faguet
Paris
Faguet اشرنا اليه بـ

• • •

Corneille : Le Cid
Classique Larousse 53e Édition
Paris

• • •

Literature and Life, Book four, By : **DUDLEY MILES, Robert C. Pooley and Edwin Greenlaw**
Printed in the United States of America

• • •

Corneille : un grand poète malheureux
Par F. Montagnon
Paris 1931

• • •

Explication de la littérature allemande
Par :
René Lote
Paris

• • •

Voltaire :
Le siècle de Louis XIV
Deux volumes
Les classiques pour tous.
Paris

• • •

Corneille
Horace
Classiques Larousse

• • •

Corneille
Horace
Les clssiques Français

• • •

La vie de Jean Racine
Par : François Mauriac
Paris : 1928

• • •

Racine
Andromaque
Classiques Larousse

• • •

Portraits littéraires
Par : Sainte-Beuve
Paris

• • •

Racine

Bérénice

Les classiques pour tous,

* * *

Racine

Théatre

Deux tomes

Les meilleurs auteures classiques

Français et Etrangers

Paris

* * *

Racine

Phèdre

Classiques Larousse

28e Édition

* * *

Racine

Bajazet

Classiques Larousse

* * *

Les contemporains

Par Jules Le Maître

Paris , Ancienne librairie Furne

* * *

Molière : sa vie dans ses œuvres

Par : Pierre Brisson

Dix - septième édition

Imprimé en France

* * *

Molière : Tartuffe
Les classiques Français
Publié sous la direction du Comité
de la Culture Française 1942

. . .

Molière : Le Tartuffe
Classiques Larousse

. . .

Molière : Le Misanthrope
Classiques Larousse

. . .

Molière : L'Avare
Classiques Larousse

. . .

Notre littérature étudiée dans les textes
Par : Marcel Braunschvig
Deux volumes
Paris 1937

. . .

Molière : Le Bourgeois Gentilhomme
Classiques Larousse

. . .

Molière : Les Femmes Savantes
Classiques Larousse

. . .

Molière : Le Malade imaginaire
Les Classiques pour tous

. . .

La Fontaine
Par : Pierre Clarac
Paris 1926

. . .

La littérature du siècle classique
Par V. L. Saulnier
2e Édition
Paris 1947

. . .

H. Taine
La Fontaine et ses Fables
Paris

. . .

La Fontaine
Fables Choisies
Deux volumes
Classiques Larousse

. . .

La Rochefoucauld
Maximes
Classique Larousses

. . .

Mme dè La FaYette

La princesse de Clèves

Classiques Larousse

• • •

Mme de Sévigné

Lettres choisies

Classiques Larousse

• • •

Qu'est-ce que la littérature ?

Par : Charles Du Bos

Paris 1946

• • •

Textes Choisis et illustrés

Par : P. Avisseau

• • •

Bossuet

Oraisons Funèbres et Sermons

Classiques Larousse

• • •

Histoire

Les temps modernes

Par André Alba

Beyrouth.

• • •

Nouveau cours d'histoire

Le XVII[e] et le XVIII[e] siècles

Par Victor - L. Tapié

Paris 1946

• • •

M. Regnier
Poésies choisies
Classiques Larousse

• • •

Boileau : Satires
Les classiques pour tous
Paris

• • •

Saint - Simon
Mémoires
Classiques Larousse

• • •

Racine : Athalie
Classiques Larousse

• • •

Voltaire : Œuvres critiques
Classiques Larousse

• • •

Racine : Iphigénie
Classiques Larousse

• • •

Fénelon
L'Education des Filles
Les Classiques pour Tous

• • •

Fénelon : Fables
Les Classiques pour Tous

• • •

فهرس الجزء الثالث

